

الإصدار: 97

المسجد النبوي.. وبيوت أمهات المؤمنين

دراسة آثارية معمارية

أ.د. محمد عبد الستار عثمان





المسجد النبوي.. وبيوت أمهات المؤمنين

دراسة آثارية معمارية

د. محمد عبد الستار عثمان

الإصدار: 97 (أبريل 2014م / جمادى الأولى 1435هـ)

الإخراج الفني : محمود محمد أبو الفضل

أ.د. محمد عبد الستار عثمان

من مواليد مصر ١٩٥١م، أستاذ الآثار الإسلامية بجامعة جنوب الوادي المصرية، عمل نائبًا لرئيس جامعة سوهاج حتى عام ٢٠٠٦م. وأشرف على العديد من الرسائل العلمية، وهو عضو في مجالس علمية وهيئات إقليمية ودولية...

حصل على جوائز دولية وعربية منها: جائزة مؤسسة التقدم العلمي بالكويت لأفضل كتاب مترجم سنة ٢٠٠٦م. وله أكثر من أربعة عشر مؤلفًا، وخمسة وثلاثين بحثًا في الآثار والفنون الإسلامية، أهمها: المدينة الإسلامية - سلسلة عالم المعرفة بالكويت ١٩٩٨م.



نهر متعدد... متجدد

مشروع فكري وثقافي وأدبي يهدف إلى الإسهام النوعي في إثراء المحيط الفكري والأدبي والثقافي بإصدارات دورية وبرامج تدريبية وفق رؤية وسطية تدرك الواقع وتستشرف المستقبل.



وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

قطاع الشؤون الثقافية

إدارة الثقافة الإسلامية

ص.ب: 13 الصفاة - رمز بريدي: 13001 دولة الكويت

الهاتف: 22487310 (965+) - فاكس: 22445465 (965+)

نقال: 99255322 (965+)

البريد الإلكتروني: rawafed@islam.gov.kw

موقع «روافد»: www.islam.gov.kw/rawafed

الطبعة الأولى - دولة الكويت

أبريل **2014** م / جمادى الأولى **1435**هـ

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

الموقع الإلكتروني: **www.islam.gov.kw**

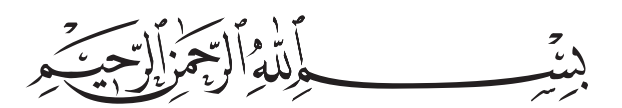
رقم الإيداع بمركز المعلومات: **124 / 2013**

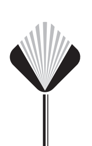
تم الحفظ والتسجيل بمكتبة الكويت الوطنية

رقم الإيداع: **2013 / 100**

ردمك: **978-99966-50-70-2**

فهرس المحتويات


بسم الله الرحمن الرحيم



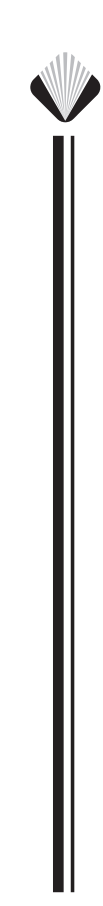
تصدير

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين .

غير خافٍ ما للمسجد النبوي من قيمة كبرى في تاريخ الأمة المسلمة بما يحمله من معاني ودلالات وذكرياتٍ وآثارٍ شاهدة على مواطئ أقدام النبي ﷺ ومسعاه من مصلاه إلى بيوت أمهات المؤمنين... فكيف اختار النبي ﷺ موقع المسجد بما اشتمل عليه؟ وما هي معايير الاختيار؟ وكيف تمت الإفادة من خبرات أهل الاختصاص؟ وكيف كانت مرحلة التأسيس والبناء والهندسة والتصميمات وتطوراتها عبر السنوات الأولى للهجرة حتى استقر البناء على ما هو عليه فترة من الزمان؟!... هذه الأسئلة وغيرها مما يتعلّق بمسجد النبي ﷺ وبيوت أمّهات المؤمنين.. يجيب عليها الأستاذ الدكتور محمد عبد الستار عثمان في دراسته المعمارية الآثارية التاريخية التي بين أيدينا.

ويَسُرُّ إدارةَ الثقافة الإسلامية بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية أن تقدم لقرائها الكرام هذه الدراسة المهمة، إسهاما منها في تنمية الثقافة المعمارية التراثية... سائلة المولى أن ينفع بها وأن يجعلها في ميزان حسنات كاتبها!..

والله من وراء القصد...



مقدمة

نال مسجد الرسول ﷺ اهتمام المسلمين ورعايتهم منذ عهد الرسول ﷺ، وبرز هذا الاهتمام واضحًا فيما تركه الرواة والعلماء والفقهاء والمؤرخون من تراث موثق ومشاهدات مهمة سجلوها في بطون كتبهم اعتزازًا بمسجده ﷺ. وتميز بعضهم كالسمهودي بتحري هذه الروايات، ومحاولة تطبيق ما ورد من معلومات على واقع عمارة المسجد في عهده، وكان عمله دقيقًا إلى حد بعيد، وتعتبر منهجية هذا الأداء مناط استفادة حقة. وهذا التراث المدون عن مسجد رسول الله ﷺ، ومحاولات تحقيق المعلومات حوله وتوثيقها تمثل صورة تراثية مهمة للعمل الآثاري والمعماري في هذه العصور، ويأتي بعد ذلك دور علماء الآثار والمعماريين في العصر الحديث الذي كان لهم تبعًا جهد بارز في هذا المجال، أمثال سوفاجيه وكريسول وأحمد فكري وفريد شافعي وصالح لمعي وغيرهم. وقد تناول بعضهم التراث الأدبي الموروث عن عمارة مسجد رسول الله ﷺ، واستعانوا به في بحوثهم، لكن مستويات الاستفادة والفهم والتوظيف تنوعت واختلفت، وهو ما نتج عنه أيضًا اختلافات في الآراء تبعها لاختلافات في التصورات المعمارية لعمارة المسجد، وتخطيطه، وعناصر تصميمه. ومع تزايد المعلومات لكشف جديد من المصادر بات الأمر ملحًا لمراجعة بعض هذه الدراسات لتأكيدها أو تصحيحها واستكمالها.

إن عملية مراجعة ما ورد في المصادر التراثية مع ما جاء في الدراسات الحديثة والمعاصرة لوضع تصور معماري لمسجد الرسول ﷺ وعمارته في عهده إنما يتطلب منهجية تقوم على محاور أساسية، أهمها:

أولاً- إدراك أهمية «المصطلح» في إطار اختلاف دلالاته من فترة إلى أخرى، ومن مكان إلى آخر، ومن ثقافة إلى أخرى. وتحديد هذه الدلالة في كل فترة في إطارها الجغرافي والثقافي أمر مهم جدًا لوضع تصور دقيق لعمارة المسجد قدر الإمكان في هذه الفترة من الناحية المعمارية يمكن أن

يتجسد في هيئة مادية أو مرئية بحيث يدرك من يشاهدها الهيئة المعمارية لمسجد الرسول ﷺ في عهده.

ومن المصطلحات المهمة التي تحتاج إلى هذا الإدراك: القبلة، والطاق، والمحراب، والذراع، وعضادة، وبيت، وحجرة، وغيرها من المصطلحات التي تثبت دراسة دلالاتها في الأطر التي سبقت الإشارة إليها أهمية معرفة المصطلح، وبخاصة في إدراك التصور المعماري للمسجد.

ثانيًا- إدراك وملاحظة تداخل الروايات الخاصة بالشكل المعماري للمسجد في هذه الفترة واختلافها، وهذا التداخل له أبعاد مختلفة، منها: التداخل الزمني الذي لا يفرق عادةً بين مراحل بناء المسجد الرئيسة، فالمرحلة الأولى في سنة ١هـ التي كانت فيها القبلة إلى القدس، والمرحلة الثانية بعد تحويل القبلة سنة ٢هـ، والمرحلة الثالثة مرحلة توسيع المسجد سنة ٧هـ بعد غزوة خيبر.

والحقيقة أن هذه المراحل قد اختلفت حولها الروايات كثيرا، وبات الأمر ملحًا لتحديد ما يخص كل مرحلة في كل رواية... وكان ذلك ممكناً في إطار مقارنة النصوص في الروايات المختلفة، وكذلك في إطار الاستفادة بأحداث تاريخية مرتبطة بهذه النصوص لا خلاف عليها، وغير ذلك من السبل.

كذلك يلاحظ أن الروايات تنقسم إلى قسمين: قسم موثق بإسناده، وتختلف أحيانًا صيغ الإسناد، وقسم مروي دون إسناد، وهذا القسم الثاني يمكن أن يتضمن تفسيرًا لصاحب الرواية، يرتبط بمشاهداته أو ربطه بين نصوص أخرى مشابهة في روايات أخرى. ومع تتابع نقل الروايات لقرون عدة نجد أن النصوص القديمة أحيانًا تعدل أو تصحف، أو يحدث بها إسقاط لسبب أو لآخر.

وتأسيسًا على ما سبق، باتت الحاجة ملحة لتمحيص الروايات والنصوص

في إطار إدراك ما سبقت الإشارة إليه، حتى نصل إلى اعتماد الروايات التي تصح قدر الإمكان في وضع التصور المعماري للمسجد، ونوضح الروايات التي لا يصح الاعتماد عليها وأسباب ذلك.

ثالثًا- يتوقف فهم النص على مدى المعرفة التراكمية والقدرة على الاستقراء والاستنباط، وهي قدرات ومهارات تختلف من باحث إلى آخر، كما تختلف التخصصات ومصطلحاتها اختلافًا قد لا يدركه باحث في تخصص آخر، فللمؤرخ ثقافته، وللآثاري ثقافته، وللمعماري ثقافته .. والتكامل المعرفي أمر مهم لمن يتصدى لنصوص لها جوانب تاريخية وأثرية، ومعمارية، وفقهية، ولغوية. وكلما وضح هذا التكامل، زاد فهم النصوص، وزادت الاستفادة من مضامينها الحقيقية. ولا شك أن ذلك الأمر يتضح في اختلاف بعض الآراء الناتج عن اختلاف مستويات الفهم، ومن ثم فإن مراجعة ما ورد في مصادر التراث، وفي الدراسات الحديثة في إطار هذا الاعتبار منهج صحيح يفيد في الوصول إلى الرأي الصواب قدر الإمكان.

رابعًا- مراجعة الروايات والدراسات الحديثة المتعلقة بعمارة مسجد رسول الله ﷺ في عهده تكشف عن اتجاهين، الأول تقليدي يتسم بالنقل للروايات دون تمحيص، وهذا هو المتكرر الشائع، والاتجاه الثاني اتجه إلى التمحيص والمراجعة في إطار المطابقة مع ما بقي من شواهد ثابتة ترجع إلى عهد الرسول ﷺ، بل إن بعضها استند إلى التحري الآثاري كمحاولة التأكد من صحة النصوص في إطار البقايا المادية سواء الظاهرة، أو التي جرى الكشف عنها وكانت مدفونة في الأرض. ويظهر ذلك جليًا في بعض المصادر، ومن بعض المؤلفين كابن النجار، والسمهودي تحديدًا، وهو منهج اتبعته بعض الدراسات الحديثة، ليس فقط في تحديد المساحة، ولكن أيضًا في التفاصيل المتعلقة بالعناصر المعمارية، وطرق البناء، ومواده، حتى نصل إلى أدق تصور معماري ممكن.

خامسًا- يلاحظ أن معظم الدراسات الحديثة عن عمارة المسجد لم تهتم بالقدر المطلوب بالتفاصيل المعمارية للعناصر. كما يلاحظ أن بعضها يتجاوز النصوص الواردة بشأن هذه العناصر لأسباب مختلفة، أومأت إلى بعضها المحاور السابقة.

ويأتي في هذا الإطار أيضًا منهجية التخطيط والإنشاء للمسجد، التي تبدأ بتحديد القبلة، وجدار القبلة باعتباره العامل الأساس في تحديد التوجيه المعماري للمسجد، وهو أمر جد مهم لفهم النصوص المتعلقة بمراحل البناء بعد ذلك؛ كالتأسيس، وبناء الجدران، ثم وضع السقف، وهي مراحل تتم في إطار منطقي يدركه المعماري والآثاري أكثر من غيرهما. وإدراك هذا البعد من شأنه أن يمهد للوصول إلى وضع تصور أدق لعمارة المسجد قدر الإمكان.

وفي إطار المحاور السابقة، لا يمكن لباحث أن يدعي أنه قرأ أو عرف كل مصادر التراث التي عالجت عمارة مسجد رسول الله ﷺ، ومن ثم فإن الكشف عن جديد منها أمر وارد، وقد يضيف جديدًا لأي تصور معماري يمكن الوصول إليه. ولذلك فإن التصور الذي يمكن الوصول إليه يمكن أن نعتبره ما أمكن الوصول إليه، وليس بالضرورة هو التصور النهائي الدقيق؛ لأن هناك عناصر وملامح معمارية لم تشر إليها النصوص، ولا يمكن أن تتوصل إليها الدراسات الحديثة إلا في إطار الافتراض المعماري المنطقي لاستكمال التصور قدر الإمكان.

وفي إطار ما سبق، نحاول قدر الإمكان والطاقة تقديم تصور واضح ودقيق يوضح تخطيط المسجد، وبيوت وحجرات زوجات النبي ﷺ، ومواد الإنشاء التي استخدمت، اعتمادًا على منهجية تستند إلى المحاور التي سبقت الإشارة إليها، والتي تبرهن بالدليل والقرينة على سلامة هذا التصور من وجهة نظرنا، وفي إطار ما توفر لنا من مصادر ودراسات.



الفصل الأول
رؤية في التأسيس العمراني للمسجد النبوي

عمارة المسجد في سنة ١هـ

من المهم أن نشير إلى أن عمارة المسجد بعد قدوم الرسول ﷺ سنة ١هـ تبدأ منطقيًا بتحديد مساحته، وتهيئتها للبناء. ثم بعد ذلك يبدأ التخطيط بتحديد موضع القبلة، وجدار القبلة التي تحكم بقية عناصر التخطيط بتوجيهها توجيهًا معينًا ومحددًا في اتجاه القبلة الأولى، التي كانت في هذه الفترة مدينة القدس، وتحديدًا المسجد الأقصى. ثم بعد ذلك يبدأ البناء بوضع الأساس للجدران وفق التخطيط بما يشتمل عليه من عناصر؛ كالقبلة والأبواب، وبعد بناء الأساس تبنى الحوائط، ثم يوضع السقف.

وفي إطار هذا الترتيب المعماري والإنشائي المنطقي نعرض لهذه العناصر.

موضع المسجد:

اتفقت الأحاديث والروايات التاريخية على أن مسجد الرسول ﷺ بني في موضع مربد كان ملكًا لليتيمين سهل وسهيل، واشتراه النبي ﷺ منهما ليبني على أرضه مسجده الشريف[١].

وتتفق الأحاديث والروايات على أن النبي ﷺ وجه أصحابه إلى إعداد أرض المربد للبناء؛ حيث كان بها نخل وغرقد وقبور للمشركين ترجع إلى العصر الجاهلي فأمر بها فنبشت، وأمر بالعظام فغيبت، وكان في المربد ماء مسحل فسيره حتى ذهب، وبالنخل والغرقد فقطع[٢]. حتى صارت الأرض صالحة للبناء.

١- وتشير بعض الروايات إلى أن أسعد بن زرارة بنى في هذا الموضع قبل قدوم رسول الله ﷺ مسجدًا كان يصلي بأصحابه فيه، يجتمع بهم في الجمعة. السمهودي: وفاء الوفاء، ٣٢٦/١، وتشير الرواية إلى أنه كان مجدرًا وليس عليه سقف.

٢- السهيلي (عبد الرحمن بن أحمد بن أبي الحسن، ت: ٥٨١هـ): الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية، لابن هشام، دار الكتب العلمية، ٣٣٧/٢.

مساحة الأرض:

وردت أحاديث وروايات كثيرة توثق لمساحة المسجد عند بنائه الأول سنة ١هـ، ومعظم هذه الروايات تحدد المساحة بصورة صريحة ومباشرة، تفيد بأن طوله من الشمال إلى الجنوب سبعين ذراعًا، وعرضه من الشرق إلى الغرب ستون ذراعًا[١]. وهذا القياس بالذراع يستوجب معرفة قياس «الذراع» المشار إليه في هذه الروايات، وبخاصة مع تنوع قياسات الأذرع التي يختلف العمل بها من وقت إلى آخر، ومن بلد إلى آخر. والذراع الذي أشارت إليه الروايات في ضوء ما ذكرت الدراسات هو «ذراع اليد»، وفي إطار تحقيق حدود مسجد الرسول والقياسات الواردة في الأحاديث والروايات يتأكد أن الذراع المشار إليه هو الذراع الشرعي[٢]. وقد اختلفت الآراء في الدراسات الحديثة في تقدير طول هذا الذراع، ومن ثم فإن تحقيق طول «الذراع» الشرعي من الأهمية بمكان لتحديد قياسات مساحة أرض المسجد تحديدًا دقيقًا مبنيًا على الأساس العلمي، وليس تقريبيًا كما ورد في بعض الدراسات الحديثة[٣].

١- صنف السمهودي هذه الروايات، وصدق هذا التحديد الذي ذكرته الروايات محددًا بهذا التحديد، وكذلك الروايات التي ذكرت أنه كان أقل من مائة ذراع في مائة ذراع. السمهودي (علي بن أحمد): وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ٣٤٠/١. وللاستزادة، راجع: ابن النجار: أخبار مدينة رسول الله، ص ٧؛ ماهر (سعاد)، مساجد في السيرة، ص ٦٩. وهناك روايات ضعيفة أشارت إلى قياسات لم يجمع عليها، أوردها السمهودي، ولم يعتد بها السمهودي. السمهودي، ٣٣٨/١.

٢- من هذه الدراسات: دراسة صالح لمعي مصطفى، الذي ذكر أن قياس الذراع حوالي ٥٠ سم. مصطفى (صالح لمعي): المدينة المنورة تطورها العمراني وتراثها المعماري، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١م، ص ٥٦، ٥٧.

٣- هناك من يرى أن «الذراع» المشار إليه في القياسات ذراع المدينة الذي يزيد قيراطين عن الذراع الشرعي، ومن أمثال هؤلاء المطري، كما وردت روايات يتضح منها أن قياساتها بذراع العمل الذي يساوي ذراعًا شرعيًا وثلثًا. ولكن التحريات التي قام بها السمهودي ترجح أن الذراع الشرعي هو الغالب في الأحاديث أو الروايات. السمهودي، ج٣٣٩/١.

وقد اهتم الباحثون بتحديد طول وحدات القياس للذراع الشرعي والشبر والقامة في ضوء ما ورد من نصوص في المصادر الفقهية المتعلقة بالبنيان وغيرها. وانتهت هذه الدراسات إلى أن طول الذراع الشرعي ٤٦,٢ سم، والشبر ٢٣,١ سم؛ حيث إن الذراع شبران، والإصبع ١,٩٢٥، والذراع أربعة وعشرون إصبعًا، والشبر اثنا عشر إصبعًا، والقامة تعادل أربعة أذرع، وهو ما يعني أن طولها ١٨٤,٨سم[١].

وفي ضوء تحديد هذا القياس للذراع الشرعي، فإن القياس الدقيق لمساحة مسجد الرسول في سنة ١هـ، يكون طول المسجد من الشمال إلى الجنوب ٣٢,٣٤ مترًا، وعرضه من الشرق إلى الغرب ٢٥,٢٧ مترًا.

ومن المهم أن نشير إلى أن الدراسة الحقلية، ومراجعة الرسم الذي نشره إبراهيم رفعت أوضحت أن حوائط المسجد لم تكن متعامدة على بعضها تمامًا[٢]، وهو ما يعني أن القياسات التي وردت في ظاهر نص الروايات كانت تقريبية، سواء بالنسبة للطول أو العرض، ومراجعة المسقط النهائي الذي وضع في إطار الدراسة الحقلية أن جدار القبلة كان أقصر نسبيًا من الجدار الجنوبي الذي يقابله، ومن ثم فإنه يمكن تحديد المساحة في إطار تنفيذ المسقط بهذه الهيئة[٣]، ولكن بالقياس ٢٥,٢٧ × ٣٢,٢٤م.

وقد بدأ بناء المسجد على هذه المساحة التي أنشئت على حدودها حوائط المسجد، والتي اتضح أنها لم تكن متعامدة، ولكن من المؤكد أن هذه الحوائط

١- عثمان (محمد عبد الستار): الإعلان بأحكام البنيان لابن الرامي، دراسة آثارية معمارية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، ٢٠٠٢م، ص ص ١٧٣- ١٧٥، ص ٢١٤.

٢- صالح لمعي: المدينة المنورة تطورها العمراني وتراثها المعماري، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١م، ص ٥٥. (شكل ١، ٢، ٣).

٣- انظر، الشكل رقم (٤٦). مصطفى، المدينة المنورة، ص ٥٦. ويتفق هذا مع رواية ابن النجار التي أشارت إلى أن طول المسجد سبعون ذراعًا أو يزيد. ابن النجار، أخبار المدينة، ص ٦٩. مقارنةً بالروايات الأخرى التي التزمت بتحديد الطول بسبعين ذراعًا.

كانت تتصل في زوايا المسجد التي تمثل أركانه الأربعة.

وهناك من النصوص التاريخية ما يكشف عن تربيع المسجد في هيئة زوايا؛ فقد ذكر ابن النجار أنه عندما أمر الله الرسول ﷺ بالتحول إلى مكة «أقام رهطًا على زوايا المسجد ليعدل القبلة ...»[١]. وورد وصف بناء المسجد بعد ذكر قياساته سبعون ذراعًا في ستين بأنه «مربع»، وكلمة مربع هنا لا يعني تساوي أضلاعه بقدر ما تعني في مصطلح البنيان الزوايا التي تتصل فيها جدران المسجد. فقد ورد في التعريف للبنيان أنه «هو ما له أصل وقرار، وأطلق عليه في عرف الناس بناء، والبناء بهذا المعنى يشمل الدار والبيت والحصن ... وكل ما له اتصال تربيع، واتصال التربيع هو أن يكون في حائط من المدر أو الحجر أو الآجر، تداخل بين أنصاف لبنات حائط المدعي، وأنصاف لبنات الحائط المتنازع فيه ...»[٢].

أساس المسجد:

ذكرت الروايات بعض المعلومات المهمة عن استخدام الحجر في بناء أساسات المسجد[٣]. ويلاحظ أن هذه الروايات تشير إلى أن هذه الأساسات كانت «على الأرض»، بما يعني أن البناء تم دون حفر للأساسات في تخوم الأرض[٤]. وتذكر الروايات أيضًا أن ارتفاع هذه الأساسات وصل إلى نحو ثلاثة أذرع[٥] ١٣٨,٦سم.

١- ابن النجار (محمد بن محمد): أخبار مدينة رسول الله، تحقيق: صالح محمد جمال، مكتبة الثقافة، مكة، ١٩٨١م، ص ٧٠؛ السمهودي، وفاء، ج١/٣٤١.

٢- ابن منظور، لسان العرب، مادة (ب ن ي)، ١٤/٨٩.

٣- ابن النجار: أخبار مدينة رسول الله، ص ٦٩؛ السمهودي، وفاء، ١/٣٤٠.

٤- لم ترد أية إشارة في المصادر لحفر أساسات.

٥- الخزاعي (محمد بن سعود): تخريج الدلالات السمعية، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٥م، ص ٧١٩.

وإذا كانت الروايات التاريخية لم تذكر بصورة صريحة مباشرة مقدار سمك أساسات وجدران المسجد، فإن ما ورد عن طرق البناء التي استخدمت وطول اللبنة يستنبط منه أن سمك الجدران كان ثلاثة أذرع[١].

جدار القبلة:

من الثابت في تخطيط عمارة المساجد أن تحديد اتجاه القبلة وتحديد جدار القبلة تبعًا هو أول خطوة في عمارة المساجد[٢]، حيث إن هذا التحديد بهذا التوجيه يحكم توجيه التخطيط كله، ممثلاً في بقية الجدران والعناصر المعمارية الإنشائية الرأسية والأفقية.

ومراجعة ما ورد من أحاديث وروايات عن بناء الرسول ﷺ للمسجد في المرحلة الأولى سنة ١هـ في إطار هذا النسق تكشف عن أمور مهمة تتصل بـ «القبلة».

ومن المهم الإشارة إلى أن مصطلح «القبلة»[٣] كان هو المصطلح الذي ورد في جميع الأحاديث والروايات المتصلة بعمارة مسجد الرسول ﷺ وغيره في عهد الرسول. في ضوء مراجعة نصوص الأحاديث والروايات بإسناداتها التي تقع زمنيًا في حدود هذه الفترة. ومع تطور عمارة المسجد وبخاصة ما حدث في عهد الوليد سنة ٩١هـ، بدأت تظهر مصطلحات أخرى لها دلالات متصلة بمصطلح القبلة كمصطلح الطاق، والمحراب، وهما من المصطلحات التي وردت في الروايات التاريخية اللاحقة، واستخدمها أصحابها في إطار تطور تغير دلالات المصطلح في إطار الأبعاد الزمنية والجغرافية والثقافية كما سبقت الإشارة. ولذا فإن فهم هذه الروايات فهمًا صحيحًا بعيدًا عن الخلط يستوجب تفسير هذه المصطلحات.

١- السمهودي، وفاء، ج١/ ٣٤٦؛ مصطفى: المدينة المنورة، ص ٥٦.

٢- أحمد فكري: مساجد القاهرة ومدارسها (المدخل)، دار المعارف بمصر، ص ٢٩٧.

٣- سنعود إلى دراسة هذا المصطلح بالتفصيل.

مصطلح القبلة جاء في الأحاديث والروايات ذات الإسناد الذي ينتهي إلى الصحابة أو التابعين، يأتي بثلاث دلالات، الدلالة الأولى، وهي العامة الشاملة الشائعة، والتي ما زالت قائمة إلى اليوم، وهي الكعبة قبلة المسلمين، والتي عرفوا بها «أهل القبلة»، والدلالة الثانية وتعني «جدار القبلة»، والثالثة تعني الموضع الذي يصلي أمامه الإمام في منتصف جدار القبلة[١].

بعد شراء المربد، بدأ العمل في إعداد أرضه للبناء، وتوثق الروايات حال المربد قبل تهيئته للبناء، وكيف تمت هذه التهيئة. فيذكر السهيلي أنه «كان في موضع المسجد نخل وخرب ومقابر للمشركين، فأمر بالقبور فنبشت، وبالخرب فسويت، وبالنخل فقطعت»[٢]. وتفصل رواية السمهودي هذا العمل، فتذكر أن الرسول ﷺ «أمر بالنخل الذي في الحديقة وبالغرقد أن يقطع، وكانت فيه قبور جاهلية، فأمر بها فنبشت، وأمر بالعظام أن تغيب، وفي المربد ماء مسحل فسيره حتى ذهبت»[٣]. وهكذا صارت أرض المربد صالحة للبناء.

وبعد إعداد الأرض بدأت عملية البناء وفق تخطيط معين على المساحة التي أنشئ عليها، وتشير الروايات إلى قياسات هذه المساحة، وأجمعت معظم هذه الروايات على أن مساحة المسجد في هذه المرحلة الأولى كانت سبعين ذراعًا من الشمال إلى الجنوب، وستين ذراعًا من الشرق إلى الغرب. فقد نقل النووي ذلك في منسكه عن خارجة أحد فقهاء المدينة السبعة، ولفظه: بنى رسول الله ﷺ مسجدًا سبعين ذراعًا في ستين ذراعًا أو يزيد، وهو الذي جزم به ابن النجار»[٤].

١- عثمان، محمد عبد الستار: درهم العنزة والمحراب، رؤية جديدة. تحت النشر.

٢- السهيلي، الروض الأنف، ج٢/٣٣٧.

٣- السمهودي: وفاء الوفاء، ج١/٣٢٦.

٤- السمهودي: وفاء الوفا، ج١/٣٤١. ومن المهم الإشارة إلى أن السمهودي جمع هذه الروايات وصنفها في أربعة أقسام، رجح القياس المشار إليه، وقد أثبتت المراجعة الحقلية صحة ما ذكر (السمهودي: وفاء الوفاء، ج١/٣٤٠؛ العمري (ابن فضل الله): مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج١/٨٧؛ سعاد ماهر: مساجد في السيرة، ص ٦٩).

ومن المهم الإشارة إلى أن الرواية لم تكن قاطعة بتحديد الطول أو العرض؛ حيث أضافت كلمتي «أو يزيد» بعد ذكر القياس سبعين في ستين ذراعًا، وهاتان الكلمتان مهمتان في تفسير نتائج الدراسة الحقلية التي قام بها صالح لمعي مصطفى مستعينًا بالقياسات التي ذكرتها المراجع، ومعتمدًا على دراسة السمهودي للروايات التي عرضت للقياسات بتفاصيلها باعتبارها أصح القياسات، كما ثبت من الدراسة الحقلية. وقد أثبتت هذه الدراسة الحقلية في إطار الواقع، ومع الاستعانة أيضًا بالمخطط الذي نشره إبراهيم رفعت أن حوائط المسجد لم تكن متعامدة تمامًا[1]. وهو ما يعني أن القياسات التي ذكرت في ظاهر الرواية كانت تقريبية عندما حددت بسبعين ذراعًا في ستين، وأن الرواية التي أضافت كلمتي «أو يزيد» كانت أدق؛ لأن هذا القياس كان في بعض أضلاعه زيادة تتسبب غالبًا في عدم تعامد زوايا المخطط كما هي نتيجة الدراسة الحقلية، مع الاستعانة بما ورد من قياسات.

والملاحظ أن القياس كان بالذراع، ولم تحدد معظم الروايات التي سبقت الإشارة إليها نوع الذراع[2]. ولم تحدد طوله سيما وأن أطوال الذراع تختلف بتنوعها في العصور المختلفة وفي البلاد المختلفة[3]. ولما كان الحال كذلك فإن هذا القياس بالذراع يستوجب معرفة قياس الذراع المشار إليه في الروايات.

وفي إطار تحقيق حدود المسجد التي اهتم بتحديدها في المصادر وفق علامات معينة سواء في السقف أو الأرض أو الدعامات. ووثقتها أيضًا

١- من أهم هذه الدراسات دراسة صالح لمعي مصطفى، الذي ذكر أن قياس الذراع حوالي ٥٠ سم. مصطفى (صالح لمعي) المدينة المنورة، تطورها العمراني وتراثها المعماري، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١م، ص ص ٥٦- ٥٧.

٢- السمهودي: وفاء الوفاء، ج١/ ٢٤٠.

٣- هناك من يرى أن الذراع المشار إليه في الروايات هو ذراع المدينة، الذي يزيد قيراطًا على الذراع الشرعي، وذكر السمهودي ذلك في إشارة إلى رواية المطري.

الروايات التي تسجل القياسات في كل مرحلة من مراحل توسعة المسجد في العصور المختلفة، وانتهت إلى تحديدها الدراسة الحقلية التي سبقت الإشارة إليها. اتضح أن الذراع المذكور في الرواية هو غالبًا الذراع الشرعي[١].

وتأسيسًا على اعتبار الذراع الشرعي هو الذراع الذي ورد في الروايات السابقة التي حددت مساحة المسجد، فإن تحقيق طول الذراع الشرعي يبدو مهمًا لتحديد قياسات المسجد تحديدًا دقيقًا مبنيًا على هذا التحديد، وليس بافتراض طول تقريبي لهذا الذراع كما ورد في الدراسات الحديثة التي افترضت طولاً تقريبيًا للذراع الشرعي، وهو ٥٠ سم[٢].

وأوضحت الدراسات الدقيقة للذراع الشرعي في إطار دراسات لوحدات أخرى للقياس كالشبر والقامة وردت في المصادر الفقهية وغيرها- كما سبقت الإشارة-، أن طول الذراع الشرعي ٤٦,٢سم، وأن الشبر ٢٣,١ سم؛ حيث إن الذراع شبران، والإصبع ١,٩٢٥ سم، والذراع أربعة وعشرون إصبعًا، والشبر اثنا عشر إصبعًا، والقامة تعادل أربعة أذرع، وهو ما يعني أن طولها ١٨٤,٨ سم[٣].

وفي ضوء تحديد هذا القياس للذراع الشرعي، فإن القياس الدقيق للمسجد في سنة ١هـ سبعون ذراعًا في ستين ذراعًا يمكن تحديده بالمتر وحدة القياس الحالية ٣٢,٢٤ متر من الشمال إلى الجنوب ٢٥,٧٢ متر من الشرق إلى الغرب. وإذا كانت أدق الدراسات الحقلية قد أشارت إلى أن القياس بالمتر

١- ذكر السمهودي تفصيلاً مهمًا بخصوص الذراع، فقال: «اعلم أن الذراع حيث أطلق فالمراد به الذراع الآدمي، وقد ذكر في تحديد الحرم أن ذراع غير ثمن من ذراع الحديد المستعمل في مصر ومكة، وهو شبران تقريبًا. (السمهودي، وفاء، ج١/ ٢٤٠). وفي موضع آخر ذكر السمهودي أن ذراع العمل ذراع وثلث من ذراع الجديد، وذراع العمل ذراع ونصف بالذراع في عهد الرسول، وذراع الحديد ٣٢ قيراطًا، وذراع العمل ذراع ونصف قيراط بالذراع الذي حررناه. (السمهودي، ج١/ ٣٤٧).

٢- مصطفى: المدينة المنورة، ص ٥٦- ٥٧.

٣- الريس (ضياء الدين): الخراج، ص ٢٨٢- ٣١١؛ محمد عبد الستار عثمان: الإعلان بأحكام البنيان، ص ١٧٣- ١٧٥، ص ٢١٤.

وحدة القياس الحالية ٣٥ × ٣٠ متر[١]. ووضع المسقط النهائي في إطار هذا القياس، فإن هذا المسقط يمكن تنفيذه، ولكن بالقياس الذي يترجم بدقة طول الذراع الشرعي.

وإذا كانت الدراسات الحقلية في ضوء الروايات قد أوضحت عدم تعامد زوايا المسجد، والذي سبقت الإشارة إلى أن تفسيره يرجع إلى اختلاف أطوال الأضلاع نسبيًا عما ورد في الروايات، سيما وأن بعضها أشار إلى أن هذه الأطوال «كان بها زيادة»، فإن الثابت من خلال هذه الدراسات الحقلية ومن الروايات أيضًا أن أركان البناء كانت في هيئة زوايا تلتقي فيها الجدران في الجهات الأربع، وأن هذه الزوايا تمثل هيئة أركان المسجد الأربعة.

وتصدق الروايات على هذه الهيئة من خلال ما ورد عن تربيع البناء، أو كونه مربعًا، فقد ذكر ابن النجار أنه بعد نزول الأمر الإلهي بتحويل القبلة إلى مكة، أقام الرسول ﷺ «رهطًا على زوايا المسجد ليعدل القبلة»[٢]. كما أنه وصف بناء المسجد عند بنائه الأول، وذكر قياساته سبعين ذراعًا في ستين ذراعًا، وذكر أنه كان «مربعًا»، وكلمة «مربع» في هذا السياق لا تعني تساوي الأضلاع، فلم تكن الأضلاع متساوية، بقدر ما تعني في مصطلح البنيان «الزوايا»، التي تتصل فيها جدران المبنى، فقد ورد في تعريف البنيان أنه «ماله أصل وقرار»، وأطلق عليه في عرف البناء بناء، والبناء بهذا المعنى يشمل الدار والبيت والحصن ... وكل ما له اتصال تربيع، واتصال التربيع هو أن يكون في حائط من المدر أو الحجر تداخل بين أنصاف لبنات حائط المدعى وأنصاف لبنا الحائط المتنازع عليه»[٣].

وتشير الروايات إلى أن عملية بناء المسجد بدأت مباشرة بعد تمهيد

١- انظر: شكل رقم (٤٦). (مصطفى: المدينة المنورة، ص ٥٦).

٢- ابن النجار: أخبار مدينة رسول الله، ص ٦٩- ٧٠؛ السمهودي، وفاء الوفاء، ج١/٣٤١.

٣- ابن منظور: لسان العرب، مادة (ب ن ي)، ج١٤/٨٩.

الأرض وتهيئتها للبناء، فتذكر الروايات نصًا واحدًا يسجل هذه البداية، وجاء النص غامضًا في بعض منها، ومن المهم أن نذكر هذه الروايات لنبين أن مقارنة نص الروايات يمكن أن يبين ما قد يحدث من اختلاف في بعض كلماتها، وبرصد هذا الاختلاف يمكن أن يتضح المضمون.

ذكر السمهودي أن الرسول ﷺ لما أخذ المربد «كان فيه نخل وقبور المشركين وخرب، فأمر النبي ﷺ بالنخل فقطع، وبقبور المشركين فنبشت، وبالخرب فسويت، فصفوا النخل قبلة، وجعل عضادتيه حجارة»[1]. وعلق السمهودي على غامض النص، وهو «فصفوا النخل قبلة»، فقال: وكأن معنى صف النخل قبلة له جعلها سواري في جهة القبلة ليسقف عليها، كما في الصحيح: «كان المسجد على عهد رسول اللّه ﷺ مبنيًا باللبن وسقفه الجريد، وعمده خشب النخل»[2]. وهو تفسير سنعود إلى مناقشته.

وذكر ابن النجار رواية مشابهة مع اختلاف بسيط لكنه مهم؛ حيث يذكر رواية البخاري ومسلم في الصحيحين من حديث أنس بن مالك كان النبي ﷺ لما أخذ المربد من بني النجار أن فيه نخل وقبور المشركين وخرب، فأمر النبي ﷺ بالنخل فقطع، وبقبور المشركين فنبشت، وبالخرب فسويت، قال: فصفوا النخل قبلة له، وجعلوا عضادتيه من الحجر ...»[3]. وقد ورد في سيرة ابن هشام هذا النص بعينه[4]. وتختلف هذه الرواية في إضافة «له»، وبقي الضمير «الهاء» غامضًا، وإن كان السياق يحتمل أنه المسجد.

وجاءت رواية ابن كثير أكثر وضوحًا، فقد نقل عن البخاري قوله: «كانت فيه (المربد) قبور للمشركين، وكانت فيه خرب، وكان فيه نخل، أمر رسول اللّه

١- السمهودي: وفاء الوفا، ج١/٣٢٧. وهذه الرواية بعينها أوردها العمري في مسالكه، ج١/٥٨٦.

٢- السمهودي، وفاء الوفا، ج١/٣٢٧، ٣٢٨.

٣- ابن النجار: أخبار مدينة رسول اللّه، ص ٦٩.

٤- سعاد ماهر: مساجد في السيرة، ص ٦٨؛ ابن هشام، ج١/٤٩٤.

ﷺ بقبور المشركين فنبشت، وبالخرب فسويت، وبالنخل فقطع، قال: فصفوا النخل قبلة المسجد، وجعلوا عضادتيه حجارة، فجعلوا ينقلون الصخر وهم يرتجزون ورسول الله ﷺ يقول: اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة، فانصر الأنصار والمهاجرة. وقد رواه البخاري في موضع آخر ومسلم[1].

وهذه الرواية أوضحت أن الضمير في كلمة «له» في الرواية السابقة هو المسجد؛ حيث ذكر النص مباشرةً بأنهم «صفوا النخل قبلة للمسجد»، وهذا الوضوح يجعل مراجعة تفسير السمهودي واجبة، حيث إن النص يشير مباشرة إلى أنهم «صفوا النخل قبلة المسجد»، أي جعلوا النخل في هيئة مصفوفة تمثل قبلة المسجد، وقبلة المسجد هنا تعني أن النخل جعل بهذه الهيئة بصفة مؤقتة إلى أن يتم البناء، وهو تفسير منطقي قال به بعض الباحثين[2]. ويتضمن النص بعد ذلك جملة مهمة مرتبطة بهذه الجملة نصها: «وجعلوا عضادتيه حجارة، وجعلوا ينقلون الصخر»، وفي هذه الجملة في إطار السياق السابق إشارة واضحة إلى أن العنصر المعماري الذي بني في هذا الموضع كان من حجارة، وبعضادتين، وتفسير هذا العنصر وتحديد هويته في هذا النص يستوجب معرفة المعنى اللغوي لكلمة «عضادة»، ويستوجب قبل ذلك مراجعة الإطار الزمني الذي تمت فيه عملية إنشاء المسجد، فالنص كاملاً يسجل ما فعله الرسول ﷺ بعد شراء المربد من تهيئة الأرض، ثم بدء البناء. وأول ما يبدأ به البناء في المسجد في إطار طبيعة تخطيط المسجد وتوجهه إلى القبلة التي كانت القدس في هذه الفترة هو جدار القبلة. ويبدأ جدار القبلة بتحديد اتجاه القبلة في وسط هذا

١- ابن كثير: البداية والنهاية، ج٣/ ٢١٥.

٢- راجع: الوكيل (محمد السيد): المسجد النبوي عبر التاريخ، جدة: دار المجتمع للنشر والتوزيع، ١٤٠٩هـ، ابن صالح (محمد بن عبد الله): الحرم النبوي الشريف نشوءه وتوسعاته، بحث في ندوة عمارة المساجد، المجلد الأول، عمارة الحرمين الشريفين، الرياض، ١٩٩٩م.

الجدار الذي يمتد باستقامة جانبيها بالطول المطلوب مع توسط موضع القبلة في هذا الجدار.

ويشير النص إلى أن استكمال هذا العنصر الذي بني بالحجر كان أول ما تم حيث تذكر الرواية أنهم «بعد أن جعلوا عضادتيه حجارة، فجعلوا ينقلون الصخر»، وهو ما يشير إلى استكمال بناء هذا العنصر الحجري ذي العضادتين بالحجر.

ويزداد الأمر وضوحًا من خلال روايات مهمة أخرى، فقد ذكر ابن كثير ما قاله البيهقي في الدلائل: «حدثنا أبو عبد الله الحافظ إملاء، ثنا أبو بكر بن إسحاق، أخبرنا عبيد بن شريك، ثنا نعيم بن حماد، ثنا عبد الله بن المبارك، أخبرنا حشرج بن نباتة، عن سعيد بن جهمان عن سفينة مولى رسول الله ﷺ قال: «جاء أبو بكر بحجر فوضعه، ثم جاء عمر بحجر فوضعه، ثم جاء عثمان بحجر فوضعه، فقال رسول الله ﷺ: هؤلاء ولاة الأمر من بعدي». ثم رواه من حديث يحيى بن عبد الحميد الجماني عن حشرج بن سعيد عن سقيفة قال: لما بنى رسول الله ﷺ المسجد وضع حجرًا، ثم قال: «ليضع أبو بكر حجرًا، ثم ليضع عمر حجره، إلى جنب حجر أبي بكر، ثم ليضع عثمان حجره إلى جنب حجر عمر»، فقال رسول الله ﷺ: «هؤلاء الخلفاء من بعدي»[١]. وقد ذكر السمهودي هذه الرواية الثانية بعينها[٢].

وذكر رواية أخرى فقال: «روى أبو يعلى برجال الصحيح، إلا أن التابعي لم يسم عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما أسس رسول الله ﷺ مسجد المدينة، جاء بحجر فوضعه، وجاء أبو بكر بحجر فوضعه، وجاء عمر بحجر فوضعه، وجاء عثمان بحجر فوضعه، قالت: فسئل رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: هذا أمر الخلافة من بعدي»[٣].

١- ابن كثير: البداية، ج٢/٢١٨.

٢- السمهودي: وفاء الوفاء، ج١/٣٣٢.

٣- السمهودي: وفاء الوفاء، ج١/٣٣٢.

وأسند ابن زبالة عن حسن بن محمد الثقفي قال: بينا رسول الله ﷺ يبني في أساس المسجد، ومعه أبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، فمر به رجل فقال: يا رسول الله، ما معك إلا هؤلاء الرهط؟ فقال رسول الله ﷺ: «هؤلاء ولاة الأمر من بعدي»[١].

وتستمر الروايات لتزيد الأمر وضوحًا فيما يتعلق بهذا العنصر المعماري الذي بنيت عضادتيه من الحجر، وشارك فيه أبو بكر وعمر وعثمان – رضي الله عنهم – مشاركة رمزية فسرها رسول الله تفسيرًا يتعلق بأن الخلافة من بعده لهؤلاء بالترتيب، وهو تفسير يلقي ضوءًا على أن هذا العنصر هو الذي يقف فيه الإمام في المسجد وهو «القبلة» أو المحراب بمصطلحنا المعاصر.

ومن هذه الروايات ما ذكره السهيلي، الذي قال: بني مسجد الرسول ﷺ، وسقف بالجريد، وجعلت قبلته من اللبن، ويقال من حجارة منضودة بعضها على بعض وحيطانه باللبن»[٢]. وقد ذكر ابن فضل الله العمري رواية السهيلي بنصها[٣].

وزاد عليها: «وجعلت عمده من جذوع النخل»، وهذه الرواية تتحدث عن القبلة من ناحية استخدام مواد البناء التي استخدمت في بناء القبلة (المحراب)، فقد أشار إلى أنها من اللبن، ثم أشار في قول آخر بأنها من «حجارة منضودة بعضها فوق بعض»، والحجارة المنضودة أي المتسقة بعضها مع بعض[٤].

١- السمهودي: وفاء الوفاء، ج١/٣٣٢.

٢- السهيلي: الروض، ج٢/٣٣٩.

٣- العمري (ابن فضل الله): مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، إصدار فؤاد سزكين،معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، فرانكفورت، ألمانيا، ج١/٩٦.

٤- مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، الطبعة الثالثة، ج٢/٩٦٦.

ثم تعود الروايتان لتشيرا إلى أن حيطان المسجد باللبن، وهو ما يعني ضمنًا أن جدار القبلة كان باللبن، وهو أمر يتوافق وكل الروايات التي أشارت إلى أن بناء حيطانه كان باللبن، وإذا كان الأمر كذلك فإن كلمة «قبلته» تنصب على المحراب - بمصطلحنا المعاصر تحديدًا- في إطار استخدام مصطلح «قبلة» الذي استخدم في عهد الرسول ﷺ، بل وحتى في القرن الأول كله، حيث إن المصطلحات الأخرى كالطاق والمحراب ظهرت في القرون التالية[1].

وتتكرر الروايات التي تؤكد أن بناء المسجد باللبن وبناء عضادتيه بالحجر مما يصدق ما سبقت الإشارة إليه. فيذكر الخزرجي نقلاً عن ابن جماعة رواية مفادها «أن رسول الله ﷺ أمر ببناء المسجد باللبن، وجعلت عضادتاه بالحجارة، وسواريه من جذوع النخل، وسقفه الجريد ... وجعل الأساس قريبًا من ثلاثة أذرع على الأرض بالحجارة، ثم بنوه باللبن»[2].

هيئة قبلة مسجد الرسول ﷺ سنة ١هـ:

اتضح من الروايات السابقة أن «قبلة» مسجد رسول الله ﷺ بنيت من الحجر، وشارك الصحابة أبو بكر وعثمان في وضع أحجارها في إطار رمزية تشير إلى توليهم الخلافة من بعد الرسول ﷺ، وكان ﷺ هو صاحب هذه النبوءة. كما اتضح أن القبلة كان عضادتاها من الحجر.

وقد ذكر الخزرجي في تفسيراته اللغوية للمصطلحات الواردة في نصه عن بناء المسجد، ومنها العضادتان في الفائدة الخامسة من الفوائد التي ذكرها تفسيرًا للمصطلحات المعمارية الواردة في الروايات التي اعتمد عليها فقال: إنه ورد «في الصحاح أعضاد كل شيء ما يشد حواليه من البناء

١- سنعرض التفصيل لهذه المصطلحات.

٢- الخزاعي: الدلالات السمعية، ص ٧١٩.

وغيره كأعضاد الحوض، وهي حجارة تنصب على شفيره، وكذلك عضادتا الباب ناحيتاه»[1].

وذكر ابن حجر أن عضادتيه بكسر المهملة، وتخفيف المعجمة تثنية عضادة، وهي الخشبة التي على كتف الباب، ولكل باب عضادتان، وأعضاد كل شيء ما يشد جوانبه[2].

وقد تكرر استخدم لفظ عضادة في الروايات التي تتحدث عن أبواب بيوت زوجات النبي ﷺ، فقد ورد أن بيت فاطمة بنت رسول الله ﷺ كان خلف بيت النبي، وكان رسول الله ﷺ يأتي بابها كل صباح، فيأخذ بعضادتيه، ويقول: الصلاة الصلاة، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا. ويتضح من هذه الرواية أن عضادتي الباب هما جانباه. وإذا تصورنا أن القبلة لها «عضادتان» كعضادتي الباب، وأن القبلة كان صدرها مبنيًا، يتضح أن هيئة القبلة كان عبارة عن دخلة لها عضادتان في الجانبين. وهذا هو الشكل المعماري المتعارف عليه لدخلة المحراب أو حنيته، ويمكن أن تكون هذه الحنية ذات مسقط مستطيل أو مقوس، لكن لا يمكن القطع بتحديد هيئة تجويف الحنية، كما لا يمكن القطع بهيئة قطاعها العلوي من حيث هو معقود أم غير معقود. لكن البساطة المعمارية التي أنشئ بها المسجد في هذه المرحلة تفترض أن تكون دخلة القبلة بسيطة أيضًا، وهي البساطة التي ترجح أن يكون مسقطها مستطيلاً، وأنها غير معقودة حتى إن هيئة الحنية المقوسة والمعقودة في قطاعها العلوي هيئة متطورة معماريًا عن الهيئة المفترضة. كما أن الوصف المعماري الذي ورد في الروايات والذي حدد أهم ملامحها، وهما العضادتان،

١- في الصحاح: حواليه، وكان على المحقق أن يذكر النص الصحيح في المتن. ترك المحقق الكلمة غير الصحيحة «حواليه» في المتن. الخزرجي: الدلالات السمعية، ص ٧٢٠.

٢- ابن حجر: فتح الباري، ج٧/٣٠٥. راشد: عمارة المساجد، ص ٨٥٤، وقد ذكر هذا الباحث الأخير تفسيرات غير صحيحة لهذا اللفظ.

وعدم ذكر أية تفاصيل أخرى يزيد الافتراض ترجيحًا. (انظر: شكل ٣).

وفي سنة ٢هـ كان التوجيه بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى مكة المكرمة، فقد نزلت الآية الكريمة ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾[١]. وتبع ذلك تعديل معماري مهم تمثل في تعديل اتجاه «القبلة»؛ حيث سد الرسول ﷺ الباب الذي في الضلع الجنوبي الذي أصبح جدارًا للقبلة، ووضع قبلته فيه في اتجاه مكة[٢]. بهيئة معمارية مشابهة للهيئة التي كانت عليها القبلة، في الجدار الشمالي غالبًا، كما سيتضح من رواية نقلها إلى جدار القبلة على يد عمر بن عبد العزيز.

ولم تشر المصادر إلى ما تم بخصوص القبلة الأولى، ولكن ما جاء فيها يشير إلى أن حائط القبلة القديم بقي مكان أهل الصفة[٣]. حيث إن موضعهم الأول حل محله رواق القبلة الجديد بعد تحويل القبلة. ويلاحظ أن هذه الرواية تنصب على الجدار الشمالي، ولم تعرض تحديدًا للقبلة الأولى التي كانت به، ومن ثم لا نستطيع تحديد ما حدث بشأنها، فهل نقلت إلى موضع القبلة في الجدار الجنوبي، وأصبح موضعها الباب الجديد البديل عن الباب الذي سد في الجدار الجنوبي سيما وأن الرواية تشير إلى أن الباب المحدث بالجدار الشمالي كان بحذاء الباب الذي كان بالجدار الجنوبي[٤].

ولم ترد أية إشارات عن هيئة القبلة في زيادة عمر، لكن السهيلي عندما تحدث عن زيادة عثمان قال: «فلما بناه (مسجد الرسول ﷺ) عثمان بناه بالحجارة المنقوشة بالقصة، وسقفه بالساج، وجعل قبلته من الحجارة»[٥].

١- سورة البقرة، من الآية (١٤٤).

٢- سنعود لتفصيل ذلك عند معالجة الموضوع في إطار ترتيبه الزمني.

٣- السمهودي، وفاء، ج٢/٣٦٧.

٤- السمهودي، وفاء، ج١/٣٣٧.

٥- السهيلي، الروض، ج٢/٣٣٩.

ولهذه الرواية أهميتها من ناحيتين الناحية الأولى أن بناء المحراب كان بالحجر وبهيئة مختلفة، فحجارة البناء منقوشة بالقصة، أي مكحولة بها، والكحل يعني عدم نحت الحجر نحتًا جيدًا أو ترويمه، ولذا لا يحتاج الكحل بالقصة. أما القبلة فذكرت الرواية أنها بنيت بالحجر دون نقشه بالقصة، وهو ما يعني ضمنًا أن الحجر كان لا يحتاج إلى ما تحتاج إليه الأحجار التي بنيت بها بقية الجدار من كحل بالقصة، وهكذا تأتي قبلة زيادة عثمان مبنية بالحجر، كما كانت قبلة مسجد الرسول ﷺ.

والفائدة الثانية من هذه الرواية تتجسد في أن عثمان لم ينقل قبلة رسول الله التي بناها بعد تحويل القبلة سنة ٢هـ في الجدار الجنوبي للمسجد.

ومن المهم أن نشير إلى رواية غاية في الأهمية تشير إلى أن نقل قبلة مسجد الرسول كان في التوسعة الأموية في عهد الوليد بن عبد الملك، والتي نفذها واليه على المدينة عمر بن عبد العزيز؛ حيث يذكر ابن النجار والسمهودي وغيرهما أنه «لما صار عمر إلى جدار القبلة دعا مشائخه من أهل المدينة من قريش والأنصار والموالي والعرب، فقال لهم: تعالوا، احضروا بناء قبلتكم، لا تقولوا عمر غير قبلتنا، فجعل لا ينزع حجرًا إلا وضع مكانه حجرًا».

وقد ذكر السمهودي رواية مشابهة عن ابن زبالة عن محمد عن جده قال: لما صار عمر ابن عبد العزيز إلى جدار القبلة، دعا مشيخة من أهل المدينة من قريش والأنصار والعرب والموالي فقال لهم: تعالوا احضروا بنيان قبلتكم، لا تقولوا عمر غير قبلتنا، فجعل لا ينزع حجرًا إلا وضع مكانه حجرًا»[١].

وتكشف هاتان الروايتان عن مدى حرص عمر بن عبد العزيز على نقل قبلة مسجد رسول الله التي بناها بهيئتها إلى جدار القبلة الجديد في المسجد بعد توسعته، وبنفس هيئتها التي وصفها النبي ﷺ دون تغيير،

١- السمهودي: وفاء الوفاء، ج٢/ ٥٢٠؛ الولي: المساجد، ص ٢٢١.

واستباقًا لأي نقد يمكن أن يحدث بسبب هذا النقل بدقة ملحوظة اتسمت بوضع كل حجر في موضعه، وهو ما يعني بوضوح أنها نقلت بهيئتها التي بناها بها رسول الله ﷺ[1].

وإذا كان الأمر كذلك فإن عمر بن عبد العزيز يكون قد نقل قبلة الرسول بهيئتها، وهي الهيئة التي تتعدد الروايات التي تشير إلى أنها كانت «مجوفة»، أي عبارة عن دخلة لها عضادتان في الجانبين[2]. وهذا يثبت أن قبلة مسجد الرسول «حنية المحراب» كانت مجوفة.

وإذا كان الأمر كذلك، فإن التساؤل الذي يطرحه المنطق المعماري هو أن قبلة المسجد في العصر الأموي من المفترض أنها أنشئت بهيئة تتوافق مع ارتفاع جدران المسجد، وهو ارتفاع يفوق بكثير ارتفاع جدران مسجد رسول الله ﷺ، فكيف تم تحقيق هذا التوافق؟ والإجابة تفترض افتراضًا منطقيًا مؤداه أن الدخلة رفع البناء فوقها، ثم عقدت في هيئة «الطاق» يعمل عقد يتقدم طاقية الحنية لتبدو في هيئة حنايا المحاريب المعتادة. ويتوافق هذا الافتراض مع ما ذكر في الروايات من أن عمر أدخل الطاق[3]. كعنصر جديد في عمارة المسجد. أو أن عمر بنى دخلة عميقة نسبيًا معقودة بطاق في أعلاها، ووضع بداخلها «قبلة رسول الله»، بعد نقلها إلى هذه الحنية.

وبعد هذا العرض الموثق لما كانت عليه هيئة قبلة مسجد الرسول ﷺ في عمارته في سنة ١هـ، ثم بعد تحويل القبلة وبناء قبلة في الجدار الجنوبي،

١- يُعد هذا العمل من أوائل الأعمال المعمارية في العمارة الإسلامية التي يتم بها نقل أثر معماري من موضعه، ووضعه في بناء جديد، مع الاحتفاظ بذات الهيئة.

٢- ابن النجار: أخبار مدينة رسول الله، ص ١٠٠؛ السمهودي: وفاء الوفا، ج١/٥٢٠؛ الولي: المساجد، ص ٢٢١.

٣- السمهودي: وفاء، ج٢/٥٢٦- ٥٢٧.

هي التي قلدها عثمان في عمارته غالبًا[1]. وهي التي نقلت في التوسعة الأموية، بقي التساؤل حول الروايات التي أشارت إلى أنه لم يكن هناك «محراب» في مسجد الرسول ﷺ عند بناء الرسول ﷺ، وأن ذلك ظهر في فترات لاحقة كرواية الحربي الذي ذكر فيها: «فحدثني يحيى بن حسن بن عبد الوهاب عن محمد بن عمر عبد المهيمن بن عباس عن أبيه، قال: مات عثمان، وليس في المسجد شرفات ولا محراب، وأول من أحدث الشرفات والمحراب عمر بن عبد العزيز»[2].

ومناقشة هذه الروايات التي تنكر وجود محراب في مسجد الرسول وقت بنائه، وكذلك الروايات المتعلقة بالرأي الفقهي حول إباحة إنشاء المحاريب في المساجد أو كراهيتها أمر مهم لتأكيد ما سبق عرضه حول إثبات وجود «محراب» في عمارة مسجد الرسول ﷺ عندما بناه الرسول ﷺ. وهذه المناقشة تستوجب مناقشة مدلولات ثلاثة مصطلحات معمارية مهمة وردت في الروايات التي عرضت لمسجد رسول الله ﷺ في عهده وعهد الخلفاء من بعده. ومتابعة دلالات هذه المصطلحات في الإطار الزمني والمكاني لاستخدامها. وهذه المصطلحات الثلاثة وفق الترتيب الزمني هي: «القبلة»، و«الطاق»، و«المحراب».

ومنهجية بحث هذه المصطلحات تتأسس على عرض المصطلح من خلال الروايات التاريخية ذات الإسناد الذي يعني دقتها، وكذلك الروايات التاريخية غير المسندة، وبخاصة في المصادر المتأخرة، التي لم تهتم بتوثيق الإسناد- لكشف دلالة المصطلح في إطاره الزمني، والمكاني سيما وأن

١- راشد (رامي عبد الجواد): عمارة المساجد في عهد المولى إسماعيل بمدينة مكناس، ماجستير، كلية الآثار، جامعة القاهرة، ٢٠١١م، ص ٨٧٣.

٢- الحربي: المناسك، ص ٣٦٨؛ السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن): حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٩٨٩م، ج٢/٢٤٠؛ عبد الرازق، أحكام المحراب، ص ٣٥.

للمصطلح أكثر من دلالة معمارية، منها ما بقي مستمرًا طوال العصور، ومنها ما انحسر استخدامه، ومنها ما شاع استعماله في عصرنا الحالي شيوعًا كان من أسباب عدم معرفة الدلالات الأخرى. لشيوع دلالة واحدة منها لأسباب مختلفة، وهي المعرفة التي تفيد في تفسير ما حدث من تداخل وخلط أدى إلى إنكار وجود المحراب في عمارة مسجد رسول الله ﷺ، أو كراهية الصلاة فيه لدى بعض الفقهاء والمؤرخين الذين تناقلوا هذا الرأي منذ العصر العباسي وحتى الآن.

مصطلح «القبلة»:

تكشف الأحاديث والروايات التاريخية عن عمارة مسجد رسول الله ﷺ والمساجد الأخرى التي أنشئت في عهد مسجد قباء على أن لفظ «القبلة» كان هو المصطلح السائد، وأن هذا اللفظ استخدم بدلالات ثلاث أساسية، أولها الكعبة باعتبار أن المصلى يقابلها، وفق التوجيه الإلهي، الذي أمر بالتوجيه إليها في الصلاة، والدلالة الثانية التي تأتي في سياق بعض الروايات بما يعني أنها «جدار القبلة» كله، والدلالة الثالثة تنصب على الموضع الذي يصلي أمامه الإمام في منتصف جدار القبلة، والذي يسمى بالمصطلح المعاصر «حنية المحراب».

فقد ذكر السهيلي -كما سبقت الإشارة- أن مسجد رسول الله ﷺ عند بناء الرسول ﷺ له «جعلت قبلته من اللبن، ويقال بل من حجارة منضودة بعضها على بعض، وحيطانه باللبن، وجعلت عمده من جذوع النخل»[١]. ونقل ابن فضل الله العمري الرواية بنصها[٢]. وهذه الرواية تنصب على القبلة بمعنى «حنية المحراب»، وتأتي رواية الطبراني بذات الدلالة؛ حيث يروي: «وفيه من لم يعرف عن جابر أيضًا، لما قدم رسول الله ﷺ إلى المدينة،

١- الخزاعي: الدلالات السمعية، ص ٧١٩.

٢- العمري: مسالك الأبصار، ج١/ ٩٦.

قال لأصحابه: انطلقوا بنا إلى أهل قباء، ائتوني بأحجار من هذه الحرة، فجمعت عنده أحجار كثيرة، ومعه عنزة له، فخط قبلتهم، فأخذ حجرًا فوضعه رسول الله ﷺ ثم قال: يا أبا بكر، خذ حجرًا فضعه إلى حجري، ثم قال: يا عمر، خذ حجرًا فضعه إلى جنب حجر أبي بكر، ثم التفت إلى الناس فقال: ليضع كل رجل حجره، حيث أحب على هذا الخط»[١]. ويلاحظ أن رواية مسجد قباء هذه مثال آخر لما كان يتبعه رسول الله ﷺ في تخطيط «القبلة»، وتحديد موضعها مع مشاركة من أبي بكر وعثمان، وإن لم يذكر الرواية رمزية هذه المشاركة التي سبقت الإشارة إليها.

ويبدو أن مصطلح «القبلة» بهذه الدلالة ظل هو المصطلح السائد في العصر الأموي، وتدلل على ذلك رواية ابن زبالة عن محمد بن عمار عن جده قال: لما صار عمر بن العزيز إلى جدار القبلة دعا مشيخة من أهل المدينة من قريش والأنصار والعرب والموالي فقال لهم: «تعالوا احضروا بنيان قبلتكم، لا تقولوا غير عمر قبلتنا، فجعل لا ينزع حجرًا إلا وضع مكانه حجرًا»[٢].

ووردت روايات أخرى متعددة تشير إلى إطلاق لفظ «القبلة» على الجدار كله، فقد ورد في الحديث: «حدثنا قتيبة قال: حدثنا إسماعيل بن جعفر عن حميد عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ رأى نخامة في القبلة، فشق ذلك عليه، حتى رؤي في وجهه، فقام فحكه بيده، فقال: «إن أحدكم إذا قام في صلاته فإنه يناجي ربه- أو أن ربه بينه وبين القبلة- فلا يبزقن أحدًا في قبلته، ولكن عن يساره أو تحت قدميه، ثم أخذ بطرف ردائه فبصق فيه، ثم رد بعضه على بعض، فقال: أو يفعل هكذا. وروى البخاري الحديث السابق برواية أخرى؛ حيث قال: حدثنا عبد الله بن يوسف قال: أخبرنا مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ رأى بصاقًا في

١- ابن حجر: فتح الباري، ج١/٢٥١؛ السمهودي، وفاء الوفا، ج١/٢٥١؛ راشد: عمارة المساجد، ص ٨٥٣.

٢- العمري: مسالك، ج١/١٠٠؛ السمهودي: وفاء، ج٢/٥٢٠.

جدار القبلة، فحكه بيده، ثم أقبل على الناس فقال: «إذا كان أحدكم يصلي فلا يبصق قبل وجهه، فإن الله قبل وجهه إذا صلى»[١].

ومتابعة لفظ القبلة الذي تكرر في النص، يكشف عن الدلالات الثلاث للفظ، سواء كان اتجاه القبلة، أو جدار القبلة، أو القبلة بمعنى المحراب في مصطلحنا المعاصر، وهذه الدلالة الأخرى أشارت إليها المعاجم اللغوية؛ حيث قال ابن منظور: «والمحراب القبلة»[٢].

١- ابن حجر: فتح الباري، ج١/ ٦١٧، حديث رقم (٤٠٥).

٢- ابن منظور (محمد بن مكرم): لسان العرب، بيروت، دار صادر، د.ت، مادة (ب ن ي).



الفصل الثاني

عمران المسجد النبوي..
بنية المفاهيم والمصطلحات

مصطلح «الطاق»:

يقول صاحب المصباح: «طوق كل شيء ما استدار به»، ويقول ابن منظور: «طائق كل ما استدار من جبل أو أكمة، والجمع الأطواق». والطوائق جمع طاق، والطاق: ما عطف من الأبنية، والجمع الطاقات، والطاق حيث كان، والجمع أطواق، وطيقان[١]. وورد في المعجم الوسيط: الطاق والطائق ما عطف وجعل كالقوس من الأبنية، والطائق: الطوق وما يشبهه، ومن الجبل وغيره: جزء ناشز يبرز عنه[٢].

والدلالات المعمارية التي ترتبط بهذه المعاني اللغوية، وترتبط بالطاق كعنصر معماري هي تطويق مساحة بناء، كما يمكن أن تكون هذه المساحة –في حالة المحراب في المسجد– خارجة أو ناشزة عنه في ساحة المسجد أمامه، هذا بالإضافة إلى الدلالة السائدة، والتي تعني عقد دخلة أو حنية المحراب بطاقية يتقدمها عقد.

ويؤكد على هذه الدلالات المعمارية ما ورد في المصادر عن الطاق، وقد وردت روايات مهمة عن الموضع الذي قتل فيه علي بن أبي طالب، يمكن أن تستشف منها دلالات معمارية للطاق، فقد ذكر الطبري أن الخوارج تواعدوا على قتل علي ليلة الجمعة التي قتل في صبيحتها علي سنة أربعين، وأخذوا أسيافهم وجلسوا مقابل السدة[٣] التي يخرج منها علي، فلما خرج ضربه شبيب بالسيف، فوقع سيفه بعضادة الباب، أو الطاق، وضربه ابن ملجم في قرنه بالسيف»[٤].

ويذكر الأصفهاني تفصيلاً أكثر لحركة علي من السدة إلى المسجد؛ حيث

١– ابن منظور: لسان العرب، مادة (ط و ق)، ج٤/٧٢٤– ٧٢٥.

٢– المعجم الوسيط، ج٢/٥٩٢.

٣– السدة: تعني الدار.

٤– الطبري: تاريخ الطبري، ج٣/١٥٦.

ينقل عن أبي كنف: حدثني أبي عبد الله محمد الأزدي، قال: «إني لأصلي في ذلك الشهر تلك الليلة في المسجد الأعظم (الجامع الكبير بالكوفة) من الليل إلى آخره، إذ نظرت إلى رجال يصلون قريبًا من السدة قيامًا وقعودًا، وركوعًا وسجودًا، ما يسأمون، إذ خرج علي صلاة الفجر، فأقبل ينادي: الصلاة الصلاة، فيما أدري أنادي أم رأيت بريق السيف؟ وسمعت قائلاً: الحكم لله يا علي لا لك ولا لأصحابك، ثم رأيت بريق سيف آخر ثانيًا، وسمعت عليًا يقول: لا يفوتنكم الرجل». وقال إسماعيل بن راشد في حديثه، ووافقه في معناه حديث أبي عبد الرحمن السلمي أن شبيب بن بجرة ضربه فأخطأه، ووقعت ضربته في الطاق[1]. وضربه ابن ملجم – لعنه الله- فأثبت الضربة في وسط رأسه، ويؤكد ابن كثير على الروايتين السابقتين، فيذكر أن الخوارج جلسوا مقابل السدة التي يخرج منها علي رضي الله عنه، فلما خرج جعل ينهض الناس من القوم، ويقول: الصلاة الصلاة، فثار إليه شبيب بالسيف فضربه فوقع في الطاق، فضربه ابن ملجم بالسيف على قرنه، فسال دمه على لحيته رضي الله عنه»[2].

ونخلص من هذه الروايات إلى أن عليًا خرج من السدة (الدار) إلى المسجد، وعند دخوله من الباب الذي يؤدي إلى الطاق، أو في الطاق، ضربه شبيب، فوقعت ضربته على الباب أو في الطاق، ثم ضربه ابن ملجم الضربة التي أدت إلى قتله في ذات الموضع وهو الطاق. ولم يرد في أي من الروايات الثلاث من أنه وقف ليصلي، ولكنها أشارت إلى أنه كان ينهض الناس ويوقظهم ليستعدوا للصلاة، وقتل في «الطاق».

ويوضح ابن جبير المقصود بالطاق في الروايات الثلاث السابقة، فيذكر واصفًا مسجد الكوفة الكبير بقوله أنه: «... مما يلي الجانب الأيمن

١- الأصفهاني، أبو الفرج (٢٨٤- ٣٥٦هـ): مقاتل الطالبيين، بيروت: مؤسسة الأعلمي، ١٩٨٧م، ص ٤٨.

٢- ابن كثير (الحافظ): البداية والنهاية، دار الفكر العربي، ج٧/٣٥٧.

من القبلة محراب يحلق عليه بأعواد الساج مرتفع عن صحن البلاط – أي الرواق- كأنه مسجد صغير، وهو محراب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفي ذلك الموضع ضربه الشقي اللعين عبد الرحمن بن ملجم بالسيف، فالناس يصلون فيه باكين داعين»[١].

وفي إطار ما سبق يتضح أن قتل علي كان حسب رواية الطبري عند «الباب» أو «الطاق»، أي باب الطاق أو الطاق نفسه، وبقية الروايات تذكر أن قتله كان في الطاق، وفي إطار التصور المنطقي لسياق الأحداث، يتضح أنها ساحة متسعة لا مجرد «حنية المحراب»، وهو أمر يدعو إلى تفسير مصطلح الطاق على أنه المنطقة التي تتقدم المحراب[٢]. سواء كانت مفصولة عن بقية ساحة المسجد بسياج من الخشب (مقصورة خشبية) كما جاء في وصف ابن جبير، أو في هيئة حجرة مبنية باللبن كما جاء في وصف المقصورة التي بناها عثمان بن عفان في مسجد رسول الله ﷺ، أو بالآجر كمقصورة مروان ابن الحكم في ذات المسجد.

وهناك رواية أخرى عن إسماعيل بن أبي خالد أنه قال: كان قيس بن أبي حازم يصلي بنا في الطاق[٣]. ونفهم من هذه الرواية على وجهين أحدهما أن أبي حازم والمأمومين كانوا يصلون في موضع واحد هو الطاق، ويكون المعنى في هذه الحالة أن الطاق مكان متسع لهم جميعًا، وهو المكان الذي يتقدم المحراب ومطوق بسياج في هيئة المقصورة. أما المعنى الآخر فإن أبا حازم الإمام كان وحده يصلي في الطاق، وخلفه

١- ابن جبير: رحلة ابن جبير في مصر وبلاد العرب والعراق والشام وصقلية عصر الحروب الصليبية، تحقيق: حسين نصار، دار مصر للطباعة والنشر، مكتبة مصر، د.ت، ص ١٩٩.

٢- كاظم الجنابي: تخطيط مدينة الكوفة، عن المصادر التاريخية والأثرية، تقديم: أحمد فكري، بغداد، ١٩٦٧م، ص ٣١٧.

٣- عبد الرازق (محمد بن عبد القادر)، أحكام المحراب، دار أصحاب الحديث، المنصورة، ص ٦٠.

المأمومون في ساحة المسجد، ويكون الطاق في هذه الحالة بمعنى حنية المحراب العميقة المفقودة.

وفي ضوء هذا التفسير – إن صح – يمكن تفسير كل ما ورد عن «الطاق»، وما ورد بشأنه من آراء، وبخاصة التي تتعلق بكراهية الصلاة فيه[١]، واعتراض بعض التابعين وتابعيهم عن الصلاة فيه باعتباره بدعة؛ لأنه لم يكن على عهد رسول الله في إطار المدلول الذي يعني أنه مساحة محاطة تتقدم «حنية المحراب»، وليس الحنية ذاتها[٢].

وإذا كان من رأى كراهية في الصلاة في «الطاق» (المقصورة)، فإن هناك من كان يصلي فيه من الصحابة والتابعين، فقد ورد عن نفاعة بن مسلم قال: «رأيت سويد بن غفلة يصلي في المحراب»[٣]، وعن إسماعيل بن خالد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «رأيت عمرو بن ميمون رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرة، وكان يؤم قومه، ورأيت له عودًا في الطاق يتوكأ عليها، إذا نهض[٤]. وعن موسى بن نافع رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: رأيت سعيد بن جبير يصلي في الطاق[٥]. وهذه الروايات تشير إلى أمرين، أولهما يتعلق بالمكان أو المنطقة التي تتقدم دخلة الحراب أو حنيته، وسيجت بسياج خشبي، أو أحيطت بجدران ليصلي بها الخليفة أو الحاكم إمامًا بالمصلين، وبخاصة يوم الجمعة. والأمر الآخر يتصل باستخدام هذا الموضع في الصلاة

١– للاستزادة، راجع: الولي: المساجد في الإسلام، ص ٢٣٤– ٢٣٥.

٢– ورد في هذا الخصوص نصوص كثيرة كانت مرجعية لبعض الباحثين في دراساتهم، التي تعارض وجود «حنية المحراب المجوفة» في عمارة مسجد الرسول ﷺ، وابتداء ظهورها في عمارة الوليد لهذا المسجد، ومن أشهر هذه النصوص رسالة السيوطي «الأديب في بدعة المحاريب».

٣– عبد القادر (محمد): أحكام المحراب، منشورات دار أصحاب الحديث في المنصورة، ٢٠٠٩، ص٥٩؛ راشد: عمارة المساجد، ص ٨٦٦. وسويد بن غفلة أدرك النبي ﷺ، ووفد إليه فوجده قد قبض، فصحب أبا بكر من بعده، وتوفي سنة ٨٢هـ. راشد: عمارة المساجد.

٤– عبد القادر: أحكام المحراب، ص ٦. وعمرو بن ميمون أدرك رسول الله ﷺ، وتوفي سنة ٧٤هـ. راشد: عمارة المساجد، ص ٨٦٦.

٥– عبد القادر: أحكام المحراب، ص ٥٩.

من جانب غيره من المصلين الذين يصلون الصلوات المفروضات في الأماكن الأخرى دون حرج أو تأثر بما ذكر من كراهية الصلاة في هذا المكان؛ لأنه أنشئ بطريقة لم تكن موجودة على عهد النبي ﷺ، وتقصر ساحة من المسجد على جمع بعينه تمثل في الحاكم وحاشيته في أوقات حضوره المسجد وإمامة المصلين.

أما الدلالة الثانية، والتي تبدو واضحة من فحوى الروايات والتعريفات التي ذكرها الفقهاء عن الطاق، والتي تعني حنية المحراب العميقة نسبيًا، والتي تحجب الإمام إذا دخل فيها أثناء إمامته للصلاة، ويكون عمقها ودخوله فيها سببًا في عدم رؤية المأمومين له بوضوح.

وهو أمر تعكسه حنيات المحاريب العميقة التي أنشئت في بعض المساجد، والتي استوجب عمقها أحيانًا بروز هذه الحنية عن سمت جدار القبلة من الخارج؛ لتوفير هذا العمق الذي لا يستوعبه سمك جدار القبلة.

وتتضح هذه الدلالة في ضوء ما وثقته روايات الفقهاء التي تتضمن تعريفًا بالطاق، وتحدد كيفية الصلاة فيه، ومن المهم أن نعرض لها لتوضيح هذه الدلالة.

ذكر الزركشي أن «المراد بطاق المسجد المحراب الذي يقف فيه الإمام»[1]. وقال الشربيني: المحراب الذي هو الطاق المعروف[2].

ومما يصدق على أن لفظ الطاق قد أطلق على حنية المحراب العميقة نسبيًا، والتي تتسع لإقامة الإمام وسجوده بصورة لا تجعله مرئيًا من جميع المصلين؛ لاحتجابه عنهم لدخوله داخل الحنية. وهو ما كان سببًا

١- الزركشي (محمد بن عبد الله): إعلام الساجد بأحكام المساجد، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ، ص ٣٦٤.

٢- عبد الرازق (محمد عبد القادر): أحكام المحراب، ص ٢٤. عن الشربيني: مغني المحتاج، طبعة دار الفكر، ج١/١٤٦.

مباشرًا في الآراء التي ذهبت إلى كراهية الطاق لدى بعض الفقهاء. فقد ذكر الزيلعي «قوله يكره قيام الإمام في الطاق إلا لعذرة ككثرة القوم»، وقال الفقير: «ولا يكره سجوده فيه إذا كان قائمًا، قال في الهداية: ولا بأس أن يقوم الإمام في المسجد وسجوده في الطاق، ويكره أن يكون في الطاق»[١].

ويلاحظ في هذا النص أن صاحبه يفرق ما بين المسجد، وحنية المحراب، وكأنهما وحدتان مستقلتان.

وقال الولوالجي في فتاويه وصاحب التجنيس: إذا ضاق المسجد بمن خلف الإمام على القوم لا بأس بأن يقوم الإمام في الطاق؛ لأنه تعذر الأمر عليه، وإن لم يضق المسجد بمن خلف الإمام، لا ينبغي للإمام أن يقوم في الطاق؛ لأنه يشبه تباين المكانين[٢]. وهو أمر يؤكد المعنى السابق.

وتعددت الأقوال التي تنبني على كراهية الصلاة في طاق المحراب، فقد قال الأذرعي «يكره الدخول في طاق المحراب»[٣]، وقد فسر ابن جبرين البهوتي أيضًا بوضوح سبب الكراهية؛ حيث ذكر أن صلاة الإمام في المحراب مكروهة إذا كان يمنع مشاهدته، ويستره عن المأمومين الذين يقتدون به»[٤]. وهذا لا يحدث إلا إذا كان المحراب أو الطاق عميقًا بالدرجة التي تسبب في عدم مشاهدة الإمام وسترته إذا دخل فيه وأقام الصلاة. كما كان من أسباب هذه الكراهية «أنه محدث في الدين بما روى عن السلف من كونهم كرهوه»[٥].

١- عبد الرازق: أحكام المحراب، ص ٥٥. عن: تبيين الحقائق، المكتب الإسلامي، ج١/١٦٥.

٢- عبد الرازق: أحكام المحراب، ص ٥٥. عن البحر الرائق، باب مكروهات الصلاة

٣- عبد الرازق: أحكام المحراب، ص ٥٦. عن تحفة المحتاج، حاشية الجمل، ج٣/١٨٨.

٤- عبد الرازق: أحكام المحراب، ص ٥٦، ٦٢. وللاستزادة، راجع: آراء الفقهاء في الكراهية في نفس المرجع، ص ص ٤١- ٤٣.

٥- عبد الرازق: أحكام المحراب، ص ٤٣.

مصطلح «المحراب»:

أشارت الدراسات التي عرضت لدلالات لفظ «محراب» إلى أن لهذا اللفظ دلالات عديدة، ومن المهم أن يختص البحث فيها بما يتصل بالدلالات المعمارية، فقد ورد في الشعر العربي القديم بمعنى «الغرفة العالية، والمجلس، والقصر، والحنايا والتجاويف في المعابد أو القصور، حيث توضع التحف الفنية، والمكان الذي يجلس فيه بنو إسرائيل في كنيسهم للبحث في أمور الحرب، ومجلس الناس ومجتمعهم»[١].

وقد وردت كلمة المحراب في القرآن الكريم بنفس بعض الدلالات التي أشار إليها الشعر العربي القديم، وتحديدًا في أربع نقاط تتحد في أن لفظ المحراب يعني صدر البناء، أو أوجه مكان فيه، والغرفة في مقدمة المعبد بالنسبة لأهل الكتاب من يهود أو نصارى، والقصر أو البناء الملكي؛ حيث يقيم الملك، والمكان الذي يخصص للملك دون سائر البناء، والآيات التي تختص بهذه الدلالات هي على الترتيب: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ ﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴾[٥]. كما جاءت كلمة «المحاريب» بصيغة الجمع في قوله تعالى: ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ ﴾[٦]. وقال المفسرون: إنها تعني القصور أو المعابد

١- الولي: المساجد في الإسلام، ص ٢١٤- ٢١٥.

٢- سورة آل عمران، من الآية (٣٧).

٣- سورة آل عمران، من الآية (٣٩).

٤- سورة مريم، من الآية (١١).

٥- سورة ص، الآية (٢١).

٦- سورة سبأ، من الآية (١٣).

أو المساكن العادية أو البيوت دون مستوى القصور الفخمة[١].

وهذه الدلالات المعمارية الواردة في القرآن الكريم وفي الشعر العربي القديم تختلف عن المعنى الاصطلاحي المعاصر للمحراب في العمارة الإسلامية، والذي يتمثل في تلك الحنية المجوفة في وسط جدار القبلة، والتي يقف فيها الإمام يؤم المصلين في المسجد. لكن بعض الدلالات يلاحظ أنها تتشابه مع «المقصورة»، تلك الوحدة المعمارية التي أدخلت في عمارة المسجد غالبًا في عهد الخليفة عثمان لتأمين الخليفة وقت الصلاة بعد حادث مقتل الخليفة عمر. وهذا التشابه بالإضافة إلى بعض ما ورد في المصادر العربية من روايات تتعلق بدلالات المحراب المعمارية منذ العصر العباسي فصاعدًا فيه ما يمثل مدخلاً مهمًا لتتبع دلالات مصطلح «المحراب» في الفترة التي استمرت فيها المقاصير بعمارة المساجد كوحدات معمارية تقتصر مساحة من المسجد أمام المحراب لصلاة الحاكم أو الخليفة. وهو الأمر الذي لقي معارضة من بعض الفقهاء الذين عرضوا لضوابط وأحكام عمارة المساجد.

ومن المشاهدات المهمة لابن جبير في رحلته ما ذكره عن مسجد الكوفة؛ حيث قال: «ومما يلي الجانب الأيمن من القبلة، محراب محلق عليه بأعواد الساج مرتفع عن صحن البلاط (بلاط المحراب) كأنه مسجد صغير، وهو محراب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفي ذلك الموضع ضربه الشقي ابن ملجم بالسيف ...»[٢]. وهذا الوصف يميز فيه ابن جبير بين «القبلة» التي تتمثل في الحنية التي تتوسط جدار القبلة، وبين «المحراب» الذي يتضح من وصفه أنه عبارة عن مقصورة لها سياج من الخشب، وترتفع أرضيتها عن أرضية المسجد، كان يصلي فيها الخليفة.

ويتوافق هذا السياق أيضًا مع ما ذكره ابن بطوطة في رحلته أيضًا عن

١- الولي: المساجد في الإسلام، ص ٢١٦.

٢- ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص ١٩٨.

مسجد الرسول ﷺ في حديثه عن تاريخ عمارته، وبخاصة عمارة الخليفة عثمان؛ حيث يقول: «ثم زاد فيه عثمان رضي الله عنه، وبناه بقوة، وباشره بنفسه، فكان يظل فيه نهاره، وبيضه وأتقن محله بالحجارة المنقوشة، ووسعه من جهاته إلا جهة الشرق منها، وجعل له سواري مثبتة بأعمدة الحديد والرصاص، وسقفه الساج، وصنع له محراب، وقيل إن مروان هو أول من بنى المحراب، وقيل عمر بن عبد العزيز في خلافته ...»[1].

ويكشف رأي ابن بطوطة عن نسبة المحراب إلى من بناه من أن الأمر يتعلق في الغالب بالمقصورة، حيث الأسماء الواردة في هذا السياق وردت فيما يختص بالمقصورة، فقد أورد العسكري روايات فيها ينسبها إلى معاوية، ومنها ما ينسبها إلى مروان بن الحكم، وقال: «بناها بحجارة منقوشة وجعل لها كوي ...». ومنها ما ينسبها إلى الخليفة عثمان بن عفان «الذي اتخذها من اللبن، وكان يصلي فيها مخالفة أن يصيبه ما أصاب عمر»[2].

وإذا كانت عمارة مروان في المسجد – كما تشير الرواية- متمثلة في المقصورة، فإنه لم يثبت أن مروان أعاد بناء المسجد حتى يعيد بناء «المحراب». وإنما بنى المقصورة التي أطلق عليها كما ورد في روايات الرحالة ومشاهداتهم مصطلح «محراب»، في إطار الدلالات اللغوية التي سبق عرضها لمفهوم المحراب، سواء في الشعر العربي القديم أو في القرآن الكريم. حيث إن المقصورة كانت بمثابة الموضع المخصص لصلاة الخليفة، الذي يتقدم المحراب في صدر المسجد.

وتشير ويلان Wehlan إلى هذه الدلالة المعمارية للمحراب إشارة يبدو

١- ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأشعار، تحقيق: علي المنتصر الكتاني، مؤسسة الرسالة، ج١/٨٨.

٢- العسكري (أبو هلال): الأوائل، تحقيق: وليد قصاب، محمد المصري، دار العلوم للطباعة والنشر، ج١/٣٣٥.

فيها الخلط بين الحنية التي تتوسط جدار القبلة، والتي عرفت بالقبلة، وبين المقصورة التي تتقدم المحراب، والتي وردت الإشارة إلى بنائها في عهد عثمان بن عفان في مسجد الرسول، واختلفت الآراء حول أول من بناها غيره كمعاوية ومروان بن الحكم أو عمر بن عبد العزيز، وما سبق عرضه يوضح إلى أي مدى كان خلط ويلان Wehlan بين وظيفة كل من المحراب (القبلة) وبين المقصورة، وحصرت الخلاف بينهما في أن المحراب فضاء مفتوح، أما المقصورة فمساحة محاطة بسياج[١].

وقد ورد في آراء الفقهاء الذين يتبنون كراهية الصلاة في المحراب ما يتوافق ومضمون روايتي ابن جبير وابن بطوطة. فقد قال ابن حزم: «أما المحاريب فمحدثة، وإنما كان رسول الله ﷺ يقف وحده، ويصف الصف الأول خلفه». واستدل ابن حزم على كون المحراب لم يكن في مسجد رسول الله ﷺ بحديث أنس ن مالك، أن المسلمين بينا هم في صلاة الفجر من يوم الاثنين وأبو بكر يصلي بهم، لم يفجأهم إلا رسول الله وقد كشف سجف حجرة عائشة، فنظر إليهم وهم صفوف في الصلاة، ثم تبسم، فنكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف، وظن أن رسول الله ﷺ يريد أن يخرج إلى الصلاة، وهمَّ المصلون أن يفتتنوا في صلاتهم؛ فرحًا برسول الله ﷺ، فأشار إليهم رسول الله ﷺ بيده، أن أتموا صلاتكم، ثم دخل الحجرة، وأرخى الستر[٢].

ومراجعة حكم ابن حزم والذي يعتمد فيه على أن الرسول ﷺ عند إمامته للمصلين «كان يقف وحده»، تعني أن المحراب المكروه من وجهة نظره الذي يجمع الإمام مع غيره من المأمومين في حيز فراغي معين، وكلمة «يقف وحده» تحديدًا تعني ذلك ضمنًا وبوضوح. وأكد على هذا

1- Tradwell (LUKE): "Mihrab and Anaza" or "Sacrum and Pear", A reconsideration of an Early Marwanid Silver Drachm. Muqarnas, 2005, Vol. 22, p. 18.

٢- عبد الرازق: أحكام المحراب، ص ٢٧ عن البخاري، حديث رقم (٧٥٤٠).

المضمون ما ساقه ابن حزم من حديث البخاري الذي يكشف مضمون المقصود في هذا السياق أن أبا بكر عندما كان يتهيأ لإمامة المصلين في صلاة الفجر لمرض الرسول. رأى رسول الله وهو واقف بباب حجرته، وهو ما يعني أنه لم يكن هناك ما يحجب عنه رؤية الرسول ﷺ، وما يمكن أن يحجبه في هذه الحالة هو «المحراب»، بمعنى أن المقصورة التي كان يمكن أن تمنع رؤية أبي بكر حال وجودها، ولما لم يكن هناك ما يحجب فإن هذا يعني ضمنًا عدم وجود «محراب» بهذا المفهوم المعماري.

وهكذا، فإن قول ابن حزم أن الرسول ﷺ كان «يقف وحده»، ثم قوله معتمدًا على الحديث السابق أنه لم يكن هناك ما يحجب رؤية أبي بكر للرسول ﷺ، وهو في باب حجرته الشارع في المسجد، قولان يتجهان إلى أن ابن حزم كان يعني بالمحراب ذلك البناء الذي أنشئ أمام «القبلة» في عهود تالية لعهد رسول الله ﷺ، ويقصر حيزًا من المسجد لصلاة الحاكم وحاشيته وحراسه بعدما حدث من أحداث تسببت في ذلك؛ كقتل عمر بن الخطاب والتي دفعت الخليفة عثمان لبناء مقصورة في مسجد لتأمينه أثناء الصلاة.

ويعرض ابن الجوزي رواية يستند إليها أيضًا في حكمه بكراهيته الصلاة في المحراب؛ حيث يقول: «كان أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يكره المحاريب، أي لم يكن يحب الترفع عن الناس، والمحراب أشرف المجالس، والمحراب الموضع هكذا فسروه، ويحتمل أن يكون كره ما أظهره الناس من عمل المحراب في المسجد كالطاق، وهو الأظهر عندي»[1].

وهذه الرواية في غاية الأهمية؛ حيث إن سياق حديثه يفرق بين الطاق بمعنى حنية المحراب العميقة المعقود في قطاعها العلوي، وبين المحراب

١- عبد الرازق: أحكام المحراب، ص ٤٢؛ عن ابن الجوزي، غريب الحديث، طبعة دار الكتب العلمية، ج١/١٩٩.

بالدلالة التي يقصدها، وهي الدلالة التي تتجه إلى أن المحراب الذي يقصد موضع كره أنس الصلاة فيه لأنه «لم يكن يحب الترفع عن الناس»، أي أن المحراب الذي يقصده أنس هو المقصورة؛ حيث إنها الموضع الوحيد بالمسجد الذي يمكن أن يتفق وهذا المعنى.

وقال زين الدين ابن نجيم الحنفي فيما ذكر عن كراهية الصلاة في المحراب: «أصله أن محمدًا صرح بالكراهية في الجامع الصغير، ولم يفصل ما اختلف المشايخ في سببها، فقيل كونه يصير ممتازًا عنا، لأنه في معنى بيت آخر، ودليل ذلك صنيع أهل الكتاب، واقتصر عليه في الهداية»، واختاره السرخسي، وقال: «إنه الأوجه»[١]. وفي هذه الرواية جاء ما يشير إلى أن الموضع المكروه الصلاة فيه، والذي سمي «محرابًا»، يحقق امتيازًا للإمام عن المأمومين، كما أنه في «مغني اللبيب»[٢]. ثم إن إشارته إلى أن الصلاة في موضع هكذا «صنع أهل الكتاب»، أي أنه يشبه هذا الموضع بمذبح الكنيسة الذي ينفصل عن بقية أروقة الكنيسة في هيئة «البيت»، ويتميز فيه القساوسة عن بقية المصلين. وهو ما يعني بوضوح أن المقصود بالمحراب هو الحيز الفراغي المسيج أمام القبلة المحاط بسياج أو بناء، والذي عرف اصطلاحًا بـ«المقصورة».

وما ذكره ابن نجيم في هذه الرواية يبين إلى حد كبير التصور الذي بنى عليه بعض الفقهاء وغيرهم من المؤرخين؛ كالسيوطي، آراءهم من أن المحاريب مكروهة لأنها تشبه «مذابح الكنائس»[٣]. ويبدو أن هذه الآراء كانت صدى لانتشار فكرة إنشاء المقاصير بالمساجد سواء التي تتقدم القبلة

١- عبد الرازق: أحكام المحراب، ص ٥٤.

٢- البيت حيز فراغي له جدران أربعة وسقف. عثمان: الإعلان بأحكام البنيان، ص ١٤٤- ١٤٦.

٣- علَّ أشهر ما كتب في هذا الموضوع الرسالة التي نسبت إلى السيوطي، والتي جاءت بعنوان «إعلام الأريب بحدوث بدعة المحاريب»، والتي تأسس على هذا التشبيه بين مذبح الكنيسة والمحاريب بالدلالة التي تعني أنه في هيئة المقصورة. راجع الرسالة المذكورة المنشورة في كتاب: أحكام المحراب، تحقيق: محمد عبد القادر بن عبد الرازق، الذي سبقت الإشارة إليه، ص ص ٩٩- ١٢٢. راجع: الولي: المساجد في الإسلام، ص ٢٣٠- ٢٣١.

أو غيرها[1]. وهو ما كان سببًا في إصدار الحكم بكراهية المحراب في إطار التشبه بالنصارى.

وفي ذات السياق من المهم أن نشير إلى أن التشابه الشكلي بين وحدة معمارية سواء في تحديد الموضع أو حتى في بعض العناصر المعمارية لا يعني بالضرورة وجود علاقة معمارية بينهما، وأن يكون أحدهما مقتبسًا من الآخر، لكن الأهم أن يكون هناك علاقة بين الشكل والوظيفة حتى يمكن هذا الربط. وهذا الرأي ساقه سوفاجييه في مناقشته لأصل المحراب في المساجد، وهو رأي صحيح في إطار المنهج، وفي إطار هذه المنهجية انتهى سوفاجييه إلى أن المحراب لم يوضع لتحديد جهة القبلة، بل إنه مكان مخصص لرئيس القوم -الأمير أو الخليفة- وأن القبة التي بنيت فوق المحراب للدلالة على أهمية هذا المكان وعظمته»[2]. ويكشف هذا الرأي عن فهم واضح لسوفاجييه بمصطلح «المحراب»، الذي يعني أنه المقصورة التي تتقدم حنية المحراب.

ومن المهم أن نشير هنا إلى أن كلمة «المحراب» في إطار بعض النصوص المصدرية منذ العصر العباسي وصاعدًا استخدمت كلمة «محراب» بدلالة «القبلة»، أي حنية المحراب، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك في رواية تتصل الخليفة أبي بكر، وهي رواية صاغها مؤلف من العصر العباسي. وكذلك تأتي رواية أبي حنيفة الدينوري (٢٨٢هـ) عن مقتل ابن هبيرة زمن أبي جعفر المنصور؛ حيث يشير إلى أن قاتليه «دخلا عليه وهو جالس في مسجده

١- تعددت المقاصير في بعض المساجد، ولم يقتصر وجودها على تلك المقصورة التي أنشئت في العصور الإسلامية المبكرة، واستمرت بشيوع حتى القرن ٥/ ٦هـ - ١٢/١١م، ثم بدأ انحسارها بعد ذلك بانحسار إمامة الخلفاء والحكام للمصلين في الصلوات الجامعة وإنابة الإمام عنهم. فقد أنشئت في بعض المساجد أكثر من مقصورة لأسباب مختلفة؛ كمسجد الكوفة، لكن الذي يتصل بالبحث هو تلك المقاصير التي تتقدم المحاريب في المساجد، والتي ثار الجدل حولها.

٢- الولي: المساجد في الإسلام، دار العلم للملايين، ص ٢١٩، عن:
Sauvaget (Jean): La mosque Omayade de Medine, Paris.

ﻓﻲ القصر مسند ظهره إلى المحراب ووجه إلى رحبة القصر، فلما نظر إليهم قال لحاجبه: يا أبا عثمان، احلف بالله إن ﻓﻲ وجوه القوم لشرًا، فحضر أبو عثمان مستقبلاً لهم، وقال لهم: ما تريدون؟ فبعجه إبراهيم بن عقيل بالسيف فقتله»[١]. ويلاحظ أن الروايتين تتصلان بحاكمين -خليفة ووالي- وهو أمر يتفق أيضًا ودلالة المحراب التي تعني موضع الحاكم ﻓﻲ «المسجد».

ولما كانت «حنية المحراب» عادةً ما تكون ﻓﻲ جدار القبلة أحد جوانب «المقصورة» التي ﻓﻲ اتجاه القبلة، فإن كلمة «المحراب» بمعنى المقصورة، وكلمة «المحراب» بمعنى «القبلة أو حنية المحراب، يأتي استخدامها ﻓﻲ إطار علاقة الكل بالجزء والجزء بالكل.

ومن الدلالات المعمارية لكلمة «المحراب» تلك الدلالة الشائعة الاستخدام، والتي ظلت حتى وقتنا الحالي سائدة ﻓﻲ التعريف، وهي الحنية المعقودة التي تتوسط جدار القبلة، والتي جرت العادة بإطلاق هذا اللفظ عليها عند ذكرها أو وصفها، وهو ما انعكس بوضوح ﻓﻲ المعاجم اللغوية التي أصبحت تعرف المحراب بالإضافة إلى التعريفات اللغوية التي وردت ﻓﻲ الشعر القديم والقرآن الكريم، كما قال الرافعي بأنه «محراب المصلي،مأخوذ من المحاربة»[٢]. لأن المصلي يحارب الشيطان، ويحارب نفسه بإحضار قلبه. وكما قال الزركشي: «سمي موقف الإمام من المسجد محرابًا؛ لأنه أشرف المجالس ﻓﻲ المسجد، وقيل المحراب موضع مستقبل الصلاة، سمي بذلك لأن المصلي بطاعة الله محارب لأعدائه أو للشيطان»[٣]. وكذلك ما ذكر ابن منظور ﻓﻲ لسانه: «والمحراب القبلة»[٤].

١- الدينوري (أبو حنيفة أحمد بن داود)، سنة ١٣٣٠هـ، ص ٣٥٣، ٣٥٥؛ الولي: المساجد ﻓﻲ الإسلام، ص ٢١٩.

٢- الرافعي (أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي (ت: ٧٧٠هـ): المصباح المنير ﻓﻲ غريب الشرح الكبير، القاهرة، ١٩٢٦م، ص ١٧٥؛ الولي: المساجد، ص ٢١٧.

٣- الزركشي: إعلام الساجد، ص ٣٦٤؛ الولي: المساجد، ص ٢١٧.

٤- ابن منظور: لسان العرب، مادة (ح ر ب)، عبد الرازق: أحكام المحراب، ص ٢٣.

وخلاصة ما سبق عرضه من مدلولات معمارية لألفاظ «القبلة»، و«الطاق»، و«المحراب»، تتلخص فيما يلي:

١- أن الألفاظ الثلاثة أطلقت على الحنية التي تتوسط جدار القبلة، ويقف أمامها الإمام ليؤم المصلين، وهذه الألفاظ استخدمت لهذه الدلالة في إطار زمني بدأ بالقبلة، ثم الطاق، ثم المحراب. وظل لفظا القبلة والمحراب هما اللفظين المستخدمين حتى وقتنا الحالي، وإن كان لفظ المحراب أكثر شيوعًا.

٢- أن لفظ القبلة استخدم في عهد النبي ﷺ بمعانٍ ودلالات مختلفة، والدلالة المعمارية تعني جدار القبلة، وتعني حنية المحراب غير العميقة التي أنشأها الرسول ﷺ بالحجر تمييزًا لها عن بقية بناء جدار القبلة المبني باللبن كسائر جدران المسجد.

٣- أن لفظ الطاق ولفظ المحراب كان من دلالاتهما المعمارية ذلك البناء الذي أنشئ متقدمًا لحنية المحراب في جدار القبلة، يحيط بمساحة يقصر الصلاة فيها على الحاكم حال إمامته للصلاة في صلاة الجمعة أو غيرها حال تواجده بالمسجد. واستعمال اللفظ في هذه الدلالة كان مع بداية القرن الثاني الهجري فصاعدًا، ولكنه أخذ في الانحسار منذ القرن ٦هـ/ ٧هـ، وتعاصر ذلك مع إنابة الحكام للأئمة في إمامة الصلاة. وظل متواترًا في الاستعمال في بعض الحالات، وربما ارتبط هذا التواتر بإنشاء مقاصير في المساجد غير تلك التي أنشئت للحكام لسبب أو لآخر في بعض المساجد، أو المبالغة في تعميق حنية المحراب حتى صارت تحجب الإمام عن المصلين وتستتر به. ونظرًا لأن هذا العنصر المعماري حدث بعد عهد الرسول ﷺ لأسباب تأمينية متصلة بالحكام، ثم صارت تقليدًا معماريًا في بعض المساجد، صدرت الأحكام الفقهية من جانب فريق من الفقهاء، وكرهوا الصلاة فيه. ولم يعد لهذه الدلالة وجود لاختفاء هذا العنصر في عمارة المساجد المعاصرة التي لم تعد تهتم

بإنشاء مقاصير أو محاريب عميقة بالصورة التي تحجب المأمومين عن الإمام، وبالتالي انحسر استخدام اللفظ بهذه الدلالة، ولم يعد باقيًا إلا في بطون المصادر التراثية التي عاصرت وجود هذه العناصر واستخدام المصطلحات الدالة عليها.

وفي ضوء ما سبق يمكن تفنيد آراء المؤرخين والفقهاء الذين أشاروا إلى أن «المحراب» لم يعرف في عهد الرسول ﷺ، فقد عرفت الحنية أو الدخلة التي تتوسط جدار المحراب بعمق قليل لا يحجب الإمام أثناء الصلاة، وأن المحراب بهذه الهيئة عرف كما أوضح البحث في عهد الرسول ﷺ، وتتابع إنشاؤه في المساجد بعد ذلك، وظل بهذه الهيئة في عمارة المساجد حتى عصرنا الحالي. أما المحاريب التي في هيئة بناء يتقدم المحراب في هيئة تشبه المقصورة أو في هيئة حنية عميقة تحجب الإمام أثناء صلاته إذا دخل فيها، فهذا الذي لم يكن موجودًا في مسجد رسول اللّه ﷺ في عهده، سواء في المرحلة الأولى من عمارة المسجد سنة ١هـ، أو في المرحلة الثانية سنة ٧هـ. وصار هذا المحراب النموذج الذي تكرر في توسعة خلفاء الرسول في عمارتهم بمسجده، فتشير المصادر إلى أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندما أعاد بناء المسجد سنة ١٧هـ عندما احتيج إلى توسعة بنى له «قبلة» (محرابًا)، ومن المنطقي أن يكون هذا البناء بنفس هيئة «قبلة» الرسول ﷺ الذي احتفظ به حتى التوسعة الأموية. ويصدق على ذلك ما ذكره الحطاب الذي قال: «ولما زاد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في المسجد من ناحية القبلة، ونقل محل الإمام إلى تلك الزيادة، وكان فيها محراب، واستشهد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في ذلك المحراب، ثم زاد بعده عثمان من ناحية القبلة أيضًا، وأيضًا انتقل محل الإمام إلى المحراب الذي في القبلة الآن وهو محراب عثمان، وكان في أيام مالك يصلي الإمام في محراب عثمان، فلما قل الناس رجعوا إلى محراب النبي ﷺ الذي بين القبر والمنبر»[1].

١- عبد الرازق: أحكام المحراب، ص ٣٥ عن مواهب الجليل، ج٩/٤٣٢، مسألة حكم ما زيد في مسجد النبي.

وظل محراب النبي في موضعه – كما سبقت الإشارة – حتى نقله عمر بن عبد العزيز إلى جدار القبلة عند توسعته للمسجد في العصر الأموي في عهد الوليد بن عبد الملك.

وإذا كانت بعض الدراسات الحديثة قد تنبهت إلى أن مسجد رسول الله ﷺ عند إنشائه سنة ١هـ كان له محراب مجوف، مبني بالحجر، وله عضادتان تدلان على أنه كان مجوفًا[١]. وهو ما ثبت بالدراسة التفصيلية السابقة. فإن ما أشارت إليه الدراسات الآثارية والتنقيبات الأثرية للمساجد في القرن الأول من وجود نماذج من المحاريب المجوفة يصدق على هذه الدراسة، ويؤكد أن هذه المساجد اتبعت النموذج الأول الذي كان أساسًا للمساجد، وهو مسجد رسول الله ﷺ الذي وضع الرسول في عهده أسس تخطيطه بعناصره وملامحه. ومن هذه النماذج التي عرضت لها هذه الدراسات محراب عمر بالمسجد الأقصى، ومحراب علي بن أبي طالب في مسجد الكوفة، ومحراب معاوية بالجامع الأموي في دمشق، ومحراب الصحابة بنفس الجامع، ومحراب جامع القيروان، وغيرها من المحاريب في المساجد التي كشفت عنها التنقيبات في المساجد المبكرة التي ترجع إلى القرن الأول الهجري في العراق.

وإذا كانت هذه المحاريب يثار حول تاريخ بعضها جدل، فإن محراب قبة الصخرة الذي أنشى في المدة من سنة ٦٦ – ٧٢هـ تاريخ إنشائه هذا ثابت ومؤكد. (شكل رقم ١، وشكل ٤).

كذلك عثر على طراز من الدراهم يسمى بـ «طراز العنزة والمحراب» صور على ظهره عنزة رسول الله ﷺ داخل «محراب»، أرخه بعض الباحثين بسنة

١- للاستزادة، راجع: الولي: المساجد، ص ص ٢٢٦- ٢٢٧؛ شافعي (فريد): العمارة العربية في مصر الإسلامية في عصر الولاة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧٠م، ص ص ٥٨٧- ٦٢٣؛ أحمد فكري (أحمد): مسجد القيروان، دار العالم العربي، ٢٠٠٩م، ص ص ٢٢- ٢٦.

٧٥هـ، ونسبوه إلى الخليفة عبد الملك بن مروان. واتضح من دراسة أخرى أنه يمكن نسبته إلى عبد الله بن الزبير أثناء خلافته في المدة من سنة ٦٥ إلى ٧٣هـ، أي أنه معاصر لمحراب قبة الصخرة إن لم يسبقه. (شكل رقم ٢، شكل رقم ٥).

واستمر هذا الشكل للمحاريب المجوفة مستمرًا في عمارة المساجد حتى العصر الحديث، وهو استمرار وشيوع كان غالبًا في إطار التمسك بالتأسي بعمارة الرسول ﷺ في مسجده.



الفصل الثالث

تخطيط المسجد النبوي
منذ السنة الهجرية الأولى

تخطيط المسجد في سنة ١هـ :

بعد أن وضع الرسول ﷺ «القبلة»، بدأ بناء المسجد في إطار تخطيط معين، وهذا التخطيط يشتمل تحديد مواضع الجدران الخارجية للمسجد، وما بها من أبواب، ثم تخطيط المسجد من الداخل سواء المنطقة التي تم تغطيتها لإقامة الصلاة أو رحبة (صحن) المسجد أو الصفة التي بناها الرسول ﷺ لإيواء فقراء المسلمين.

وقد سبقت الإشارة إلى تحديد مواضع الجدران الخارجية للمسجد وقياسات زواياه وهيئه كما سبقت الإشارة إلى تخطيط القبلة في هيئة دخلة مبنية بالحجر لها عضادتان، وبقيت الإشارة إلى أن الجدران الثلاثة الأخرى للمسجد اشتمل كل منها على فتحة باب، فتحة باب تتوسط الجدار الجنوبي، وباب بالثلث الجنوبي من الجدار الشرقي، وباب ثالث قرب نهاية الطرف الجنوبي من الجدار الغربي[١].

ويستند هذا التحديد للأبواب على ما ورد من روايات تاريخية، فقد ذكر ابن النجار أن الرسول ﷺ جعل لمسجده «ثلاثة أبواب، بابًا في مؤخره، وباب عاتكة، وهو باب الرحمة، والباب الذي كان يدخل منه النبي ﷺ، وهو باب عثمان، ولما صرفت القبلة إلى الكعبة سد النبي الباب الذي كان خلفه، وفتح الباب الآخر بحذائه، وكان المسجد له ثلاثة أبواب خلفية، وباب عن يمين المصلى، وباب عن يساره»[٢].

وهو في جهة القبلة اليوم، وباب عاتكة، الذي يدعى بباب عاتكة، لمقابلته لدارها، ويقال له باب الرحمة، والباب الذي يدخل منه رسول الله ﷺ، وهو باب عثمان، وقد أشارت إلى موضعه الروايات التي تتحدث عن بيوت زوجات النبي، كما سنوضح، وهذان البابان لم يغيرا بعد أن صرفت القبلة.

١- مصطفى: المدينة المنورة، ص ٥٦، شكل رقم (٤٦)؛ السمهودي: وفاء الوفا، ج١/٣٣٦.

٢- ابن النجار، أخبار مدينة رسول الله، ص ٦٩.

ولما صرفت القبلة، سد النبي ﷺ الباب الذي خلفه، وفتح هذا الباب، وحذاء هذا الباب – أي محاذيه- هذا الباب الذي سد[١]. وعبر ابن النجار عن ذلك بقوله: «ولما حرفت القبلة سد الباب الذي كان خلفه، وفتح باب حذاءه، قال المجد أي تجاهه»[٢].

وقد وردت تسمية للأبواب في المصادر في إطار ما يتعلق بما جاورها كباب عاتكة الذي سمي باسمها لمواجهة بيتها، وعرف أيضًا بباب الرحمة، وهذه التسمية ترجع لما جاء في صحيح البخاري أن رجلاً دخل المسجد طالبًا من الرسول ﷺ بالدعاء لإرسال المطر، فأمطرت السماء سبعة أيام، ثم دخل في الجمعة الثانية طالبًا برفع المطر خشية الغرق، فانقسمت السحب، واعتبر هذا رحمة بالعباد، فأطلق على الباب الذي دخل منه الرجل باب الرحمة، وكذلك سمي باب عثمان بهذا الاسم لأنه كان في مقابل بيته، ثم عرف بباب جبريل؛ لأن الرسول ﷺ التقى جبريل في هذا المكان في غزوة بني قريظة[٣].

ولم ترد قياسات مباشرة لاتساع فتحة الباب، ولكن وردت رواية تشير إلى أحد ضيوف النبي ﷺ دخل إلى المسجد راكبًا جملاً، وإن صحت هذه الرواية فإنها تشير إلى أن اتساع الباب كان يسمح بمرور الجمل[٤].

وبعد أن بنى الرسول ﷺ بيت عائشة رضي الله عنها فتح له بابًا شارعًا[٥] في

١- السمهودي، وفاء الوفا، ج١/٣٣٦.

٢- السمهودي: وفاء الوفا، ج١/٣٣٦، وذكر رواية أخرى للأقشهري تتوافق وهذه الرواية فيما عدا تسمية الباب الذي فتحه الرسول في الجدار الشمالي بعد تحويل القبلة، ج١/ ٣٣٧.

٣- السمهودي: وفاء الوفا، ج١/ ٣٣٧؛ مصطفى: المدينة المنورة، ص ٢٦.

٤- مصطفى: المدينة المنورة، ص ٥٤. ففي صحيح البخاري في معرض حديثه عن موضوع حظيرة الجمال قال: «فبينما نحن جلوس مع النبي ﷺ دخل رجل على جمل، وكان من الكفار وأسلم بعد مقابلة النبي ﷺ، فأناخه في المسجد ثم عقله».

٥- السمهودي: وفاء، ج١/ ٤٦٦.

المسجد، وكذلك كان لبعض دور الصحابة التي كانت مجاورة للمسجد، فتحت لها أبواب شارعة في المسجد. وهي الأبواب التي أمر الرسول ﷺ بسدها فيما عدا باب أبي بكر؛ فقد روى البخاري في الصحيح من حديث أبي سعيد الخدري قال: خطب النبي ﷺ فقال: إن الله خير عبدًا بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عنده .. لا يبقين في المسجد بابًا إلا سد إلا باب أبي بكر، قال أهل السير: كان بابه غربي المسجد. وروى ابن عباس أن النبي ﷺ أمر بالأبواب كلها فسدت إلا باب علي رضي الله عنه[1]. وقد كانت دار أبي بكر تقع في الجهة الجنوبية الغربية من المسجد، ووقعت على مخطط مسجد رسول الله ﷺ الذي ورد في الرحلة الحجازية للبتانوني بخوخة أبي بكر[2].

أما رواق الصلاة، فتتضمن الروايات إشارات مهمة إلى هيئة تخطيطه، فقد أسند ابن زبالة عن عبيد بن عمر بن حفص بن عاصم أن مسجد رسول الله ﷺ كان ثلاثة أساطين مما يلي المشرق، وثلاث أساطين مما يلي المغرب، سوى فخرج من الرحبة أي الأساطين المصفوفة من الرحبة إلى القبلة، ولولا ما سيأتي من التصريح بأن هذه السقائف كان ثلاثة منها على يمين المنبر، وثلاثة عن يساره يعني في البناء الأول ...»[3].

ويعني ذلك الوصف أن ظلة القبلة كانت تتكون من ثلاث بلاطات (أروقة) بواسطة ثلاثة صفوف من الأعمدة، بكل صف ستة أعمدة[4]. ومن الناحية المعمارية الإنشائية فإن هذا التخطيط بهذا العدد من الأعمدة يتوافق ونوعية خشب النخيل الذي استخدم في أعمدة وسقف هذه الظلة في إطار حساب سمك كل من الجدارين الشرقي والغربي الذي يبلغ في كل جدار ٥, ٦٩ سم،

١- ابن النجار: أخبار مدينة رسول الله، ص ٨٣.

٢- البتانوني: الرحلة الحجازية، مكتبة المعارف، الطائف، الرسم مقابل ص ٢٤٤، شكل رقم (١).

٣- السمهودي: وفاء الوفا، ج١/٣٤٩. وردت رواية أخرى تشير إلى وصف التخطيط وعدد الأسطوانات. رويت أيضًا عن ابن زبالة مع اختلاف بسيط في الرواية. السمهودي: وفاء الوفا، ج١/٣٥١.

٤- مصطفى: المدينة المنورة، ص ٥٦، شكل رقم

وقطر جذع النخلة المستخدم في حمل السقف والذي يبلغ قطره في المتوسط (٥٠ سم × ٦ جذع). وهو ما يعني أن باقي طول الحيز الفراغ للمسجد من الداخل من الشرق إلى الغرب ٣٣,٢٤ متر، تشغل منها الأعمدة ٣ متر، فيتبقى ٢١,٣٣ مقسمة على سبع مسافات بين الأعمدة، والأعمدة طرفي كل صف والجدارين الشرقي والغربي، وهو ما يعني أن طول الجوائز التي وضعت فوق الأعمدة موازية لجدار القبلة يبلغ طول كل منها ٣,٠٥ متر تقريبًا + ٥٠سم تمثل طول الطرفين اللذين يستقران على الجذعين، فيكون الطول الكلي للعارض ٣,٥٧ مترًا، وهو طول يناسب الإنشاء بخشب النخيل بعد شقه في هيئة عوارض تحمل الجريد والثمامات الذي يمثل الطبقة التي تعلوها. ويتوافق هذا التصور تمامًا مع ما ذكره ابن النجار من أنه لمّا اشتد الحر على المسلمين فقالوا: يا رسول الله، لو أمرت فظلل، قال: نعم، فأمر له سواري من جذوع النخل شقة ثم شقة، ثم طرح عليها العوارض والخصف والإذخر»[١].

وهذا الوصف له أهمية خاصة؛ حيث يحدد بوضوح أن سواري المسجد من «جذوع النخل» وضعت بتخطيط معين، وردت الإشارة إليه بمصطلح «شقة ثم شقة»[٢]. أي في هيئة صف يليه صف آخر، وينتج عن هذه الصفوف «شقة ثم شقة»، وهي المسافة الخالية من الأعمدة بين الصفوف. والتي تسمى بالمصطلح المعاصر «بلاطات»، وبالمصطلح الذي يرد أحيانًا في المصادر «رواق»[٣].

١- ابن النجار: أخبار مدينة رسول الله، ص ٧٠. الأذخر نبات عطري له سيقان طويلة كانت تستخدم في عمل السقف فوق الخشب، وفي حديث الفتح قال العباس: «إلا الأذخر فإنه بيوتنا وقبورنا» ابن منظور: لسان العرب، ج٣/١٤٩ مادة (ذ خ ر). السمهودي: وفاء الوفا، ج١/٢٣٤.

٢- ورد لفظ شقة في وصف السخاوي للطرقات التي تتراص المقابر على جانبيها. للاستزادة راجع: السخاوي (علي بن أحمد): تحفة الأحباب وبغية الطلاب في الخطط والمزارات، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٩٨٦م.

٣- مصطلح رواق في الوقت الحالي هو الظلة بالمسجد، سواء كانت من بلاطة واحدة أو من عدة بلاطات، كما يستخدم بدلالات أخرى في العمارة المدنية.

وبعد وضع الأعمدة في مواضعها بهذه الهيئة التي تشكل أروقة أو بلاطات بينها، وقد تم حصر عدد الجذوع في كل صف من الشرق إلى الغرب، أو من الشمال إلى الجنوب في إطار الحساب المعماري الإنشائي الذي سبقت الإشارة إليه، وفي إطار ما ورد من ذكر للأسطوانات في مسجد الرسول ومسمياتها ومواضعها المحددة.

وتشير الرواية إلى أن الأعمدة طرح عليها العوارض والخصف والإذخر، وهي تمثل العوارض الرئيسة التي ثبتت فوق الأعمدة، ثم ما يوضع عليها من عوارض تحمل سقف المربعات بين الأعمدة.

وهذه الرواية لها أهميتها من حيث إنها تشير إلى أن إنشاء السقف وبالتالي تخطيط ظلة القبلة: إنما كان بعد إنشاء جدران المسجد، ولم يكن معاصرًا لإنشاء هذه الجدران، وهو ما يمكن معه عدم قبول رأي السمهودي فيما يخص تفسير النص «وصفوا النخل قبلة» بأنه يمثل وضع أعمدة ظلة القبلة في صفوف باعتبار أن هذه الظلة كانت في اتجاه القبلة (؟!).

الصُّفَّة:

أنشأ الرسول ﷺ موضعًا مسقوفًا في الجهة الجنوبية للمسجد عرف بالصفة[١]، والصُّفة بضم الصاد وفتح الفاء المشددة في إطار ما ورد من دلالات في المعاجم اللغوية والوثائق والمصادر المختلفة، وحدة معمارية ذات ثلاثة حوائط، وتوصف بأنها – بيت صيفي أي إنها مفتوحة من الجانب الرابع وليست مغلقة بباب كالبيت. ويضيف الوصف الوثائقي ملمحًا معماريًا آخر عن الصفة وهو ارتفاع أرضيتها عن أرض الرحبة التي تفتح

١- السمهودي: وفاء، ج١/٤٥٣.

عليه ارتفاعًا محدودًا يميز أرضيتها عن أرضية الرحبة التي أمامها [١].

وقد وردت بعض الروايات التي نستشف منها أن هذه الصفة قد أنشئت في المرحلة الأولى لعمارة المسجد سنة ١هـ، فقد قال الحافظ الذهبي: إن القبلة كانت في شمال المسجد، فلما حولت القبلة، بقي حائط القبلة الأعلى مكان أهل الصفة»[٢]. ومن ثم يتضح عدم صحة ما ذكر من أن الصفة أحدثت بعد تحويل القبلة سنة ٢هـ[٣].

وفي ضوء ما سبق، فإن الصفة كانت عبارة عن حيز فراغي محمول سقفها على ثلاثة جدران: الجدار الجنوبي للمسجد، والجدار الغربي، وجدار ثالث في الجهة الشرقية، ومن الجهة الشمالية على ساريتين تطلان على رحبة المسجد؛ حيث أشارت الروايات التي ذكرها السمهودي في حديثه عن الصفة: «أن معاذ بن جبل كان يجعل حبلاً بين الساريتين، ثم يعلق الأقناء على الحبل، ويجمع العشرين وأكثر فيهش عليهم بعصا من الأقناء فيأكلون حتى يشبعون». ويمكن أن نستند على هذه الرواية في تحديد ساريتين للصفة

١- للاستزادة، راجع: ابن سيدة (علي بن إسماعيل، ت: ٤٥٨ هـ): المخصص، المجلد الأول، دار الفكر، ص ١٣٠؛ المطرزي (أبو الفتح ناصر الدين، ت: ٦١٠ هـ): المغرب في ترتيب المعرب، تحقيق: محمود فاخوري، عبد الحميد مختار،مكتبة أسامة بن زيد، ١٩٧٩م، ص ٤٧٦؛ ابن منظور: لسان العرب، مجلد ٨، ص ٢٥٣؛ الخوري (سعيد): معجم أقرب الموارد في فصيح العربية والشوارد، طبعة لبنان، ١٩٩٢م، ص ٧٤٥؛ أمين محمد، إبراهيم دليلي: معجم المصطلحات المعمارية في الوثائق المملوكية، الجامعة الأمريكية، القاهرة، ١٩٩٠م، ص ٧٣؛ شرف (وفاء) د.، المصطلحات المعمارية بوثائق الوقف المملوكية ٦٤٨- ٩٢٣ هـ/ ١٢٥٠- ١٥١٧م، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة سوهاج، ص ص ٢٦٥- ٢٦٨؛ وثيقة وقف السناري، أرشيف وزارة الأوقاف رقم ٦٣٦ لسنة ١٢٠ هـ؛ عثمان (محمد عبد الستار) د.، عمارة سدوس التقليدية دراسة آثارية معمارية، دار الوفاء لدنيا النشر والطباعة، ١٩٩٩م، ص ١٩٦.

٢- يبدو أن السمهودي عندما نقل النص صحف كلمة قبلي إلى كلمة شمالي، ويدل على ذلك بقية النص.

٣- عبد الغني (محمد إلياس): بيوت الصحابة حول المسجد النبوي الشريف، دراسة عن الحجرات الشريفة والصفة وبيوت بعض الصحابة رضي الله عنهم وسقيفة بني ساعدة والبقيع، مركز طيبة للطباعة، المدينة المنورة، ١٩٩٨م، ص ٤٩.

بالإضافة إلى الجدران الثلاثة الجنوبي والشرقي والغربي التي تحدها[١].

ومصطلح الصفة في الجزيرة العربية وتحديدًا في منطقة وادي حنيفة «يستخدم في وصف الحجرات التي بالدور الأرضي من الدار، وهي غالبًا بدون نوافذ، وأحيانًا تتصل اثنتان من هذه الصفف ببعض عن طريق فتحة باب، تربط بينهما بحيث يكون الدخول إلى إحداهما من الأخرى، وتستخدم بعض هذه الصفف في تخزين المواد الغذائية، ومناسبة ذلك مع حرارة المناخ سيما في فصل الصيف؛ حيث تكون حجرات الدور الأرضي أقل حرارة؛ مما يساعد على حفظ المواد الغذائية، كما تستخدم صفف أخرى لتخزين علف الحيوان، كما أن هناك صفة البقرة وبيت الحطب» [٢].

رحبة المسجد[٣]:

وبإنشاء ظلة القبلة وصفة أهل الصفة التي وضعت في القطاع الجنوبي من المسجد موازية للقطاع الغربي من الجدار الجنوبي في هيئة رواق واحد[٤]. تحدد الحيز الفراغي الثالث في المسجد وهو «رحبة المسجد»، وقد أشار ابن النجار إلى أن الرسول ﷺ «جعل وسطه رحبة»[٥]. وهذه الرحبة في مسجد رسول الله ﷺ يطلق عليها في المصطلح المعاصر «صحن المسجد» أو «فناء المسجد».

وهكذا اكتمل تخطيط المسجد من الداخل في مرحلة بنائه الأولى؛ حيث أصبح تخطيطه في صورته النهائية عبارة عن ظلة القبلة التي تشتمل على

١- السمهودي: وفاء، ج١/٤٥٧، شكل رقم (٣).

٢- عثمان (محمد عبد الستار) د.، عمارة سدوس التقليدية، ص ١٩٦.

٣- رحبة المسجد تعني بالمصطلح الحديث صحن المسجد.

٤- مصطفى: المدينة المنورة، ص ٥٦، شكل (٢)، لم يرد فيما وقع بين يدي من مصادر بيانات ومعلومات على الهيئة المعمارية للصفة وتفاصيلها المعمارية لعدد أعمدتها أو حتى أروقتها. اللهم إلا رواية السمهودي التي تشير إلى الساريتين اللتين تعلق عليهما أقناء التمر.

٥- ابن النجار: أخبار مدينة رسول الله، ص ٧٠؛ السمهودي: وفاء الوفا، ج١/٢٣٤.

ثلاث بلاطات (أروقة) بواسطة ثلاثة صفوف من الأعمدة، بكل صف ستة أعمدة، بالإضافة إلى رحبة تفصل بين الظلة والصفة التي تشغل الجانب الجنوبي الشرقي من المسجد في هيئة رواق يحمل سقفه أعمدة من جذوع النخل، ولا يمكن تحديد عددها بدقة، وجانب من الجدار الجنوبي بطول هذا الرواق.

مواد بناء المسجد:

من المهم أن نشير إلى المواد التي استخدمت في بناء مسجد الرسول ﷺ، وقد تنوعت هذه المواد بين الجير، والطوب اللبن، وجذوع النخل، وجريده[١] والأذخر.

وقد بني أساس جدران المسجد بالحجر لمتانته من جهة، ولمقاومته لخطر مياه الأمطار حال سقوطها. وتشير الروايات إلى أن أساس المسجد بني بالحجر، فقد أسند يحيى بن زيد عن أبيه قال: «خرج رسول الله ﷺ ومعه حجر، فلقيه أسيد بن حضير .. فقال يا رسول الله، أعطنيه، فقال: اذهب فاحتمل غيره، فلست بأفقر إليه مني. ثم قال- يعني زيدًا- ورفعوا الأساس قريبًا من ثلاثة أذرع على الأرض حجارة»[٢].

وذكر الخزرجي نقلاً عن ابن جماعة رواية ورد فيها ما يشابه الرواية السابقة، فقد وردت في هذه الرواية «أن رسول الله ﷺ أمر ببناء المسجد باللبن، وجعلت عضادتاه بالحجارة، وسواريه جذوع النخل، وسقفه بالجريد، وجعل الأساس قريبًا من ثلاثة أذرع على الأرض بالحجارة، ثم بنوه باللبن»[٣].

١- هناك بعض الروايات تشير إلى بناء المسجد في هيئة عريش في البداية. السمهودي: وفاء الوفا، ج١/٣٢٧. كما أن هناك روايات تشير إلى أن هذا البناء ظل حتى سنة ٤هـ حتى جدد في البناء. السمهودي: وفاء الوفا، ج١/٣٢٧، ولكنها روايات ضعيفة.

٢- السمهودي: وفاء الوفا، ج١/٣٣٦.

٣- الخزاعي: الدلالات السمعية، ص ٧١٩.

ولم تشر الروايات إلى نوعية أو هيئة الحجر الذي استخدم في بناء الأساس، لكن وردت الإشارة إلى أن قبلة المسجد بنيت بالحجر المنضود[١]. وهو ما يعني اتساق الأحجار في البناء، مما يعني أن الحجر كان في الغالب مرومًا ترويمًا يتفق وفحوى كلمة منضود. وقد يكون في تحديد وصف الحجر الذي بنيت به القبلة وما يمتاز به من كونه منضدًا، أن أحجار الأساس يمكن أن تكون غير مرومة. ويرجح ذلك أن عملية البناء بدأت مباشرة ببناء الأساس، واستخدم في البناء ما توفر من أحجار في الموقع، نقلها الرسول ﷺ وصحابته لبدء البناء ببناء الأساس بعد أن وضع أساس القبلة بالحجر المنضود[٢].

وقد استغرق بناء الأساس بالحجر بعض الوقت، وأثناء هذا الوقت كان يتم إعداد الطوب اللبن الذي بنيت به جدران المسجد.

وتشير بعض الدراسات إلى أن جدار القبلة كان في المرحلة الأولى من البناء من جذوع النخل في إطار ما ورد من روايات سبقت الإشارة إليها، وهي التي تشير إلى أنه بعد تمهيد الأرض «صفوا النخلة قبلة للمسجد، وجعلوا عضادتيه من حجارة»[٣]. ويمكن قبول هذا التفسير لأهمية وجود سترة أمام المصلين قبل اكتمال بناء جدران المسجد، لكنه يمكن أن يكون أمرًا مؤقتًا؛ حيث أشارت الروايات إلى أن بناء جدار القبلة كان من اللبن وقبلته من الحجارة، وهو ما يعني أن صف النخل كسترة للمصلين في اتجاه القبلة كان حلاً مؤقتًا، وحل محل النخل الذي صفوه كسترة بناء جدار القبلة

١- الخزاعي: الدلالات السمعية، ص ٧١٩.

٢- يذكر أحد الباحثين أن عضادات أبواب المسجد كانت من الحجر، وهو قول لا توجد من الروايات ما يعضده. ويبدو أن قوله هذا يعتمد على الوصف الذي جاء في الروايات مختصًا بقبلة المسجد – كما سبقت الإشارة- لكن الروايات ذكرت النص «عضادتاه من الحجر»، ويعني عضادتي المسجد، أي قبلة المسجد كما وضح في سياق روايات أخرى، ولم يذكر الكلمة جمعًا، ولم تربطها بالأبواب. مصطفى: المدينة المنورة، ص ٥٧.

٣- الخزاعي: الدلالات السمعية، ص ٣٥١؛ السمهودي: وفاء الوفا، ج١/ ٧١٩.

باللبن، والذي كان يتوسطه القبلة التي كان بناؤها بالحجر، وهذا التفسير يتوافق تمامًا والوصف الذي ورد بعد «صفوا النخل قبلة»، والذي ورد نصه: «وجعلوا عضادتيه من حجارة».

وتشير الروايات إلى مصدر الطين الذي استخدم في ضرب الطوب اللبن الذي بني به المسجد، فقد أسند ابن زبالة ويحيى من طريقه في أثناء الكلام عن ابن شهاب في قصة أخذ المربد، قال: فبناه (المسجد)، وضرب لبنه من بقيع الخبخبة[١] ناحية بئر أبي أيوب بالمناصع[٢]. وأسند يحيى عن طريق عبد العزيز بن عمر عن يزيد بن السائب عن خارجة بن زيد بن ثابت قال: بنى رسول الله ﷺ مسجده سبعين في ستين أو يزيد، ولبن لبنه من بقيع الخبخبة، وجعله جدارًا»[٣].

وتشير الروايات إلى أن الرسول ﷺ كان يشرف بنفسه على إعداد الطوب اللبن للبناء، وأنه أشاد بخبرة طلق الحنفي بإجادته في عمل الطين الذي يضرب منه الطوب اللبن، وبعد إعداد اللبن للبناء كان يتم حمله إلى موضع بناء المسجد، وشارك الرسول ﷺ في حمل اللبن[٤]. وباشر عملية البناء باللبن فوق الأساسات الحجرية. وكان عدد المشاركين في البناء محدودًا في بداية عملية الإنشاء في مرحلة الأساس، أو فيما تلاها من مراحل بالطوب اللبن في القطاعات السفلى من الجدران[٥]. فقد أسند ابن زبالة عن حسن بن محمد الثقفي قال: بينا رسول الله ﷺ يبني في

١- الخبخبة: شجرة كانت هناك. السمهودي: وفاء الوفا، ج١/٤٣٤. ويشير السمهودي إلى موضع هذا البقيع إشارة تفيد أنه كان قريبًا من موضع بناء المسجد.

٢- موضع قريب من الجهة الجنوبية الشرقية من المسجد. عبد الغني: بيوت الصحابة، ص ٨٨.

٣- السمهودي: وفاء الوفاء، ج١/٢٣٤؛ ابن النجار: أخبار مدينة رسول الله، ص ٦٩؛ العمري: مسالك، ج١/٨٦.

٤- ابن النجار: أخبار مدينة رسول الله، ص ٨٦؛ ابن كثير: البداية، ج٢/٢١٥، ٢١٦.

٥- السمهودي: وفاء الوفا، ج١/٣٣٢.

أساس المسجد ومعه أبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، ثم مر رجل فقال: يا رسول الله، ما معك إلا هؤلاء الرهط؟ فقال رسول الله ﷺ: هؤلاء ولاة الأمر من بعدي[1].

وقد كان للعدد المشارك في البناء في البداية أثره في طريقة البناء، ومع زيادة العدد تغيرت الطرق التي استخدمت لتوفير عدد كبير من المشاركين، يسمح باتباع هذه الطرق، وسنعود إلى تفصيل ذلك عند عرض طرق البناء.

ومن المهم أن نشير إلى أن حجم الطوبة ومقاييسها له علاقة وطيدة بعملية البناء من حيث يسر البناء، والاقتصاد فيه، وطريقة البناء، وكذلك تحديد سمك الجدران الذي يتحدد أيضًا وفق هذه المقاييس في إطار العوامل الأخرى.

يذكر السمهودي في إطار مشاهداته أنه «شهد لبنًا أخرج من جدران الحجرة الشريفة في العمارة التي أدركناها أولاً يزيد في الطول على الذراع، وعرضه نصف ذراع، وسمكه ربع ذراع، وفيه شيء مرتفع طوله وعرضه وسمكه واحد، وكل ثنتين منه طول لبنة مما قدمناه»[2]. وهذه القياسات تشير إلى وجود نوعين من اللبن من حيث القياسات نوع قياساته ذراع أو يزيد طولاً، وعرضه نصف ذراع، وسمكه ربع ذراع. وهذا النوع من اللبن بهذه القياسات يكشف عن خبرة متقدمة في تحديد القياسات التي تساعد البناء بيسر؛ حيث إن البناء مثل هذا الطوب يسهل في إطار العلاقة بين هذه القياسات، وبخاصة في حالة جعل سمك الجدار «طوبة ونصف» كما يساعد أيضًا في الجمع بين أكثر من طريقة في وضع الطوبة على أي من أسطحها، التي تمثل الطول أو العرض أو الارتفاع، إذا ما تطلب البناء ذلك، كما أنها

١- السمهودي: وفاء الوفا، ج١/٣٣٢؛ النجار: أخبار المدينة، ص ٦٩.

٢- السمهودي: وفاء الوفا، ج١/٣٤٦.

تساعد في تنويع وضع الطوب تنويعًا يساعد على الارتفاع بالبناء بأقل جهد وبأقل تكلفة في المؤنة التي تستخدم لربط البناء بين المداميك، كما أن هذه القياسات تجنب الإهدار في الطوب؛ حيث يجنب تكسير الطوبة في حالة البناء بطريقة الذكر والأنثى؛ حيث إن هذه القياسات تغني عن ذلك إلى حد كبير، ويمكن تقليل ذلك حال توافق طول الجدران مع طول الطوبة في وحدة القياس، بمعنى أن تكون ناتج قسمة طول الجدار على طول الطوبة عددًا صحيحًا. ويلاحظ أن هذا أمر متوافق وقياسات أضلاع المسجد في عهد الرسول ﷺ سواء في سنة ١هـ أو في سنة ٧هـ.

أما النوع الثاني من الطوب اللبن، فجاء بقياس مختلف؛ حيث إنه كان بهيئة مكعبة طول ضلعها نصف ذراع، وهو ما يعني أن هذا الطوب ضرب في قالب آخر غير قالب النوع السابق، ولكن المهم في قياس هذا النوع أنه أيضًا يتوافق مع قياسات النوع الأول من حيث إمكانية البناء به من النوع الأول في يسر وسهولة ودون إهدار، بل إنه يمكن أن يكون مفيدًا إلى حد ما في التعشيق بين المداميك راسيًا بما يساعد على متانة البناء.

ويشير السمهودي إلى طرق البناء التي استخدمت في إطار حديثه عن سمك الجدار، فيذكر أن «الذي استقر عليه عرض الجدار في زمنه ﷺ الأنثى والذكر، وهما لبنتان مختلفتان من هذا اللبن الذي رأيناه، أو اللبنة ونصف الأخرى، وهو السعيدة يزيد على ذراع ونصف يسيرًا، فيكون ذلك هو عرض جدار الحجرة ...»[١].

ويذكر ابن النجار رواية أخرى، في الصحيحين: أن جدار المسجد كان عند المنبر، وكانت الشاة تجوزه، وقالت عائشة: جدار المسجد بسطة[٢]،

١- السمهودي: وفاء، ج / ٣٤٦. شكل رقم (٦).

٢- بسطة، من قوله الزيادة، وزاد بسطة في العلم والجسم، وباسطه قامة باسطة، إذا وقف الرجل رافعًا ذراعيه إلى فوق. المعجم الوسيط، ج١/٥٨.

وكان عرض الحائط لبنة لبنة، ثم إن المسلمين كثروا، فبنوه لبنة ونصف، ثم قالوا: يا رسول الله، لو أمرت فنزيد، قال: نعم، فزيد فيه، وبنو جداره لبنتين مختلفتين»[1].

ويذكر السمهودي أكثر من رواية تتصل أيضًا بطرق البناء، فيذكر أن ابن زبالة ذكر «ويحيى من غير طريق كلام جعفر متمحصًا فأسندا عن أن النبي ﷺ كان بناء مسجده بالسميط لبنة لبنة، ثم إن المسلمين كثروا فبناه بالسعيدة، فقالوا: يا رسول الله، لو أمرت من يزيد فيه، فقال: نعم، فأمر به فزيد فيه، وبنى جداره بالأنثى والذكر ...»[2].

وذكر السمهودي الرواية بصيغة أقرب، فقال: «وفي كتاب رزين ما لفظه: عن جعفر بن محمد عن أبيه قال: كان بناء مسجد رسول الله ﷺ بالسميط لبنة لبنة، ثم بالسعيدة لبنة ونصف أخرى، ثم كثروا فقالوا: يا رسول الله، لو زيد فيه، ففعل، فبنى بالذكر والأنثى، وهما لبنتان مختلفتان»[3].

وهذه الروايات تحتاج إلى فهم بعض المصطلحات الواردة فيها؛ مثل: السميط والسعيدة، فالسعيدة هي اللبنة[4]. والسميط: الآجر القائم بعضه فوق بعض، وهو الذي يسمى البراستق[5]. وهو ما يعني رص الطوب في الجدار في هيئة قائمة، أي على السطح الأضيق (سمك الطوبة) في مدماك واحد، وهو ما يساعد على رفعة البناء وقوته، وهذا الأسلوب يستخدم عادةً في بناء المداميك الأولى من البناء؛ لتحمل ثقل البناء في المداميك الأعلى، والمدماك الواحد في البناء بهذه الطريقة يساوي ارتفاع مدماكين في البناء التي توضع

١- ابن النجار، أخبار المدينة، ص ٦٩.

٢- السمهودي: وفاء الوفا، ج١/ ٣٣٥. شكل رقم (٦).

٣- السمهودي: وفاء الوفا، ج١/ ٣٣٥.

٤- ابن سيدة: المخصص، المجلد الأول، السفر الخامس، ص ١٢٤.

٥- ابن سيدة: المخصص، المجلد الأول، السفر الخامس، ص ١٢٥.

فيه الطوبة بالوضع العادي على سطح طولها[1]. أما طريقة الذكر والأنثى فتعني رص الطوب في الوضع العادي بهيئة معشقة، تزيد البناء متانة، وهذه الطريقة تستخدم في الجدار الذي يزيد سمكه عن طول الطوبة المستخدمة في البناء، أي طوبة ونصف فأكثر.

وتكشف مراجعة الروايات إلى أن استخدام هذه الطريقة في البناء في إطار الترتيب المذكور وفي إطار سياق الروايات التي ينصب على الزيادة في البناء مع كثرة العدد. فبدأ البناء بالسميط، أي بوضع الطوبة على السطح الأضيق (سمكها ربع ذراع)، وهو ما يعني أن ارتفاع المدماك الواحد في هذه المرحلة كان نصف ذراع، وهو أمر يتناسق مع قلة العدد؛ حيث إن البناء بهذه الطريقة يساعد على ارتفاع البناء بسرعة مع توفير الجهد المبذول في المؤنة بالنصف، وهو أمر يتوافق مع قلة العدد. وحددت الرواية أن البناء بها كان «لبنة لبنة»، بمعنى يستشف منه أن سمك الجدران كان بعرض طوبة واحدة في الجزء الذي بني بهذه الطريقة.

ثم لما زاد عدد المسلمين المشاركين في البناء بنوا بالسعيدة، وهذه الطريقة تقوم على رص الطوب لبنة لبنة، ولكن بوضع الطوبة بالطريقة العادية على السطح الأطول، وهو ما يعني أن ارتفاع المدماك بالبناء بها ربع ذراع، أي أن ارتفاع مدماكين بالبناء بهذه الطريقة يساوي ارتفاع مدماك واحد بطريقة السميط. وهو ما يعني بذل جهد أكبر في البناء وإعداد المونة؛ حيث إن المونة المطلوبة ضعف المونة في البناء (ارتفاعًا) بالطريقة السابقة. وهو أمر يتسق وزيادة أعداد المشاركين في البناء. ويعني هذا أيضًا أن أجزاء من بناء الجدران بني بهذه الطريقة. أما الطريقة الثالثة، وهي الذكر والأنثى، فقد أشارت الروايات إلى أنه بعد أن زاد عدد المشاركين في البناء أكثر وأكثر

١- للاستزادة، راجع: عثمان (محمد عبد الستار): أضواء على أهمية الإنشاء في تاريخ العمارة الإسلامية، مجلة العصور، لندن، ١٩٩٦م، المجلد الخامس، الجزء الثاني، ص ٢٤٧- ٢٤٨. انظر شكل رقم (٦).

عرضوا على الرسول ﷺ أن يزيدوا، فأجابهم الرسول ﷺ وقال: «نعم، فزيد فيه»، فبنوا جداره لبنتين مختلفتين، أي بالذكر والأنثى، وهو ما يعني ضمنًا أن سمك الجدار وفقًا لهذه الطريقة يصبح لبنة ونصف، أي يصل سمكه إلى ذراع ونصف. وهذا يعني أن قطاعًا من جدران المسجد بني بهذا السمك الذي يزيد بقدر نصف ذراع عن الأجزاء السابقة[١].

والتفسير المنطقي الذي يتوافق وما سبق عرضه يفترض أن الطرق المستخدمة الثلاث لم يكن تنفيذها بطول الجدران كلها، ولكنه كان وفق تتابع البناء على أجزاء متفاوتة طوليًا، وليس ارتفاعًا، لأنه لا يمكن أن يكون القطاع السفلي من الجدار بسمك طوبة (ذراع)، والجزء العلوي منه فوق هذا القطاع طوبة ونصف (ذراع ونصف).

وإذا كان الافتراض السابق منطقيًا، فإن ذلك يكون في حال استخدام اللبن من النوع الأول بالقياسات ذراع طولاً ونصف ذراع عرضًا، وربع ذراع سمكًا، لكن الروايات كما سبقت الإشارة تشير إلى نوع آخر من اللبن مكعب طول ضلعه نصف ذراع. واستخدام هذا الطوب بهذا القياس مع النوع الأول يمكن أن يتوافق والبناء بالطريقتين الأولى والثانية والثالثة (الذكر والأنثى). وبسمك طوبة ونصف للجدار، بل استخدام هذا النوع من الطوب يساعد في تيسير البناء بها وفق هذه الطرق وبما يزيد من متانة الإنشاء. ويمكن أن يكون ذلك في إطار الافتراض الثاني الذي يتمثل في أن سمك الجدران كان لبنة ونصف كما أشارت الروايات.

لكن تبقى أهمية ما أشارت إليه الروايات في النص على «الزيادة»، والزيادة تعني الزيادة في سمك الجدران، فإن ذلك يرجح الافتراض الأول.

ومن المهم أن نشير هنا إلى أن اللبنات التي أشار إليها السمهودي،

١- وضع أحد الباحثين رسمًا توضيحيًا لهذه الطرق، ولكن هذا الرسم لا يتطابق وما ورد في الروايات، واكتفى الباحث في المتن بذكر الطرق دون تفسيرها. مصطفى: المدينة المنورة، ص ٥٤، ٦٠.

والتي اعتمد عليها في تحديد سمك الجدران بأنه كان لبنة ونصف، كان من قطاع جدار المسجد تحديدًا المشترك بينه وبين بيت السيدة عائشة، وهو ما يمكن أن نستشف منه أن هذا القطاع كان من القطاعات التي بنيت بالذكر والأنثى، وبسمك طوبة ونصف.

ارتفاع جدران المسجد:

وردت روايات متعددة تشير إلى ارتفاع بناء المسجد، فقد ذكر السمهودي في الإحياء عن الحسن مرسلاً، لما أراد النبي ﷺ أن يبني مسجد المدينة أتاه جبريل فقال: ابنه سبعة أذرع طولاً في السماء، ولا تزخرفه ولا تنقشه»[1].

وقال الأقشهري في روضته: روى صاحب السيرة، ولم يسمعه، أن جبريل عليه السلام أتى النبي ﷺ وقال: يا محمد، إن الله يأمرك أن تبني له بيتًا، وأن ترفع بنيانه بالرهص والحجارة- والرهص الطين الذي يتخذ منه الجدار- فقال: كم أرفعه يا جبريل؟ قال: سبعة أذرع، وقيل: خمسة أذرع..»[2].

وأسند أيضًا عن شهر بن حوشب: لما أراد رسول الله ﷺ أن يحجر بناء المسجد، قيل له: عريش كعريش أخيك موسى سبع أذرع. وأسند يحيى من غير طريق عن شهر أيضًا بلفظ: «لما أراد رسول الله ﷺ أن يبني المسجد، وأورد رزين بلفظ «لما أراد رسول الله ﷺ بناء المسجد قال: قيل لي عريش كعريش أخوك موسى سبعة أذرع، ثم إن الأمر أعجل من ذلك»[3].

وهذه الروايات تحدد قياسًا بالذراع لارتفاع بناء المسجد يتراوح ما بين سبعة أذرع في معظمها وخمسة أذرع في بعضها.

١- السمهودي: وفاء، ج١/٣٣٦.

٢- السمهودي: وفاء، ج١/٣٢٧.

٣- السمهودي: وفاء، ج١/٣٢٧.

ووردت روايات أخرى تتخذ القامة وحدة قياس، والقامة في ضوء الدراسات يبلغ طولها- كما سبقت الإشارة- ١٨٤,٨سم[١]. ففي كتاب رواية جعفر: «ولم يسطح (المسجد) فشكوا الحرَّ، فجعلوا خشبه وسواريه جذوعًا، وظللوا بالجريد، ثم بالخصَف، فلما وكف عليهم طينوه بالطين، وجعلوا وسطه رحبة، وكان جداره قبل أن يظلل قامة وشيئًا ...»[٢].

وأورد السمهودي رواية أخرى عن ابن زبالة ويحيى من غير طريق كلام جعفر: «... كان جداره قبل أن يظلل قامة».

ويلاحظ في هاتين الروايتين الإشارة إلى أن ارتفاع الجدران المشار إليه كان قبل تظليل المسجد، وهي إشارة أكد عليها صاحبا الروايتين بما يمكن معه وضع احتمال رفع الجدران بعد ذلك نسبيًا حينما طلب المصلون من الرسول أن يسطحه اتقاء من الحر. وهو احتمال راجح يتوافق والروايات السابقة التي أشارت إلى التوجيه برفع البناء إلى سبعة أو خمسة أذرع. وليس قامة أو يزيد شيئًا؛ لأن القامة أربعة أذرع فقط.

ووردت روايات أخرى كثيرة تشير ضمنًا إلى أن ارتفاع السقف وهيئته كان في إطار المقارنة مع عريش موسى. فقد رغب الرسول أن يكون سقف مسجد كعريش موسى، ولما سئل عن عريش موسى قال: «عريش موسى إذا كان قام أصاب رأسه السقف»[٣]. وأورد السمهودي عن ابن زبالة عن خالد بعد أن قال خرج رسول اللّه ﷺ على عبد اللّه بن رواحة وأبي الدرداء ومعهما قصبة يذرعان بها المسجد، فقال: ما تصنعان؟ فقالا: أردنا أن نبني مسجد رسول اللّه ﷺ على بنيان الشام، فيقسم على ذلك الأنصار فقال: هاتيها، فأخذ

١- عثمان: الإعلان بأحكام البنيان، ص ٢١٤.

٢- السمهودي: وفاء، ج١/ ٣٣٥.

٣- ابن النجار: أخبار المدينة، ص ٧٠.

القصبة منهما، ثم مشى بها حتى أتى الباب، فدحا بها[1]. وقال: كلا، ثمام وخشيبات وظلة كظلة موسى، والأمر أقرب من ذلك، قيل وما ظلة موسى؟ قال: إذا قام أصاب رأسه السقف»[2].

وهذه الرواية الأخيرة لها دلالات مهمة منها أنه كان يوجد في صحابة رسول الله ﷺ من له خبرة ومعرفة بالبناء وطرزه المشهورة؛ كطراز بلاد الشام، التي كانت تزخر في هذا الوقت بأروع المباني عمارةً وزخرفةً، ومن هؤلاء: عبد الله بن رواحة وأبو الدرداء، اللذان هَمَّا بفعل ذلك رغبةً منهما في أن يبنيا مسجدًا للرسول يفوق أبنية الشام يقسم عليه الأنصار. ولكن الرسول ﷺ أبى، وأصر على أن يكون البناء بسيطًا متمثلاً في ذلك هدي النبي موسى عليه السلام ورغب في أن يكون مسجده في ارتفاعه وسقفه مثل عريش موسى الذي كان سقفه عريشًا منخفضًا إذا قام أصاب رأسه.

وهذه الرواية تؤكد أن بساطة البناء كانت مقصودة، وفي إطار ثقافة الأنبياء التي تزهد في عرض الدنيا، وتوجه إلى عبادة الله سعيًا للآخرة. وهو ما نستشفه من القول المتكرر الذي أكد عليه الرسول في كل رواية وحديث يتصل ببناء المسجد بقوله ﷺ «الأمر أعجل من ذلك».

روى البيهقي في الدلائل عن طريق يعلى بن شداد عن عبادة أن الأنصار جمعوا مالاً فأتوا به النبي ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، ابنِ بهذا المسجد وزينه، إلى متى نصلي تحت هذا الجريد؟ فقال: ما بي رغبة عن أخي موسى، عريش كعريش موسى»[3].

وتؤكد هذه الرواية مرة أخرى إصرار رسول الله ﷺ على بساطة بناء المسجد وانخفاض سقفه متمثلاً في ذلك النبي موسى عليه السلام.

١- رمى القصبة على الأرض.

٢- السمهودي: وفاء، ج١/٣٣٩؛ ابن كثير: البداية، ج٣/٢١٥.

٣- السمهودي: وفاء، ج١/٣٣٩؛ ابن كثير: البداية، ج٣/٢١٥.

فقد رغب عن العرض الذي قدمه أصحابه عندما جمعوا المال ليعيدوا بناء المسجد بأسلوب آخر فيه من الثراء والجمال ما يرونه، لكن النبي ﷺ لم يستجب لرغبتهم، وبقي متأسيًا بأخيه موسى عليه السلام حتى يكون بناء المسجد وسطحه بنفس هيئة عريش موسى، تلك الهيئة التي تتسم بالبساطة وعدم الارتفاع.

وفي إطار ما سبق، يتضح أن الارتفاع الأرجح لجدران مسجد النبي ﷺ كان من خمسة إلى سبعة أذرع ، وإن كان القياس سبعة أذرع هو القياس الذي تكرر في أكثر الروايات. وهو ما يعني أن جدران المسجد وسقفه بلغت من الارتفاع ٣,٢٣٤ مترًا على حساب الارتفاع سبعة أذرع، أو ٢,٣١ مترًا على حساب خمسة أذرع.

وإذا كانت أساسات المسجد المبنية بالحجارة كما سبقت الإشارة ترتفع فوق الأرض ثلاثة أذرع، فإن البناء باللبن يكون ارتفاعه ذراعين على حساب أن ارتفاع الجدران خمسة أذرع، وأربعة أذرع على حساب أن ارتفاع الجدران سبعة أذرع.

ولمَّا كانت الروايات تشير إلى أن بناء الجدران كان باللبن، فإن هذا يعني ضمنًا أن البناء باللبن كان هو الغالب أو الأكثر في بناء الجدران، وهو أمر يمكن معه ترجيح ارتفاع الجدران بسبعة أذرع.

السقف:

بعد بناء جدران المسجد شكى المصلون إلى رسول الله ﷺ شدة الحرارة، وطلبوا منه عمل سقف للمكان الذي يصلون فيه. ولبى الرسول ﷺ طلبهم، فوضع سقف للمسجد، وإذا كان سياق الأحداث يشير إلى ذلك، فإن جبريل عليه السلام قال للرسول –حسب رواية الأقشهري– «إن الله يأمر أن تبني له بيتًا ...»[1]. وهذا الحديث بالإشارة إلى كلمة «بيت» يعني التصور

١- السمهودي: وفاء، ج١/٣٢٧.

المعماري لهذه الكلمة، وهو الجدران الأربعة التي يعلوها سقف[1]. وهكذا تتوافق الروايات مع مراحل البناء في إطار التوجيه الإلهي والمنطق المعماري.

وعملية إنشاء السقف تطلبت استكمال العناصر الإنشائية الحاملة للسقف، فقد تم إنشاء الجدران، وبقي استكمال إنشاء الأعمدة التي تحمل مع الجدران سقف ظلة القبلة، وتوثق الروايات التاريخية لهذه العملية، فتذكر أنه «لما اشتد عليهم الحر، فقالوا: يا رسول الله، لو أمرت بالمسجد فظلل، قال: نعم، فأمر له بسواري من جذوع النخل شقة ثم شقة، ثم طرح عليها العوارض والخصف والإذخر»، وجعل وسطه رحبة، فأصابتهم الأمطار، فجعل المسجد يكف (يقطر سقفه) عليهم، فقالوا: يا رسول الله، لو أمرت بالمسجد فطُيِّن، فقال لهم: عريش كعريش موسى ثمام وخشيبات، والأمر أعجل من ذلك، فلم يزل كذلك حتى قبض ﷺ»[2].

وهذه الرواية لابن النجار توثق عملية إنشاء سقف المسجد بمراحلها، كما تثبت أن السقف بالهيئة التي أمر بإنشائها الرسول ﷺ ظلت باقية حتى وفاته ﷺ. فقد أمر الرسول بعمل أعمدة من جذوع النخل لحمل السقف مع الجدار الشمالي وقطاعين من الجدارين الشرقي والغربي، وقد سبقت الإشارة إلى أن هذه الأعمدة وضعت في هيئة ثلاثة صفوف بكل صف ستة أعمدة في إطار تحديد واضح للمسافات التي تفصل بينها «شقة ثم شقة». وكانت هذه الأعمدة في إطار المنطق المعماري بنفس ارتفاع جدران المسجد، ووضع على الأعمدة العوارض الخشبية، ثم وضع على العوارض الجريد والخصف»[3].

١- عن مصطلح «بيت»، راجع: عثمان، الإعلان بأحكام البنيان، ص ١٤٤- ١٤٦.

٢- ابن النجار: أخبار مدينة رسول الله، ص ٧٠.

٣- الخصف: خوص الجريد. المعجم الوسيط، ج١/٢٤٧.

واختلفت الروايات في أمر تطيين السقف، أي وضع طبقة من الطين فوق الجريد والخصف والإذخر. وتؤكد رواية ابن النجار أن الرسول ﷺ لم يرغب في تطيين سقف المسجد بعد أن سقط المطر ووكف السقف على المصلين، وأن السقف ظل على هذه الحال حتى وفاته، وتصدقها روايات أخرى أكدت على هذه الهيئة[1].

ومن هذه الروايات ما ورد في الصحيح في ليلة القدر: «وإني رأيت أن أسجد في ماء وطين، فمن كان اعتكف مع رسول الله ﷺ فليرجع، فرجعنا وما نرى في السماء قزعة (غيمة) فجاءت سحابة فمطرت حتى سال سقف المسجد، وكان من جريد النخل، فأقيمت الصلاة، فرأيت رسول الله ﷺ يسجد في الماء والطين، حتى رأيت أثر الطين في جبهته»[2].

وعن شهاب: «كانت سواري المسجد في عهد رسول الله ﷺ جذوعًا من جذوع النخل، وكان سقفه جريدًا وخوصًا وليس على السقف كثير طين، إذا كان المطر: أمتلأ المسجد طينًا. إنما هو كهيئة العريش»[3]. وهذه الرواية مهمة؛ لأنها تشير إلى استخدام طبقة خفيفة من الطين لتثبت الخوص والجريد، ولكنها ليست طبقة سميكة «تطيين». ومن ثم فإن المطر كان يتخللها كما تشير الروايات. ويبدو أن هذه هي هيئة بناء العريش حتى تنتهي الرواية بالتأكيد على ذلك بالنص «إنما هو كهيئة العريش».

وذكر ابن زبالة رواية أخرى لا تختلف في مضمونها عن الروايات السابقة، فقد ذكر هو ويحيى من طريق كلام جعفر فأسند عنه أن بناء مسجد النبي ﷺ كان بالسميط لبنة لبنة، ثم إن المسلمين كثروا فبناه بالسعيدة، فقالوا: يا رسول الله، لو أمرت من يزيد فيه، فقال: نعم، فأمر به فزيد فيه، وبنى

١- السمهودي: وفاء، ج١/ ٣٢٧.

٢- السمهودي: وفاء، ج١/ ٣٤٠.

٣- السمهودي: وفاء، ج١/ ٣٣٩.

جداره بالأنثى والذكر، ثم اشتد عليهم الحر فقالوا: يا رسول الله، لو أمر بالمسجد فظلل، قال: نعم، فأمر فأقيمت فيه سواري من جذوع النخل، ثم طرحت عليها العوارض والخصف والأذخر[1]، فعاشوا فيه، وأصابتهم مياه الأمطار، فجعل المسجد يكف عليهم، فقالوا: يا رسول الله، لو أمر بالمسجد فطُيِّن، فقال: لا، عريش كعريش موسى، فلم يزل كذلك حتى قبض رسول الله ﷺ»[2].

ويؤكد ابن كثير من خلال ما أورد من روايات على أن السقف اقتصر بناؤه على جريد النخل، فقد أورد أكثر من رواية لأبي داود محمد بن حاتم، حدثنا عبد الله موسى عن سنان عن فراس عن عطية العوفي عن عمر أن مسجد رسول الله ﷺ أعلاه مظلل بجريد النخل، وفي رواية أخرى لأبي داود أيضًا: حدثنا مجاهد بن موسى حدثني يعقوب بن إبراهيم حدثني أبي عن أبي صالح ثنا نافع عن ابن عمر أخبره أن المسجد كان على عهد رسول الله مبنيًا باللبن وسقفه الجريد، وعمده خشب النخل ...»[3].

كما يورد ابن كثير رواية عن عبد الله بن عمر أن المسجد كان على عهد رسول الله ﷺ مبنيًا باللبن، وسقفه الجريد، وخشب النخل»[4].

وإذا كانت الروايات السابقة كلها تشير إلى عدم تطيين المسجد، فإنه وردت رواية جعفر التي قال فيها «ولم يسطح، فشكوا الحر، فجعلوا خشبه وسواريه جذوعًا، وظللوا بالجريد، ثم بالخصف، فلما وكف عليهم طينوه بالطين ...»[5].

١- الأذخر: نبات عطري له سيقان طويلة كان يستخدم في إنشاء السقف في المباني.

٢- السمهودي: وفاء، ج١/٣٣٥.

٣- ابن كثير، ج٤/٢١٦.

٤- ابن كثير، ج٤/٢١٦.

٥- السمهودي: وفاء، ج١/٢٤٠.

وفي ضوء هذه الروايات يتضح أن ظلة المسجد كانت محمولة على جدار القبلة والقطاعين الشماليين من الجدارين الشرقي والغربي. بالإضافة إلى صفوف من جذوع النخل[1] بارتفاع المسجد، وضعت عليها عوارض من خشب النخل وأن هذه العوارض مصنوعة من جذوع النخل بعد شقه، ووضعت فوق العوارض عوارض تعلو المربعات بين الأعمدة، ووضع فوقها جريد النخل[2] وسيقان الإذخر، ثم وضع فوق ذلك طبقة من الخوص. ولتثبيت الخوص وضعت في الغالب طبقة خفيفة من الطين، لم تمنع من تخلل مياه الأمطار. ولما سقطت الأمطار ووكف السقف، وطلب المسلمون من الرسول تطيينه، أي وضع طبقة كثيفة من الطين تمنع مياه المطر، لم يوافق، إصرارًا منه على أن يكون سقف المسجد بهيئة العريش الذي كان لموسى عليه السلام.

ويتضح مما سبق أن السقف كان الهدف منه تظليل ساحة الصلاة، وقد نصت الروايات على ذلك، ومن ثم استخدم الفعل ظلل، واللفظ ظلة، الذي أصبح مصطلحًا معماريًا دالاً على المساحة المسقوفة من المسجد، التي تقام فيها الصلاة تأسيًا بهذا التحديد لوظيفة السقف، ولم يرد أن من أغراض السقف هو منع ماء المطر؛ حيث أبقى الرسول ﷺ السقف بهيئة العريش التي لم تمنع مياه الأمطار.

١- لا يقال ساق النخلة كما في بقية الأشجار، ولكن يقال جذع. ابن سيدة: المخصص، مجلد ٣، القسم ١١، ص ١٠٤.

٢- لا يقال غصن النخل لأفرعه، ولكن يقال سعف النخل، وإذا نزع الخوص من السعف سمي جريدًا. ابن سيدة: المخصص، مجلد ٣، قسم ١١، ص ١٠٦.

مسجد الرسول ﷺ سنة ٢هـ:

حدث تعديل مهم في سنة ٢هـ في عمارة مسجد رسول الله ﷺ، إثر نزول الآية الكريمة ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾[1]. بعد أن ظلت القبلة تجاه القدس مدة طويلة حددتها بعض الروايات، فقد روي عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يصلي نحو بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهرًا، وكان يحب أن يوجه إلى الكعبة، فنزل قوله تعالى: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾[2].

وذكر ابن النجار روايته عن هذا الحدث، وذكر أن الرسول ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهرًا ثم أمر بالتحول إلى الكعبة[3].

وأورد ابن كثير رواية مشابهة، وذكر أن رسول الله ﷺ قد صلى نحو بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهرًا، وكان يحب أن يوجه نحو الكعبة، فأنزل الله ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾[4].

وتشير هذه الروايات تحديدًا إلى المدة التي ظلت فيها قبلة المسجد الأولى في اتجاه القدس، وهي ستة عشر شهرًا أو سبعة عشر شهرًا، كما تشير إلى أن الله عز وجل لبى للرسول ﷺ رغبته في التحول في

١- سورة البقرة، الآية رقم (١٤٤).

٢- السمهودي: وفاء، ج١/٣٥٩.

٣- ابن النجار: أخبار مدينة رسول الله، ص ٧٠.

٤- ابن كثير: البداية، ج٢/٢٥٣.

الصلاة إلى الكعبة، ونزلت الآية الكريمة التي تشهد بهذا.

واستجابة لهذا الأمر السماوي الذي يلبي رغبة الرسول ﷺ في التحول إلى الكعبة «قبلة للمسلمين» بدأ الرسول ﷺ في تنفيذ الأمر، وتشير الروايات إلى تفاصيل مهمة توضح كيفية تعديل القبلة، فيذكر ابن النجار أن رسول الله ﷺ لما «أمر بالتحول إلى الكعبة فأقام رهطًا على زوايا المسجد ليعدل القبلة، فأتاه جبريل عليه السلام فقال: يا رسول الله، ضع القبلة وأنت تنظر إلى الكعبة، ثم قال بيده هكذا، فأماط كل جبل بينه وبينها، فوضع القبلة، وهو ينظر إلى الكعبة لا يحوز دون نظره شيء، فلما فرغ قال جبريل هكذا»[1]. فأعاد الجبال والشجر والأشياء وصارت قبلته إلى الميزاب.

ويذكر الحربي روايتين مسندتين تسجلان ذات الحدث، فقال: «...حدثني عبد الله بن شبيب قال: حدثني محمد بن سلمة المخزومي، قال: حدثني محمد بن إبراهيم بن دينار، عن مالك بن أنس عن زيد بن أسلم عن ابن عمر قال: وضع جبريل عليه السلام القبلة للنبي ﷺ بالمدينة.

أما الرواية الثانية: «حدثني أبو توبة عن سليمان بن عبد العزيز عن أبيه عن داوود بن قيس عن زيد بن أسلم أن جبريل عليه السلام كشف له ما بينه وبين البيت فوضعها وهو ينظر إلى البيت»[2].

وذكر السهيلي في الروض أنه روى عن الشفاء بنت عبد الرحمن الأنصارية «كان النبي ﷺ حين بنى المسجد يؤمه جبريل إلى الكعبة، ويقيم له القبلة»[3]. وروى العمري ذات الرواية[4]، وخلاصة هذه الروايات أنها تشير إلى ما يلي:

١- ابن النجار: أخبار مدينة رسول الله، ص ٧٠؛ ماهر، مساجد في السيرة، ص ٧٢.

٢- الحربي: المناسك، ص ٣٥٩.

٣- السهيلي: الروض، ج٢/٣٣٧.

٤- العمري: المسالك، ج١/٨٦؟

أولاً- أن الرسول ﷺ فور نزول الآية أقام رهطًا على زوايا المسجد لتحديد اتجاه القبلة نحو الكعبة، وهي محاولة بشرية لها دلالاتها التي تعني توجه الرسول على الفور لتنفيذ الأمر السماوي بتعديل القبلة وأنه أخذ الخطوات العملية لذلك، فجمع رهطًا وبدأوا عملهم عندما أقامهم الرسول على زوايا المسجد لتحديد الاتجاه الصحيح للقبلة نحو الكعبة. وهو أمر يكشف عن إدراك الرسول لخطوات تحديد اتجاه القبلة الجديد للمسجد، الذي كان بناؤه متكاملاً، ويحتاج فقط لتغيير اتجاه القبلة تجاه الكعبة، ومن ثم كان التحديد في إطار اعتبار زوايا المسجد.

ثانيًا- أثناء اتخاذ هذه الخطوة نزل جبريل وأعان الرسول في تحديد القبلة، بل إن تلك الروايات تؤكد أن الرسول ﷺ هو الذي حدد الاتجاه، وكان هذا التحديد مستندًا إلى معجزة خارقة، فقد أزاح الجبال والأشجار التي تفصل بين الوضع الجديد للقبلة في الجدار الجنوبي وبين الكعبة. وبعد أن وضع الرسول القبلة وهو ينظر إلى الكعبة لا يحوز دون نظره شيء، فلما فرغ قال جبريل: هكذا، وصارت قبلته إلى الميزاب، وأعاد جبريل أوضاع الجبل والشجر إلى ما كانت عليه. ويذكر رواية الحربي والسهيلي والعمري أن «جبريل هو الذي أقام القبلة للنبي بالمدينة».

ولا شك أن مشاركة جبريل عليه السلام في وضع القبلة أو تحديد اتجاهها نحو الكعبة تحديدًا مرئيًا بمعجزة من الله عز وجل يشير إلى أهمية الحدث باعتبار أهمية المشاركين فيه.

وتوثق الروايات الحالة المعمارية للمسجد إثر هذا التحويل، فقد بقي جدار القبلة الشمالي على حاله؛ حيث إن القبلة الأولى أصبحت مكان أهل الصفة[1]؛ حيث تم بناء ظلة جديدة في الاتجاه الجنوبي يصلي فيها المصلون.

١- الحربي: المناسك، ص ٣٦٠؛ السمهودي: وفاء، ج١/٣٦٧.

ويبدو أن الظلة الجديدة قد أنشئت بذات النسق المعماري الذي كانت عليه ظلة القبلة الأولى في شمالي المسجد، واختصرت الظلة اختصارًا يتوافق وهيئة الصفة السابقة، ووجود رحبة بالمسجد بين ظلة القبلة بعد تحويلها، والصفة الجديدة التي حلت أصبحت قطاعًا من الظلة الأولى تجاه بيت المقدس. ولم يرد في الروايات تفصيل يذكر هيئة هذه الظلة الجديدة تحديدًا، وإنما جاءت الروايات لتسجل الحالة المعمارية للمسجد دون تحديد سنوات حتى كانت التوسعة التي أشارت أيضًا إلى مساحة الزيادة فيها دون ذكر تفاصيل معمارية، وهو الأمر الذي يمكن معه وضع تصور معماري لهذه الظلة الجديدة بنفس هيئة التصور المعماري للظلة الأولى التي أنشئت سنة ١هـ من حيث التخطيط والإنشاء[١]، خاصة وأن القياسات متقاربة والجدران الخارجية قائمة، ولم يحدث تعديل في الجدار الجنوبي سوى بسد الباب الذي كان يتوسطه، ووضع «القبلة» أو «حنية المحراب» مبنية بالهيئة المجوفة تجاه الكعبة، وفتح باب على محوره في الجدار الشمالي غالبًا كان في موضع القبلة الأولى التي نقلت إلى الجدار الجنوبي.

المسجد النبوي بعد توسعه سنة ٧هـ:

بعد غزوة خيبر وزيادة عدد المسلمين في المدينة، باتت الحاجة ملحة إلى توسعة الرسول لمسجده في المدينة المنورة، وقد عرضت المصادر التاريخية في إطار اهتمامها بتوثيق مساحة مسجد رسول الله ﷺ التي كانت بعد توسعته على يد الرسول ﷺ روايات كثيرة ومتنوعة، تصدى لفحصها السمهودي، وهو فحص جمع فيه بين المرحلتين الأساسيتين في تاريخ عمارة المسجد في عهد الرسول؛ المرحلة الأولى التي كانت في سنة ١هـ، ثم المسجد بعد التوسعة سنة ٧هـ. وانتهى من فحصه إلى أن هذه الروايات تصنف في أربع مجموعات: الأولى «سبعون ذراعًا في ستين»[٢]. وهذا القياس كما أوضحت

١- مصطفى: المدينة المنورة، ص ٥٧؛ شكل رقم (٤٧).

٢- السمهودي: وفاء، ج١/ ٣٤٠- ٣٤١.

الدراسة للمسجد في سنة ١هـ هو قياس المسجد في هذه المرحلة- والثانية «مائة في مائة وأنه مربع»[١]. وهذا القياس هو الذي يخص المرحلة الثانية بعد التوسعة سنة ٧هـ، والثالثة «أنه بناه أولاً أقل من مائة في مائة»[٢].

وواضح من هذه الرواية أنها تختص بالمساحة في المرحلة الأولى دون تحديد أطوال محددة بالأذرع- والرابعة «أنه بناه أولاً أقل من مائة في مائة ثم بناه وزاد عليه مثله في الدور». و واضح أن هذه الروايات في هذه المجموعة تجمع بين المرحلتين الأولى والثانية[٣]. ثم علق على النص وزاد عليه مثله في الدور تعليقًا قال فيه: «ولا يصح أن يراد بذلك الأذرع قطعًا؛ لأنها تقتضي أن بعد البناء الثاني صار أحد امتداديه إما الطول أو العرض نحو مائتي ذراع، والامتداد الآخر نحوها، ولا شك أن حد مسجده ﷺ من جهة الشرق غايته الحجرة الشريفة، فعرضه من جدارها الغربي، وذرع هذا القدر من الزيادات المجمع عليها لا تبلغ مائة وخمسين ذراعًا كما اختبرته، بل تنقص أزيد من ستة أذرع. وقد أجمع المؤرخون على أن عمر وعثمان – رضي الله عنهما- زادا في هذه الجهة ثم غيرهما من الخلفاء، فالظاهر أن المراد من هذه الرواية الأشبار لا الأذرع، فيقتضي أن المسجد النبوي بعد البناء الثاني صار امتداده مائتي شبر، والامتداد الآخر نحوها، فيوافق ذلك مائة ذراع في مثلها، على أن التحديد الذي ذكره المتأخرون من الأمور التي من التحديد بالأمور الآتية يقتضي أنه لم يكن مائة ذراع، فهو مقتض لترجيحهم الرواية الأولى (المجموعة الأولى)، وهي سبعون ذراعًا في ستين، وتكون السبعون الأولى للطول، والستون للعرض»[٤].

وهكذا يوضح السمهودي ما حدث من خلط في روايات المؤرخين بين مساحة

١- السمهودي: وفاء، ج١/ ٣٤١- ٣٥٩.

٢- ماهر: مساجد في السيرة، ص ٧٠.

٣- السمهودي: وفاء، ج١/ ٣٤١.

٤- السمهودي: وفاء، ج١/ ٣٤٠- ٣٤١.

المسجد في سنة ١هـ، ثم بعد التوسعة في سنة ٧هـ. ويوضح أنه وفق ما قام به من ذرع المساحة المسجد بنفسه في عهده ثم طرح الزيادات منها، والتي حدثت في الفترات اللاحقة لعمارة الرسول مرحلتيها، وتبين أن المساحة في المرحلة الأولى كانت سبعين في ستين ذراعًا، وأن المرحلة الثانية سنة ٧هـ بعد التوسعة أصبحت المساحة «مائة في مائة» ذراع. وفسر غموض بعض الروايات وبخاصة القياس الأخير في المجموعة الرابعة الذي يضاعف المساحة، فإن القياس كان بالشبر وليس بالذراع، تأسيسًا على أن الشبرين يساويان ذراعًا، وهذا صحيح. ثم أخذ السمهودي في مراجعة الروايات التي وردت في المصادر التي اعتمد عليها وفق هذا التوضيح[١]، وفندها تفنيدًا يتوافق وما حدده من أن قياس المسجد بعد التوسعة أصبح «مائة في مائة»، وهو القياس الذي أشار إليه آخرون غير الذين عرض لهم السمهودي؛ كالنووي الذي ذكر في مسكه عن خارجة بن زيد أحد فقهاء المدينة السبعة قال: «بنى رسول الله ﷺ في المرة الثانية «مائة ذراع في مائة ذراع»[٢]. والحربي الذي ذكر «علامات المسجد» أي العلامات أو المساحة التي شغلها مسجد الرسول بعد قدومه من خيبر، أي بعد التوسعة. ويشير الحربي في إطار حديثه عن تحديد مساحة المسجد بعد توسعة سنة ٧هـ أن الرسول ﷺ: «ترك المسجد من الناحية القبلية على حاله الأولى»، ثم أخذ يتحدث عن التوسعات في الجهات الأخرى في إطار علامات حددها[٣]. والثابت أن المسجد لم يحدث به توسعات في الجهة الشرقية لوجود بيوت زوجات النبي.

وأثبتت إحدى الدراسات الحقلية الحديثة التي اتبعت منهجية السمهودي، ولكن بطرح المساحات من التوسعات التي حدثت أيضًا بعد السمهودي، وحتى العهد السعودي أن مساحة المسجد بعد التوسعة كان طولها

١- السمهودي: وفاء، ج١/٣٤١- ٣٥٩.

٢- ماهر: مساجد في السيرة، ص ٧٠.

٣- الحربي: المناسك، ص ٣٦١.

من الشمال إلى الجنوب ١٠٠ ذراع (٤٦,٢٠ مترًا)، وعرضها من الشرق إلى الغرب تسعين ذراعًا (٤١,١٥٨ مترًا)[١]. واتضح أيضًا أن جدران المسجد لم تكن متعامدة تمامًا.

وبناءً على تحديد المساحة بهذه القياسات، والمطابقة بين هذه القياسات وروايات المؤرخين عن أساطين المسجد وبعد العناصر المعمارية المهمة في ظلة الصلاة كالمنبر. وكذلك أسلوب إنشاء السقف بنفس المواد والأساليب التي استخدمت في بناء المرحلة الأولى- التي سبقت الإشارة إليها- وما وضع من مخططات للمسجد، والتي وضعت عليها بعض المنشآت المجاورة للمسجد، وما آلت إليه عمارة المسجد في مراحله المختلفة التي وقعت على المخطط. استطاعت الدراسة المشار إليها أن تنتهي إلى أن رواق القبلة كان يتكون من ثلاث بلاطات بواسطة ثلاث صفوف من جذوع النخل موازية لجدار القبلة لكل صف تسعة جذوع. وأكمل بالطبع جدار القبلة في القطاع الغربي بطول الزيادة جهة الغرب، مع بناء الجدار الغربي والجدار الشمالي من جديد، واستكمال القطاع الشمالي في الجانب الشرقي بعد آخر بيت بناه الرسول ﷺ في هذه الجهة. سيما وأن آخر بيت فيها كان بناؤه سنة ٧هـ ، وبنيت هذه الإضافات بنفس الأسلوب الذي استخدم في مرحلة البناء الأولى. انظر شكل رقم (٧، ٨).

وغطى رواق الصلاة سقف من الجريد محمول على عوارض من خشب النخل، أي بنفس المواد والأسلوب الإنشائي الذي استخدم في سقف ظلة الصلاة الأولى التي كانت في الجهة الشمالية، ثم في الظلة التي بنيت في الجهة الجنوبية بعد تحويل القبلة نحو الكعبة المشرفة.

كما افترضت الدراسة وجود صفة في الجهة الشمالية، لكن لا نستطيع

١- هذا التقدير بالذراع الشرعي الذي طوله ٤٦,٦ سم، وليس بالقياس التقريبي للذراع الذي اعتمد الباحث (٥٠ سم): مصطفى: المدينة المنورة، ص ٥٨.

تحديد هيئتها المعمارية وفق روايات تاريخية تحدد هذه الملامح، لكن التصور الافتراضي الذي تبنته هذه الدراسة عبارة عن سقيفة يحمل سقفها الجدار الشمالي مع صف من جذوع النخل يتكون من ستة أعمدة[١]. حلت محل الصفة التي كانت من بقية الظلة الشمالية بعد تحويل القبلة سنة ٢هـ. شكل رقم (٧)، وهو افتراض يختلف مع تصورات أخرى، انظر شكل (٨، ٩)، وأي تصور لا يمكن القطع به لعدم وجود وصف مصدري لها.

وقد وضعت هذه الدراسة تصورًا افتراضيًا للبيوت التي بناها الرسول في الفترة من سنة ١هـ إلى سنة ٧هـ في إطار يفترض أن مواضعها جميعًا كانت ملاصقة للجدار الشرقي وبأبواب شارعة لها أعلى المسجد. وهذا الافتراض، وبخاصة التخطيط، يظهر عدم دقته عند دراسة بيوت زوجات النبي ﷺ.

وقد سبق عرض ما يتصل بإنشاء «قبلة من الحجر» للمسجد، وهذه القبلة ظلت باقية في موضعها بعد تحويل القبلة؛ لأن الرسول ﷺ لم يوسع المسجد من الجهة القبلية. انظر شكل رقم (٨).

«المنبر»:

كان الرسول ﷺ يخطب في المصلين في مسجده مستندًا إلى الجذع[٢]، الذي أَنَّ بعد أن عمل للرسول منبر يخطب من عليه، واختلفت الروايات حول تاريخ عمل هذا المنبر، ولكن يمكن القول بأنه عمل في الفترة من ٧- ٩هـ.

وقد وثقت المصادر لهذا المنبر ابتداءً من إثاره فكرة عمله حتى الانتهاء من تصنيعه واستخدامه. ومن المهم أن نعرض للروايات التي ذكرها المؤرخون عن هذه المراحل لأهميتها التاريخية، وأهمية دلالاتها باعتبار أن الرسول ﷺ كان المباشر الأول لها، فاستن للمسلمين سنة تردد صداها

١- مصطفى: المدينة المنورة، ص ٥٨- ٥٩ شكل (٤٨) في الدراسة المذكورة.

٢- السمهودي: وفاء، ج١/ ٣٩.

في صناعة المنابر منذ عهد النبي ﷺ وحتى العصر الحديث.

وقد وردت روايات متعددة تتحدث عن فكرة عمل المنبر، ففي صحيح البخاري من حديث جابر بن عبد الله أن امرأة من الأنصار قالت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، ألا أجعل لك شيئًا تقعد عليه، فإن لي غلامًا نجارًا، قال: إن شئت، فعملت ذلك المنبر. وروى أبو داوود في سننه من حديث عبد الله بن عمر أن النبي لما بَدُنَ قال له تميم الداري: ألا أتخذ لك منبرًا يا رسول الله يجمع أو يحمل لك عظامك؟ قال: بلى، قال: فاتخذ له منبرًا من مرقاتين»[1].

وقال العباس بن عبد المطلب: إن لي غلامًا يقال له كلاب أعمل الناس، فقال له النبي ﷺ فمره يعمل، فأرسله إلى أثلة بالغابة، فقطعها، ثم عملها درجتين ومجلسًا ...»[2].

وروى البخاري في الصحيح من حديث أبي حازم أن نفرًا جاءوا إلى سهل بن سعد قد تماروا في المنبر من أي عود هو، فقال: أما والله إني لا أعرف من أي عود ومن عمله، رأيت رسول الله أول يوم جلس عليه فقلت له: فحدثنا، فقال: أرسل عليه السلام إلى امرأة انظري غلامك النجار يعمل لي أعوادًا أكلم الناس عليها، فعمل هذه الدرجات الثلاث، ثم أمر بها فوضعت بهذا الموضع، وهي من طرفاء الغابة»[3].

وقد حصر السمهودي معظم الروايات المشابهة التي تتحدث عن فكرة عمل المنبر، ومن الذي عرض الفكرة، وكيف نفذت، وهي مشابهة للروايات التي ذكرها ابن النجار، أو هي نفسها ومن ذات الرواة[4].

١- ابن النجار: أخبار مدينة رسول الله، ص ٧٩؛ السمهودي: وفاء، ج١/٣٩١.

٢- ابن النجار: أخبار مدينة رسول الله، ص ٨٠؛ السمهودي: وفاء، ج١/ /٣٩١.

٣- ابن النجار: أخبار مدينة رسول الله، ص ٧٩؛ السمهودي: وفاء، ج١/ ٣٩١.

٤- للاستزادة: راجع: السمهودي، وفاء، ج١/٣٩١، ٣٩٣، ٣٩٥- ٣٩٧.

ومن المهم أن نشير إلى ما ورد في الروايات عن الشكل الذي كان عليه منبر رسول اللّه ﷺ. وقد فحص السمهودي ما ذكره المؤرخون عن هذا الشكل، ورأى أن غالبيتهم اتفقوا على أن منبر رسول اللّه ﷺ كان درجتين غير المجلس. كما أشار إلى أن الواقدي سبق في رواية الدارمي «هذه المراقي الثلاث أو الأربع على الشك». وفي صحيح مسلم: «هذه الثلاث درجات» من غير شك، وقال الكمال الدميري في شرح المنهاج: وكان له ﷺ منبر ثلاث درج غير الدرجة التي تسمى المستراح، ولعل مأخذه ظاهر ذلك مع حديث أن النبي ﷺ رقى المنبر، فلما رقى الدرجة الأولى قال: آمين، ثم رقى الدرجة الثانية، فقال: آمين، ثم رقى الدرجة الثالثة، فقال: آمين، فقالوا: يا رسول اللّه، سمعناك قلت آمين ثلاث مرات، قال: لما رقيت الدرجة الأولى، جاء جبريل عليه السلام فقال: شقي عبد أدرك رمضان فانسلخ فلم يغفر له، قلت: آمين، ثم قال: شقي عبد ذكرت عنده فلم يصلِّ عليك، قلت: آمين، ثم قال: شقي عبد أدرك والديه أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة، فقلت: آمين. رواه يحيى بن الحسن عن جابر[1].

ثم تتحدث الروايات عن قياسات المنبر، ومنها رواية ابن زبالة، الذي قال: وطول منبر النبي ﷺ خاصة ذراعان في السماء (٩٢,٤ سم)، وعرضه ذراع في ذراع (٤٦,٢ × ٤٦,٢سم)، وتربيعه سواء، وفيه مما كان يلي ظهره إذا قعد ثلاثة أعواد تدور، ذهبت إحداهن، وانقلعت إحداهن سنة ثمان وتسعين ومائة، وأمر به داود بن عيسى فأعيد، وقال عقب كلامه الآتي في ذرع ما عليه المنبر اليوم، يعني زمنه، ما لفظه وطول المجلس أي مجلسه ﷺ شبران وأربع أصابع في مثل ذلك مربع، فقوله أولاً، وعرضه ذراع في ذراع، إنما أراد من مقعد المنبر لما قاله هذا في وصف المنبر يدون درجتيه، ولأنه قال هنا عقب ما تقدم، وما بين أسفل قوائم منبر النبي ﷺ إلى رمانته خمسة أشبار وشيء، وعرض درجة شبران وطولها شبر، وطوله

١- السمهودي: وفاء، ج١/٤٠١.

من ورائه يعني محل الاستناد شبران وشيء، فيؤخذ من ذلك أن امتداد المنبر من أوله، وهو ما يلي القبلة إلى ما يلي آخره في الشام أربعة أشبار وشيء، وقوله: إن عرض درجة شبران، وأن المجلس شبران فأربع أصابع، وقوله: «وما بين أسفل قوائم منبر النبي ﷺ إلى آخره» معناه من طرف المنبر النبوي الذي يلي الأرض إلى طرف رمانته التي يضع يده الكريمة خمسة أشبار وشيء، وذلك نحو ذراعين ونصف، وقد تقدم أن ارتفاع المنبر ذراعان، فيكون ارتفاع الرمانة نحو نصف ذراع[1].

وقال ابن النجار: إن طول منبر النبي ﷺ ذراعان وشبر وثلاث أصابع، وعرضه ذراع راجح، وطول صدره- وهو مستند النبي ﷺ ذراع، وطول رمانتي المنبر اللتين يمسكهما بيديه الكريمتين إذا جلس شبر وأصبعان، وعرضه ذراع في ذراع، يريد وتربيعه سواء، ولا يخفى ما فيه من المخالفة لكلام ابن زبالة[2].

وفي إطار ما سبق يمكن تصور الشكل الذي كان عليه المنبر في ضوء رواية ابن زبالة، وما ورد في الحديث النبوي الشريف الذي سبق الإشارة إليه.

فالمنبر كان من درجتين[3]. ومستراح، والمستراح كان له مسند في الظهر من ثلاثة أعواد، لما كان للمنبر قائمان في الجانبين، فمنها من أعلى في هيئة رمانة أو المستراح.

ومن المهم أن نقارن بين الروايتين اللتين ذكرهما ابن زبالة وابن النجار فيما يتعلق بالقياس، والجدول الآتي يبين ذلك بوضوح.

١- السمهودي، وفاء، ج١/٤٠٥.

٢- ابن النجار: أخبار مدينة رسول الله، ص ٨٢؛ السمهودي: وفاء، ج١/٤٠٥.

٣- تذكر بعض الدراسات المعاصرة أن المنبر من درجتين فقط ومستراح. مصطفى: المدينة المنورة، ص ٥٩.

قياسات المنبر في روايتي ابن زبالة وابن النجار

رواية ابن زبالة		رواية ابن النجار	
العنصر	قياسه	العنصر	قياسه
١- طول المنبر (ارتفاعه)	٢ ذراع	ارتفاع المنبر	٢ ذراع وشبر وثلاثة أصابع.
٢- قياس المستراح	ذرع × ذراع	عرض المنبر	ذراع راجح.
٣- ارتفاع قائمي الرمانتين من الأرض	٢ ذراع وشيء (خمسة أشبار وشيء)	طول المسند (ارتفاع)	ذراع
٤- عرض الدرجة	٢ شبر وشيء	طول الرمانتين إذا جلس النبي ﷺ.	شبر وإصبعان
٥- عرض الدرجة	٢ شبر	عرض المجلس	ذراع × ذراع
٦- طول الدرجة	شبر		
٧- مسند المستراح (صدره)	٢ شبر وشيء		
٨- امتداد المنبر من القبلة إلى المقدمة	٤ شر وشيء		

ومراجعة هذه القياسات مع بعضها في كل من الروايتين، والربط بين ذلك والشكل المادي المتصور في إطار هذه القياسات، تجعل من الممكن تحديد الشكل الذي كان عليه منبر الرسول ﷺ.

فطول قاعدة المنبر من القبلة إلى مقدمه أربعة أشبار وشيء أي ذراعين وشيء، وهذان الذراعان هما مجموع قياس نائمة الدرجات والمستراح، فإذا

كان المستراح ذراعًا يتبقى ذراع للدرجات المؤدية إليها، وهي التي وصف طولها بشبر وعرضها شبران، فيصبح المقصود بالطول قياس قائمة الدرجة، ويصبح المقصود بالعرض طول النائمة أو القائمة، وبهذا يتحدد الشكل في ضوء هذا بأن المنبر كان يتكون من درجتين ومستراح بهذه القياسات.

وهذا التحديد السابق لا يتوافق مع اختلاف ارتفاع المنبر في كل من الروايتين؛ حيث ذكر ابن زبالة أنه ذراعان، بينما ذكر ابن النجار أنه ذراعان وشبر وشيء. لكن يمكن تفسير ذلك أن ابن زبالة في وصفه ذكر الارتفاع بدون حساب ارتفاع الرمانتين والذي يبلغ نصف ذراع، أما ابن النجار فقد حسب الارتفاع كله بما فيه ارتفاع الرمانتين، وأن هذا القياس لم يتضمن أي إشارة إلى اعتبار قياس صدر المستراح.

كذلك يمكن تفسير ما ذكر من قياسات عن ارتفاع الرمانتين اللتين يمسك بهما رسول الله ﷺ وهو جالس على المنبر؛ حيث يحدد ابن زبالة بوضوح أن مقاسهما من مستوى الأرض إلى الرمانتين اللتين تشكلان الجزء العلوي منهما خمسة أشبار وشيء. أما رواية ابن النجار من أن طول الرمانتين شبر وأصبعان، فحساب الفارق بينهما في إطار ما سبق تحديده يكشف عن أن ارتفاع المنبر من الأرض حتى المستراح كان ذراعين، وإذا كان ارتفاع الدرجتين (قائمتهما) يساوي ذراعًا، فمعنى ذلك أن ارتفاع قائمة المستراح من مستوى قائمة الدرجة الثانية حتى مستوى القاعدة التي يجلس عليها النبي «ذراع». وهذا القياس منطقي لراحة جلوس النبي ﷺ على المنبر؛ حيث إن الجلسة المستريحة تتطلب ارتفاع قاعدة المستراح عن الدرجة التي قبله وبهذا الارتفاع وليس بارتفاع قائمة الدرجة. ولما كان رسول الله ﷺ ربعة ليس بالطويل البائن ولا بالقصير[1]. فإن هذا القياس لارتفاع جلسة المستراح عن الدرجة الثانية يكون أكثر مناسبة لطول الرسول ﷺ. انظر شكل رقم (١٠).

١- ابن كثير: البداية، ج٥/١٣.

ويثير تفسير الكمال الدميري المرتبط بحديث البخاري الذي سبقت الإشارة إليه قضية التأكد من أن المنبر كان من ثلاث إلى أربع درجات.

فقد ورد عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رومانيًا صنع لرسول الله ﷺ منبرًا له درجتان، ويقعد على الثالثة»[1].

وورد حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: وكان منبر النبي ﷺ قصيرًا، إنما هو ثلاث درجات، اعلم أن منبر النبي ﷺ من حيث صفته كان صغيرًا وقصيرًا ومتواضعًا، صنع من خشب لا يتعدى ثلاث درجات، وكان يقف على الدرجة التي تلي المستراح»[2].

وفي ضوء هذين الحديثين اللذين يصفان المنبر وصفًا مباشرًا تبقى مراجعة تفسير الكمال الدميري أمرًا يسيرًا.

فقد جاء وصف المنبر وصفًا مطلقًا بأنه يتكون من ثلاث درجات، وهذا الوصف المطلق يعني ضمنًا ضم الدرجتين إلى المستراح إلى الوصف باعتبار هيئته التي تشبه الدرجة.

كما جاء الوصف بالتقييد في صياغات أخرى بأنه يتكون من درجتين ومستراح. فهذه الرواية تقيد وصف المنبر، وتفصل ما بين الدرجتين والمستراح فصلاً يؤكد تقييد عناصر الموصوف.

وما ورد في حديث البخاري وارتقائه ﷺ يمكن أن يكون في إطار معنى الارتقاء بمعنى الصعود إلى القمة أن يكون الإحصاء للدرجات شاملاً الدرجتين والمستراح الذي يجلس عليه الرسول ﷺ.

١- أخرجه الدارمي في سننه ٣٢/٣١ باب ما أكرم النبي ﷺ بحنين المنبر، وابن خزيمة في الجمعة ١٣٩/٣، باب ذكر موضع قيام النبي ﷺ في الخطبة وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٢٠٦/٥.

٢- أخرجه أحمد في مسنده، ٢٦٨/١، حديث رقم (٢٤٩١)، والحاكم في المستدرك. وصححه أحمد شاكر في تحقيقه لمسند أحمد، ١٣٦/٤.

أما ما ذكره الدميري من أن المنبر من ثلاث أو أربع درجات، فهو يعني أنه وفق الوصف المطلق ووفق فهمه يعني درجات ثلاثاً وردت الإشارة إليها في حديث البخاري، والمستراح كدرجة رابعة.

وهذا التفسير يمكن أن يكون ناشئًا عن فهم دلالة لفظ ارتقى بمعنى عملية الصعود نفسها قبل الجلوس، على المستراح، وليس بالدلالة التي تعني انتهاء الصعود والجلوس على المستراح.

كذلك فإن الربط بين ارتفاع سقف المسجد الذي أشارت الروايات إلى أنه يتراوح بين خمسة وسبعة أذرع، وبين ارتفاع المنبر لا يتوافق وتفسير الدميري بأن المنبر يتكون من ثلاث أو أربع درجات؛ لأن ذلك يعني أن آخر درجة من الثلاث التي يقف عليها النبي ﷺ قبل الجلوس على المستراح وعند الخطبة واقفًا مرتفعة عن الأرض مقدار ذراع ونصف يضاف إليها قامة النبي، وهو أمر في هذه الحالة يزيد على خمسة أذرع.

وفي إطار ما سبق، يبقى فهم ما ذكره الدميري في ضوء حديث البخاري في إطار احتساب المستراح درجة من الدرجات، ودلالة الرقي بمعناه النهائي، وهو الصعود الكامل والجلوس على المنبر، أما ما ذكر عن الأربع درجات يضعف التفسير في إطار عدم تأكد صاحبه ووثوقه مما يقرر.

موضع الأذان:

لم تكن بمسجد الرسول ﷺ في عهده وكذلك في عهد الخلفاء الراشدين من بعده مآذن. وبدأ إنشاء المآذن بمسجده ﷺ في التوسعة التي أحدثها الوليد بن عبد الملك في الفترة من ٨٨- ٩١هـ بالمسجد؛ حيث تشير الروايات إلى بنائه لأربع مآذن في الأركان الأربعة للمسجد.

وتشير الروايات إلى أنه روي عن نافع بن عمر قال: قال بلال كان يؤذن

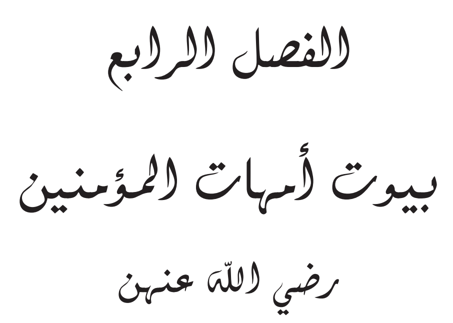
على منارة في دار حفصة بنت عمر التي تلي المسجد، قال: فكان يرقى على أقتاب فيها، وكانت خارجة عن مسجد رسول الله ﷺ، ولم تكن منه، وليست فيه اليوم.

وتشير رواية أخرى إلى موضع آخر كان يؤذن من عليه بلال. فقد ذكر ابن النجار أيضًا أن أهل السير ذكروا بأن «بلالاً يؤذن على أسطوانة في قبلة المسجد يرقى إليها بأقتاب، وهي قائمة إلى اليوم في منزل عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه»[1].

وذكر ابن النجار في رواية ثالثة عن «ابن إسحاق أن امرأة من بني النجار قالت: كان بيتي أطول بيت حول المسجد، وكان بلال يؤذن عليه الفجر كل غداة، فيأتي بسر فيجلس على البيت ينتظر الفجر، فإذا رآه تمطى، ثم قال: اللهم أحمدك وأستعينك على قريش أن يقيموا دينك، قالت: ثم يؤذن»[2].

١- ابن النجار: أخبار مدينة رسول الله، ص ٨٦. وكانت داره في الجهة الجنوبية من المسجد مما يلي الشرق. عبد الغني (محمد إلياس): بيوت الصحابة، ص ٨١.

٢- ابن النجار: أخبار المدينة، ص ٨٦.


الفصل الرابع
بيوت أمهات المؤمنين
رضي الله عنهن

تعتمد الدراسة المعمارية لبيوت زوجات النبي ﷺ على المصادر؛ حيث لم يَتَبقّ منها شيء سوى بقايا من بيت السيدة عائشة الذي دفن به رسول اللّه ﷺ والخليفتان أبا بكر وعمر. فظل موضعه محددًا تحديدًا واضحًا يمكن الاستناد إليه في تحديد ما جاوره من بيوت، وفي تحديد حد مسجد الرسول ﷺ من الناحية الشرقية حتى توسعته في عهد الوليد بن عبد الملك عندما هدم بيوت زوجات النبي ﷺ فأدخلها في المسجد فيما عدا بيت السيدة عائشة موضع قبر الرسول، الذي بقي على حاله لوجود قبر الرسول ﷺ وخليفتيه أبي بكر وعثمان به، مع إحداث بعض العناصر المعمارية التي تحده، وكذلك إنشاء الجدار المزور من الجهة الشمالية حتى لا يستقبل المصلون القبر. كذلك تشير الروايات إلى بيت فاطمة الذي جاور بيت السيدة عائشة الذي بقي بوضعه محددًا تحديدًا واضحًا في الجهة الجنوبية من المقصورة بمسجد رسول الله ﷺ.

ودراسة بيوت زوجات النبي ﷺ تتطلب إطارًا تاريخيًا يوضح تاريخ زواج النبي ﷺ بكل زوجة من زوجاته اللائي عشن معه بعد الهجرة في المدينة المنورة؛ لارتباط ذلك بتاريخ إنشاء البيوت، وبتتابع حسب حاجة الرسول ﷺ. لذلك، فإن هذا الإطار التاريخي مهم لمعرفة تاريخ وفاة كل منهن؛ لارتباط ذلك باستخدام هذه البيوت سواء في عهده ﷺ أو بعد وفاته.

ومن المحاور المهمة أيضًا في دراسة هذه البيوت ما يتصل بتحديد مواضعها في جوار المسجد، وارتباط عمارتها بعمارة المسجد، سواء في عهد الرسول ﷺ، أو حتى بعد وفاته؛ حيث حكمت هذه البيوت اتجاهات توسيع المسجد في عهد الخليفة عمر والخليفة عثمان، إلى أن كانت توسعة الوليد التي أدخلت البيوت في المسجد، فهدمت، ولم يبقَ منها سوى قبر الرسول في بيت السيدة عائشة.

وتحديد مواضع البيوت فيه خلاف، فهناك من يرى أن البيوت كانت جميعها في الجهة الشرقية من المسجد، مجاورة لها، بل إن هناك بعض الأدلة والشواهد تؤكد اتصال بعضها اتصالاً مباشرًا بالمسجد من خلال أبواب شارعة فيه. وهذا التحديد تكاد تجمع عليه معظم الروايات، سواء التي عرضت عرضًا مباشرًا لتحديد الموضع، أو التي تضمنت أحداثًا تتعلق بهذه البيوت، وتومئ بطريقة غير مباشرة عن موضعها. ولكن هناك بعض الروايات والدراسات الضعيفة التي رأت غير ذلك، ورأت أن بعضها كان في الجهات الأخرى. وتحديد مواضع بيوت زوجات النبي ﷺ أمر مهم لدراسة المسجد معماريًا في إطار علاقة الجوار المباشرة، كما أنه مهم في إطار هدف بحثي يسعى إلى وضع تصور معماري لها يكمل التصور المعماري للمسجد في عهد الرسول ﷺ.

والمحور الثالث في دراسة بيوت زوجات النبي ﷺ يتصل بتخطيطها وما يشتمل عليه كل بيت من وحدات وعناصر معمارية، ومواد البناء التي استخدمت في إنشائها، ولهذا المحور أهميته بالنسبة للدراسات المعمارية، كما أن له أهميته في تحديد الرؤية المعمارية لرسول الله ﷺ، وهي الرؤية التي هدفت إلى البساطة في البناء، وتحقيق الخصوصية لكل زوجة من زوجاته، كما أن لهذا المحور أهميته في تحديد التصور المعماري لهذه البيوت في إطار التعريف بسيرة النبي ﷺ.

أولاً- الإطار التاريخي لبيوت أمهات المؤمنين رضي الله عنهن:

لفت المؤرخون الانتباه إلى أن بيوت زوجات النبي ﷺ لم تنشأ كلها مع إنشاء المسجد سنة ١هـ، ولكن تم إنشاؤها على مراحل حسب الحاجة إليها. فقد قال الحافظ الذهبي: «لم يبلغنا أنه ﷺ بنى تسعة أبيات حين بنى المسجد، ولا أحسبه فعل ذلك، إنما كان يريد بيتًا حينئذ لسودة أم المؤمنين، ثم لم يحتج إلى بيت آخر حتى بنى بعائشة في شوال سنة اثنتين، وكان ﷺ بناها في أوقات مختلفة، والله أعلم»[١].

سودة بنت زمعة:

تزوج الرسول ﷺ من السيدة سودة بنت زمعة بعد وفاة زوجته خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، وكان زواجه منها في مكة قبل الهجرة، وهاجرت إلى المدينة، وأقام لها الرسول ﷺ أول بيت بجوار مسجده، وتولت إدارة البيت النبوي حتى بنى رسول الله ﷺ بعائشة[٢]؛ حيث يذكر الطبري أن أبا جعفر قال: «ولا خلاف بين أهل العلم بسيرة رسول الله ﷺ أنه بنى بسودة قبل عائشة»[٣].

وعاشت سودة بعد وفاة الرسول ﷺ حتى لقيت ربها في آخر خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة ٢٣هـ[٤].

١- العمري: مسالك الأبصار، ج٨٩/١؛ ماهر: مساجد في السيرة، ص ٧٤. عن صحيح مسلم، الفضائل.

٢- الطبري: تاريخ الطبري، ج٢١١/٢.

٣- ابن كثير: البداية، ج١٣٢/٣- ١٣٣؛ عبد الحكيم (منصور): بيوت الرسول ﷺ حول المسجد النبوي، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ص ص ٢٣، ٢٤.

٤- الطبري: تاريخ الطبري، ج٢١١/٢. فقد ورد في المصادر أن عقد النكاح كان على عائشة سابقًا على عقده لسودة، لكن بنى رسول الله ﷺ بسودة بعد هجرتهما إلى المدينة قبل عائشة. الطبري: تاريخ الطبري، ص ص ٢١١- ٢١٢.

عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها:

بنى الرسول ﷺ بعائشة في شوال سنة ١هـ، وكان الرسول ﷺ– كما سبقت الإشارة– قد خطبها قبل الهجرة ببضعة عشر شهرًا، ولم يدخل بها إلا بعد الهجرة إلى المدينة، بعد أن أرسل زيد بن حارثة، فأتى بها مع بقية أهله من مكة. وبنى الرسول ﷺ لها بيتًا مجاورًا لبيت سودة[١]. وكان بيت السيدة عائشة ملاصقًا للجدار الشرقي للمسجد في القطاع الجنوبي، وكان يربط بينه وبين المسجد «باب»[٢]. ولما توفي رسول الله ﷺ دفن ببيتها، ولما توفي أبوها أبو بكر دفن أيضًا بجوار رسول الله ﷺ في ذات البيت، كما أن عمر رضي الله عنه دفن بجوارهما في ذات البيت. وظلت عائشة مقيمة في هذا البيت بعد بناء فاصل بين موضع القبور وبقية البيت، حتى توفيت سنة ٥٨هـ، ودفنت بالبقيع، رضي الله عنها[٣].

حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنها:

كانت متزوجة من الصحابي خنيس بن حذافة، الذي توفي بعد الهجرة بالمدينة المنورة، فترملت وهي شابة في العشرين، وحزن عليها أبوها لترملها، ورغب في تزويجها من عثمان، فعرضت عليه، فقال: سأنظر في أمري، فعرضها أبوها على أبي بكر، فصمت. فشكى عمر لرسول الله ﷺ فقال الرسول له: «يتزوج حفصة من هو خير من عثمان، ويتزوج عثمان من هو خير من حفصة»، وكان الذي هو خير من عثمان الرسول ﷺ الذي تزوجها، وتزوج عثمان من أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ، وكان ذلك سنة ٣هـ، وفرح عمر، وذهب لإخبار أبي بكر، وعلم منه أن رسول الله ﷺ كان قد أخبره برغبته في الزواج من حفصة، ولذلك

١– عبد الحكيم: بيوت زوجات النبي، ص ص ٢٢، ٢٥.

٢– سنعود للتوصيف المعماري لهذا البيت.

٣– الطبري: تاريخ الطبري، ج٢/٢١١، ٢١٢؛ ابن كثير: البداية، ج٨/٣٣؛ عبد الحكيم: بيوت زوجات النبي، ص ص ٢٥– ٢٧.

صمت عندما عرض عليه عمر أمر زواجها[1].

وأنشأ الرسول لحفصة بيتًا مجاورًا لبيت عائشة من الجهة الجنوبية في الجهة الشرقية من المسجد[2]. وتشير الروايات والدراسات أن بعضًا من هذا البيت أدخل في زيادة عثمان بن عفان سنة ٢٩هـ، بعد أن خصص لها دارًا بدلاً منها.

وجعل لها طريقًا إلى المسجد مثل ما كان لها. وهذه الروايات والدراسات تحدد إلى حد كبير موضع بيت حفصة بالجهة الجنوبية لكل من بيتي السيدة عائشة والسيدة سودة[3].

وتوفيت السيدة حفصة في سنة خمس وأربعين من الهجرة، ودفنت بالبقيع مع أمهات المؤمنين، رضي الله عنهن[4].

السيدة زينب بنت رضي الله عنها:

تزوجها الرسول ﷺ بعد وفاة زوجها عبد الله بن جحش، وكان زواجه لها في شهر رمضان سنة ٤هـ، وكان يقال لها أم المساكين؛ لكثرة صدقاتها عليهم وبرها لهم وإحسانها إليهم، ماتت في حياة الرسول ﷺ، وقيل: لم تلبث عنده إلا شهرين أو ثلاثة حتى توفيت رضي الله عنها[5]. وأنشأ لها الرسول ﷺ بيتًا يذكر أنه كان في الجهة الشرقية من حجرة السيدة فاطمة بنت محمد، فكانت حجرتها تطل على الطريق خارج المسجد من ناحية باب جبريل شمالاً، وغربًا حجرة السيدة فاطمة[6].

١- الطبري: تاريخ الطبري، ج٢/٢١٣.

٢- عبد الحكيم: بيوت زوجات النبي، ص ص ٢٢، ٢٨.

٣- ابن كثير: البداية، ج٨/٣٣؛ عبد الحكيم: بيوت زوجات النبي، ص ٢٩؛ وانظر شكل رقم ......

٤- ابن كثير: البداية، ج٨/٣٣؛ عبد الحكيم: بيوت زوجات النبي، ص ٣٠.

٥- ابن كثير: البداية، ج٤/٩٠.

٦- عبد الحكيم: بيوت زوجات النبي، ص ٣١.

السيدة أم سلمة هند بنت أبي أمية رضي الله عنها:

تزوجها الرسول ﷺ بعد وفاة زوجها أبي سلمة في شوال سنة ٤هـ[١]. وينقل ابن كثير تفاصيل هذا الزواج، فيذكر أن الإمام أحمد قال: حدثنا يونس، حدثنا ليث، يعني ابن سعد بن عبد الله بن أسامة ابن الهاد عن عمرو بن أبي عمرو عن المطلب عن أم سلمة قال: أتاني أبو سلمة من عند رسول الله ﷺ، فقال: لقد سمعت من رسول الله ﷺ قولاً سررت به، قال: «لا يصيب أحدًا من المسلمين مصيبة فيسترجع عند مصيبته، ثم يقول: اللهم أجرني إلى نفسي في مصيبتي، واخلف لي خيرًا منها إلا فعل به»، قالت أم سلمة: فحفظت ذلك منه، فلما توفي أبو سلمة فقلت: من أين لي خير من أبي سلمة؟ فلما انقضت عدتي استأذن عليَّ رسول الله ﷺ وأنا أدبغ إهابًا لي، فغسلت يدي من القرظ، وأذنت له، فوضعت له وسادة أدم حشوها ليف، فقعد عليها، فخطبني إلى نفسي، فلما فرغ من مقالته، قلت: يا رسول الله، ما بي أن تكون بك الرغبة، ولكني امرأة بي غيرة شديدة، فأخاف أن ترى مني شيئًا يعذبني الله به، وأنا امرأة قد دخلت في السن، وأنا ذات عيال، فقال: أما ما ذكرت من العيال، فإنما عيالك عيالي. فقالت: فقد سلمت لرسول الله ﷺ، فقالت أم سلمة: فقد أبدلني الله بأبي سلمة خيرًا منه رسول الله ﷺ. وقد رواه الترمذي والنسائي[٢].

ومن المهم الإشارة إلى أن الرسول ﷺ أسكنها في بيت زوجته التي توفيت قبل زواجه منها مباشرة، وهو بيت زينب بنت خزيمة[٣].

وقد أحدثت أم سلمة تعديلاً في بناء هذا البيت؛ حيث كانت حجرته من الجريد، فأعادت بناءها باللبن أثناء غزوه لدومة «فيحدثنا ابن أبي

١- يذكر الطبري أنه تزوجها سنة ثلاث، وهكذا يخالف كل الأحداث. الطبري: تاريخ الطبري، ج٣/٢١٣.

٢- ابن كثير: البداية، ج٤/٩١.

٣- ماهر: مساجد في السيرة، ص ٥٦؛ عبد الحكيم: بيوت زوجات النبي، ص ٣٢.

سلمة عن حجرة جدته فيقول: لما غزا الرسول ﷺ دومة، بنت أم سلمة بلبن حجرتها، فلما قدم نظر إلى اللبن، فقال: ما هذا البناء؟ فقالت: أردت أن أكف أبصار الناس، فقال ﷺ: يا أم سلمة، إن شر ما ذهب فيه مال المسلمين البنيان»[١].

وعاشت أم سلمة بعد وفاة النبي ﷺ حتى سنة تسع وخمسين، وكانت آخر أمهات المؤمنين وفاة، ودفنت بالبقيع[٢].

زينب بنت جحش رضي الله عنها:

اختلفت الروايات حول تاريخ زواجها برسول الله ﷺ، فهناك من يرى أنه تزوجها سنة خمس، وزاد بعضهم في ذي القعدة، وهناك من يرى أن زواجه بها كان سنة ثلاث، لكن الرأي الأول هو الأشهر[٣].

وقد ذكرت الأحاديث والروايات أن الله عز وجل أمر بزواجه ﷺ منها، وكانت تفاخر بذلك، فتقول لغيرها من زوجات الرسول ﷺ: «زوجكن أهليكن، وزوجني الله تعالى من فوق سبع سماوات». وقد وردت قصة زواجها في سورة الأحزاب، في قوله تعالى ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾[٤].

كانت زينب بنت جحش زوجة أسامة بن زيد مولى رسول الله، وقد زوجها له الرسول ﷺ، وهي ابنة عمه، فتزوجت بعد أن أبت في أول

١- ماهر: مساجد في السيرة، ص ٧٣، عن الإصابة، ج١/٥٧.

٢- ابن كثير: البداية، ج٨/١٢٤؛ عبد الحكيم: بيوت زوجات النبي، ص ٣٢.

٣- ابن كثير: البداية، ج٤/١٤٥.

٤- سورة الأحزاب، الآية (٣٧).

الأمر لكونها قرشية، وهو من الموالي، ولكن طاعة لأمر رسول الله تم الزواج، ولم يدم طويلاً، وجاء زيد يشكو زينب لرسول الله ﷺ، ويريد أن يطلقها، فيقول له: أمسك عليك زوجك. وانتهى الأمر بالطلاق ليبطل الله عز وجل عادة التبني التي كانت سائدة في الجاهلية، وتبنى في إطارها الرسول ﷺ زيدًا[1].

وبعد انقضاء العدة، تزوجها الرسول ﷺ وبنى لها بيتًا يلي بيت فاطمة رضي الله عنها، والذي كان بجوار بيت أم سلمة[2].

ومن المهم الإشارة إلى ما رواه ابن كثير في ذكر نزول الحجاب صبيحة عرسها من حديث البخاري: «حدثنا محمد بن عبد الله الرقاش، حدثنا معتمر بن سليمان سمعت أبي، حدثنا أبو مجاز عن أنس بن مالك، قال: لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش دعا القوم، فطعموا وجلسوا يتحدثون، فإذا هو يتهيأ للقيام فلم يقوموا، فلما رأى ذلك قام، فلما قام من قام وقعد ثلاثة نفر، وجاء النبي ﷺ ليدخل، فإذا القوم جلوس، ثم إنهم قاموا فانطلقوا، فجئت فأخبرت النبي ﷺ أنهم قد انطلقوا، فجاء حتى دخل، فذهبت أدخل، فألقي الحجاب بيني وبينه، فأنزل الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ ﴾ الآية[3].

وتتضمن الروايات التي تتحدث عن هذا الحدث إشارات مهمة إلى التكوين المعماري لبيت زينب، ومنها ما رواه أنس قال: «أعرس رسول الله ﷺ ببعض نسائه، فصنعت أم سليم حيسًا ثم خطته في تور فقالت: اذهب إلى رسول الله ﷺ وأخبره أن هذا منا له قليل، قال أنس: والناس يومئذ في جهد، فجئت به، فقلت: يا رسول الله، بعثت بهذا أم سليم إليك، وهي تقرئك السلام، وتقول: إن هذا منا قليل، فنظر إليه، ثم قال: ضعه في ناحية من البيت،

١- الطبري: تاريخ الطبري، ج٣/٢١٣؛ ابن كثير: البداية، ج٤/١٤٣.

٢- عبد الحكيم: بيوت زوجات النبي، ص ٣٥.

٣- ابن كثير: البداية، ج٤/١٤٧.

ثم قال: اذهب فادع فلانًا وفلانًا، فسمى رجالاً كثيرًا، قال: ومن لقيت من المسلمين، فدعوت من قال لي، ومن لقيت من المسلمين، فجئت والبيت والصفة والحجرة ملاء بالناس، فقلت: يا أبا عثمان، لمَ كانوا؟ قالوا: كانوا زهاء ثلثمائة. قال أنس: فقال رسول الله ﷺ: جئ، فَجئت به إليه فوضع يده عليه ودعا، وقال: ما شاء الله، ليتحلق عشرة عشرة ويسموا، وليأكل كل إنسان مما يليه، فجعلوا يسمعون ويأكلون حتى أكلوا كلهم، فقال لي رسول الله ﷺ: ارفعه، قال: فجئت فأخذت التور، فنظرت فيه فلا أدري أهو حين وضعته أكثر أم حين رفعته، قال: وتخلف رجال يتحدثون في بيت رسول الله ﷺ، وزوج رسول الله ﷺ مولية وجهها إلى الحائط، فأطالوا الحديث، فشقوا على رسول الله ﷺ، وكان أشد الناس حياءً، ولو علموا كان ذلك عليهم عزيزًا، فقام رسول الله ﷺ فسلم على حُجَره وعلى نسائه، فلما رأوه قد جاء ظنوا أنهم قد ثقلوا عليه، ابتدروا الباب فخرجوا، وجاء رسول الله ﷺ حتى أرخوا الستر، ودخل البيت، وأنا في الحجرة، فمكث رسول الله ﷺ في بيته يسيرًا، وأنزل الله القرآن فخرج وهو يقرأ الآية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾. قال أنس: فقرأهن عليَّ قبل الناس وأنا أحدث الناس بهن عهدًا. وقد رواه مسلم والترمذي والنسائي[1].

وهذا الحديث، بالإضافة إلى أنه يتحدث عن الحجاب، فإنه يوثق للوحدات المعمارية التي كانت ببيت زينب بنت جحش المتمثلة في البيت

١- ابن كثير: البداية، ج١٤٨/٤- ١٤٩.

والحجرة والصفة، كما أنه يشير إلى أن البيت كان يتسع لعشرة يتحلقون حول التور للأكل، وهو ما يشير ضمنًا إلى قياس عرض البيت الذي يتسع لحلقه مستديرة تضم عشرة أشخاص، كما أنه يشير إلى أن زوجته زينب كانت بذات البيت، ووجهها إلى حائط وهو ما يشير إلى عمق البيت الذي يتسع بجانب الحلقة التي تضم عشرة ليشمل الموضع الذي كانت تجلس به السيدة زينب مولية وجهها إلى حائطه[1].

وعاشت زينب بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بعد وفاة النبي، وتوفيت في خلافة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سنة عشرين من الهجرة، ودفنت بالبقيع، وقد بلغت من العمر ثلاثًا وخمسين سنة رضي الله عنها وأرضاها[2]، وكان زواجه بها سنة ٥هـ.

السيدة جويرية بنت الحارث رضي الله عنها:

هي جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار بن حبيب سيد قومه بني المصطلق، وقعت أسيرة في غزوة بني المصطلق، وكانت قبل رسول الله ﷺ عند مالك بن صفوان، ولم تلد له شيئًا، فكان صفيه رسول الله ﷺ يوم المريسيع، فأعتقها وتزوجها، وسألت رسول الله ﷺ عتق ما في يده من قومها فأعتقهم[3].

بنى لها الرسول ﷺ بيتًا بعد بيت السيدة زينب بنت جحش[4]. وقد أشار محمد بن إسحاق إلى أن حجرتها كانت آخر الحجرات[5]. وعاشت بعد وفاة رسول الله ﷺ حتى توفيت سنة ست وخمسين للهجرة، ودفنت

١- سنعود لذكر التفاصيل المعمارية للبيت في الدراسة المعمارية.

٢- ابن كثير: البداية، ج٧/١١٤؛ عبد الحكيم: بيوت زوجات النبي، ص ٣٧.

٣- الطبري: ج٢/٢١٣؛ ابن كثير: البداية، ج٤/١٥٩؛ عبد الحكيم: بيوت زوجات النبي، ص ٧-٨.

٤- عبد الحكيم (منصور): بيوت الرسول ﷺ حول المسجد النبوي، ص ٣٨.

٥- عبد الغني (محمد إلياس): بيوت الصحابة حول المسجد النبوي الشريف، ص ٣٢، عن كتاب المناسك.

في البقيع مع أمهات المؤمنين رضي الله عنهن أجمعين[1].

السيدة أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان صخر بن حرب رضي الله عنها:

أسلمت بمكة وهاجرت مع زوجها عبيد الله بن جحش إلى الحبشة، لكن زوجها ارتد في الحبشة، وحاول أن يفتنها في دينها، ولكنها صمدت وصبرت وفارقته. ولما علم رسول الله ﷺ أنها بالحبشة، وكان قد هاجر إلى المدينة أرسل إلى ملك الحبشة النجاشي كي يزوجها له. فكان صداقها أربعة آلاف درهم[2]، وهو أكثر صداق لزوجات النبي، وعادت من الحبشة إلى المدينة يوم فتح حصون خيبر سنة ٧هـ[3].

وبنى لها الرسول ﷺ بيتًا كان على الأرجح في الجهة الشرقية من المسجد في المكان الذي بجوار دكة الأغوات[4]. وعاشت بعد وفاة النبي ﷺ حتى توفيت سنة أربع وأربعين من الهجرة، ودفنت بالبقيع[5]. وهناك من يذكر أنه كانت لها دار أخرى ملكًا لها شمالي المسجد، دخلت في المسجد في توسعة الخليفة المهدي سنة ١٦٥هـ[6].

السيدة صفية بنت حيي رضي الله عنها:

هي بنت حيي بن أخطب زعيم اليهود، الذي هزمه الرسول ﷺ يوم خيبر، ووقعت صفية ابنته أسيرة، وكانت من نصيب رسول الله ﷺ، فخيرها بين أن يعتقها أو يتزوجها، فاختارت رسول الله ﷺ، فأسلمت وتزوجت في السنة السابعة من الهجرة[7].

١- عبد الحكيم: بيوت الرسول، ص ٣٩.

٢- يقول الطبري: إن مهرها أربعمائة دينار. الطبري: تاريخ الطبري، ج٢/٢١٣.

٣- عبد الحكيم: بيوت زوجات النبي، ص ٣٩.

٤- عبد الحكيم: بيوت زوجات النبي، ص ٣٤١.

٥- ابن كثير: البداية، ج٨/٣١.

٦- عبد الحكيم: بيوت زوجات النبي، ص ٤١.

٧- ابن كثير: البداية، ج٤/١٩٧.

وبنى لها الرسول ﷺ بيتًا في الجهة الشرقية من المسجد مع حجرات أمهات المؤمنين، وقد حدد أحد الباحثين موضعه في الجهة في الشمال الشرقي من المسجد بجوار حجرات جويرية وأم حبيبة رضي الله عنهن أجمعين.

عاشت بعد وفاة النبي ﷺ إلى أن توفيت سنة خمسين من الهجرة[١]. ودفنت بالبقيع، واشترى معاوية بيتها من أوليائها بمكة بمائة وألف وثمانين درهمًا، وموقعه بعد التوسعة قرب ما يعرف بدكة الأغوات[٢].

السيدة ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها:

هي ميمونة بنت الحارث بن خرن بن بجير بن الهزم بن رويبة بن عبد الله بن هلال، وتزوجت قبل الرسول ﷺ عمير بن عمرو، ولم تلد له شيئًا. تزوجها الرسول ﷺ بسرف[٣] في عمرة القضاء. وزوجها إياه العباس بن عبد المطلب، فتزوجها الرسول ﷺ وأصدقها أربعمائة درهم. وهي التي نزلت فيها الآية الكريمة ﴿ وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ ﴾[٤].

تزوجها الرسول ﷺ وهي محرم، وبنى بها وهو حلال، وهناك من يروي أنه تزوجها وبنى بها وهو حلال[٥].

وكان اسمها «برة» فسماها الرسول ﷺ ميمونة، وبنى لها بيتًا الجهة الشرقية من المسجد. وعاشت بعد رسول الله ﷺ حتى توفيت، وهناك اختلاف في تاريخ وفاتها، فهناك من يذكر أنها توفيت سنة ستين من

١- الطبري: تاريخ الطبري، ج٢/٢١٣. ويذكر الطبري أنها أسلمت سنة ست من الهجرة. عبد الحكيم: بيوت زوجات النبي، ص ٤٢- ٤٣.

٢- ابن كثير: البداية، ج٨/٥٠؛ عبد الحكيم: بيوت زوجات النبي، ص ٤٣.

٣- سرف: حارة بمكة. عبد الحكيم: بيوت زوجات النبي، ص ٤٤.

٤- سورة الأحزاب، من الآية (٥٠).

٥- الطبري: تاريخ الطبري، ج٢/٢١٤؛ ابن كثير: البداية، ج٤/٢٣٣- ٢٣٤؛ عبد الحكيم: بيوت زوجات النبي، ص ٤٤- ٤٥.

الهجرة، وهناك رأي يرى أنها توفيت سنة ثلاث وستين[١]. كما أن هناك رأي ثالث يقول إنها توفيت سنة إحدى وخمسين[٢]. وكانت قد أوصت قبل وفاتها أن تدفن بسرف، ونفذت وصيتها[٣].

مواضع بيوت زوجات النبي ﷺ:

نال تحديد مواضع بيوت زوجات النبي ﷺ اهتمام كثير من المصادر التاريخية والدراسات الآثارية الحديثة، وتداخلت عوامل كثيرة في عدم الوصول إلى تحديد واضح ودقيق لمواضع هذه البيوت، من أهمها أن الروايات وإن كانت تجمع إلى حد كبير على إنشائها في الجهة الشرقية من مسجد الرسول ﷺ، فإنها لم تحدد موضع كل منها تحديدًا دقيقًا، سواء من ناحية تحديد وجودها، وعلاقة التجاور بينها، وكذلك مواضعها بالنسبة للمسجد. ويبدو أن مشكلة اختلاف بعض الروايات في تحديد موضع بيوت النبي عن الرأي الغالب لهذه الروايات، تعود إلى أن الدور لم تكن مواضعها قاصرة على الجهة الشرقية، ولكن كان بعضها بحسب هذه الروايات في الجهة الشمالية والجهة الجنوبية، قد تكون راجعة إلى غموض وصف الجهات، فالجهة الشرقية على سبيل المثال لها امتدادان أحدهما جنوبي والآخر شمالي، وعندما يصف الواصف البيوت في هذه الجهة في إطار هذين الامتدادين يتجه الفهم إلى أن تحديد الاتجاه يشمل جهات الشمال والشرق والغرب من المسجد، كما أن من أسباب هذا التداخل في تحديد الاتجاه اتخاذ عنصر معماري كالمنبر أو القبلة[٤]. واستخدام كلمة في جهة المنبر أو خلف القبلة قد يبدو منه تعارض بالرغم من أن سياق الوصف يعني اتجاهًا واحدًا، وكلمة يلي التي تعني الجهة «المقابلة»، لذلك فإنه من المهم

١- ابن كثير: البداية، ج٤/٢٣٣.

٢- عبد الحكيم: بيوت زوجات النبي، ص ٤٥.

٣- ابن كثير: البداية، ج٤/٢٣٤؛ عبد الحكيم: بيوت زوجات النبي، ص ٤٥.

٤- السمهودي: وفاء الوفاء، ج١/٤٥٩- ٤٦٠؛ ماهر: مساجد في السيرة، ص ٥٦.

الإشارة إلى أن بعض زوجات النبي كان لهن دور في المدينة غير بيوتهن التي بناها لهن الرسول ﷺ بجوار المسجد بعد وفاة النبي ﷺ[1]. وقد رصدت المصادر هذه الحالات مما تسبب، مع تناقل الروايات، في حدوث خلط أو تداخل بينها.

وتعتبر رواية ابن النجار، رغم اختصارها، من أوضح الروايات في تحديد موضع بيوت زوجات النبي؛ حيث ذكر أنه «لما بنى رسول الله ﷺ مسجده بنى بيتين لزوجته عائشة وسودة رضي الله عنهما، على نعت بناء المسجد من لبن وجريد النخل، وكان لبيت عائشة مصراع واحد من عرعر أو ساج، ولما تزوج رسول الله ﷺ نساءه بنى لهن حجرًا، وهي تسعة أبيات، وهي ما بين بيت عائشة رضي الله عنها إلى الباب الذي يلي باب النبي»[2]. وكلمة «يلي» في إطار السياق كما فسرها السمهودي تعني الباب المقابل لباب النبي[3]. أي أن الباب الذي يعنيه هنا هو الباب الذي في الجدار الشرقي، وهذه الرواية بتحديدها عدد الأبواب «تسعة» وتحديد بدايتها ببيت عائشة، وتحديد بيتها بالباب الذي في طرف الجدار الشرقي تحديدًا واضحًا لمواضع البيوت، وهو التحديد الذي مالت إليه غالب الروايات[4]، كما رجحته الدراسة الميدانية في إطار ما بقي من آثار، وما ذكرته المصادر عن مراحل توسعات مسجد الرسول ﷺ[5].

وقد عرض السمهودي للروايات التي تحدد مواضع بيوت زوجات النبي، ورجح اتجاه معظمها إلى أن بيوت زوجات النبي كانت في الجهة الشرقية من المسجد، فيقول: «ويرجح ما قررناه ما رواه ابن الجوزي في شرف المصطفى

١- السمهودي: وفاء الوفا، ج١/٤٦٥.

٢- ابن النجار: أخبار مدينة رسول الله، ص ٧٣؛ ماهر: مساجد في السيرة، ص ٧٢- ٧٣.

٣- السمهودي: وفاء، ج١/٤٥٩.

٤- مصطفى: المدينة المنورة، ص ٥٧، شكل (٤٦، ٤٧، ٤٨). في الكتاب المشار إليه.

٥- عبد الحكيم: بيوت زوجات النبي، ص ص ٢٣- ٤٥. شكل (١١، ١٢).

بسند محمد بن عمر قال: سألت مالك بن أبي الرجال: أين كانت منازل أزواج النبي ﷺ، فأخبرني عن أبيه عن أمه أنها كانت كلها في الشق الأيسر، إذا قمت إلى الصلاة إلى وجه الإمام في وجه المنبر هذا أبعدها»[1].

وإذا كان الإجماع على أن بيوت زوجات النبي ﷺ كانت في الجهة الشرقية من مسجده ﷺ، فإن هناك تساؤلاً مهمًا يفرض نفسه، وهو هل كل البيوت كانت ملاصقة للجدار الشرقي، وكانت حجراتها تفتح أبوابها شارعة في المسجد، أم أن بعضها كان كذلك، وبعضها الآخر كان مجاورًا للبيوت الملاصقة للمسجد من الجهة الشرقية، خاصة وأن ما ورد من تحديد لمواضع بعض الدور يفترض التصور الثاني؟

الإجابة على هذا التساؤل تتطلب مناقشة عدة أمور، من أهمها:

إن الروايات التي تحدثت عن تحديد مواضع بيوت زوجات النبي يغلب عليها سمة التعميم لا التفصيل، كما أن هذا الحديث لا يضع في الاعتبار أحيانًا البعد الزمني لتتابع إنشاء الدور، الذي ارتبط بتواريخ زواج النبي ﷺ من زوجاته، والتي امتدت من سنة ١هـ إلى سنة ٧هـ. كذلك لا تضع كثيرًا من هذه الروايات في اعتبارها الموضع المتاح لإنشاء هذه الدور، وهو أمر مهم أيضًا. وبالرغم من ذلك فإن بعض المصادر المدققة ألمحت إلى بعض التفاصيل التي يمكن أن تساعد في الإجابة على التساؤل المثار.

قال الحافظ أبو عبد الله الذهبي: لم يبلغنا أنه ﷺ بنى تسعة أبيات حين بنى المسجد، ولا أحسبه فعل ذلك، إنما كان يريد بيتًا حينئذ لسودة أم المؤمنين، ثم لم يحتج إلى بيت آخر حتى بنى بعائشة في شوال سنة اثنتين، وكان ﷺ بناها في أوقات مختلفة، والله أعلم»[2]. وهذه الرواية توضح التتابع الزمني في الإنشاء.

١- السمهودي: وفاء الوفا، ج١/٤٥٩.

٢- العمري: مسالك، ج١/٨٩؛ ماهر: مساجد في السيرة، ص ٧٤.

وروى رزين عن عبد اللّه بن يزيد الهذلي قال: رأيت بيوت أزواج النبي ﷺ قرب المسجد وحوله، وكلما أحدث رسول اللّه ﷺ أهلاً نزل له حارثة عن منزله، حتى صارت منازله كلها لرسول اللّه ﷺ وأزواجه»[1]. وهذه الرواية بالإضافة إلى أنها توثق لتتابع إنشاء البيوت، فإنها تصدق على أن البيوت كانت في منازل حارثة، التي تقع في الجهة الشرقية من المسجد، وهو ما يعضد الرأي السائد بأن البيوت كلها في الجهة الشرقية من المسجد.

وهذه الرواية بالإضافة إلى أنها تشير إلى التتابع الزمني في الإنشاء، فإنها تشير إلى المواضع التي أنشئت عليها الدور، وأن هذه المواضع كانت قرب المسجد وحوله، بمعنى أن بعضها كان مجاورًا للمسجد، وبعضها كان قريبًا منه. كما أن هذه الرواية لها أهمية أخرى؛ حيث تشير إلى أن ملكية الأرض التي أنشئت عليها الدور كانت لحارثة، وأنه كلما احتاج رسول اللّه ﷺ لمساحة ينشئ عليها بيتًا جديدًا، كان حارثة ينزل له عنها من منازله، حتى صارت منازله كلها لرسول اللّه ﷺ وأزواجه[2]. ويشير السمهودي إلى أن كلمة «منازله» لا تعني أن الأرض كان بها بناء، ولكن الدلالة تنصب على المنزل أنها كانت أرضًا خالية من البناء، بدلالة بناء الرسول عليها بيوته[3]. ويشهد بذلك قوله: «وظاهره أنه كلما أحدث زوجة أحدث لها بناء حجرة، فيحتمل ما هنا أن حارثة كان ينزل عن مواضع المساكن، وكان ﷺ يبنيها»[4].

وقد وردت بعض الروايات المهمة التي تذكر تفاصيل معمارية ترتبط بالموضع الذي أنشئ فيه هذا البيت أو ذاك، كما أن بيت السيدة عائشة الذي

١- السمهودي: وفاء، ج١/٤٦٢.

٢- أحمد بن حنبل، مسند أحمد حنبل، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، ج٦/١٥١، ١٥٣.

٣- السمهودي: وفاء، ج١/٤٦٢؛ عبد الغني: بيوت الصحابة، ص ٦٩.

٤- السمهودي: وفاء، ج١/٤٦٢. للاستزادة عن المنازل، راجع: ابن منقذ (أسامة): المنازل والديار، تحقيق: مصطفى حجازي، دار سعاد الصباح، ص ص ٦- ٥٤؛ المعجم الوسيط، ج٢/٩٥١- ٩٥٢.

دفن فيه الرسول ﷺ ما زال موضعه محددًا تحديدًا واضحًا، وكذلك بيت السيدة فاطمة، ومن ثم يمكن أن نتخذ منهما مؤشرًا موضوعيًا لا خلاف عليه في تحديد ملامح مهمة عن مواضع الدور.

ومن الروايات المهمة التي تتعلق بالجوار المباشر بين البيوت والمسجد ما ذكره ابن النجار من أن بيوت زوجات النبي «كانت أبوابها شارعة في المسجد»[1]. كما أن بعض آي القرآن الكريم تشير إلى مجاورة حجرات بيوت النبي للمسجد، كما جاء في الآية الكريمة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[2]. ومنها الرواية التي ذكرها مالك الذي قال: «كان المسجد يضيق عن أهله، وحجر أزواج النبي ﷺ ليست من المسجد، ولكن أبوابها شارعة في المسجد»[3].

وهي روايات تشير إلى أن حجرات زوجات النبي كوحدات معمارية ضمن بيوت زوجاته كانت مجاورة للمسجد، وهذه الحجرات كانت بمثابة الوحدات المعمارية التي تتقدم البيوت التي تمثل الوحدات المعمارية المغلقة، التي تستخدم في الأغراض الحياتية غير الاستقبال؛ كالنوم والمعيشة. ويلاحظ أن لفظ «بيوت» في هذه الروايات كان يعني المبنى كله بوحداته وعناصره المعمارية كلها، وأن لفظ الحجرات بصيغة الجمع يعني الحجرات كلها، ويمكن أن يعني بعضها، فالجمع في العربية ثلاثة فأكثر، كما أن لفظ أبوابها ينطبق عليه ما ينطبق على لفظ الحجرات والبيوت.

وقد وردت روايات كثيرة تفصل بيت السيدة عائشة الذي دفن فيه رسول الله ﷺ بعد وفاته، كما دفن فيه معه صاحباه أبو بكر وعمر، وحوفظ على قبر النبي وصاحبيه، ومن ثم فإن بيت عائشة تحديدًا لا خلاف على موضعه،

١- ابن النجار: أخبار مدينة رسول الله، ص ٧٣.

٢- سورة الحجرات، الآية (٤).

٣- السمهودي: وفاء، ج١/ ٤٦٤.

ومجاورته للمسجد من الناحية الشرقية مباشرة. وهناك من الروايات ما يؤكد وجود باب يربط بينه وبين المسجد في الضلع الشرقي، وهو ما يعني أن الجدار الغربي لبيت السيدة عائشة هو ذاته الجدار الشرقي للمسجد، أي أنه كان جدارًا مشتركًا.

وبجانب الواقع المعماري لقبر الرسول ﷺ، يوجد من الروايات ما يؤكد هذا الجوار المباشر والارتباط المعماري من حيث اشتراك بيتها في البناء مع جدار المسجد الشرقي. ويذكر السمهودي ما يدلل على ذلك: قال ابن زبالة عقده ما قدمناه عنه، واحتجوا بأن رسول الله ﷺ كان يعتكف في المسجد في موضع مجلس بني عبد الرحمن بن عبد الحارث، وأن عائشة رضي الله عنها كانت ترجل رأسه، وهو معتكف في المسجد، وهي في بيتها»[1].

ويذكر ابن النجار قول عائشة رضي الله عنها: «كان رسول الله ﷺ إذا اعتكف يدني رأسه فأرجله، وكان لا يدخل البيت إلا لحاجة الإنسان»[2].

وفي حديث ابن حزم عن المحراب حديث أنس بن مالك: «أن المسلمين بينا هم في صلاة الفجر من يوم الاثنين، وأبو بكر يصلي بهم، لم يفجأهم إلا رسول الله ﷺ، قد كشف سجف حجرة عائشة، فنظر إليهم، وهم صفوف في الصلاة، ثم تبسم، فنكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف، وظن أن رسول الله ﷺ يريد أن يخرج إلى الصلاة، وهم المسلمون أن يفتتنوا في صلاتهم، فرحًا برسول الله ﷺ، فأشار إليهم رسول الله ﷺ بيده أن أتموا صلاتكم، ثم دخل الحجرة وأرخى الستر»[3].

وتقطع هذه الروايات، بالإضافة إلى الدراسة الحقلية لمراحل توسعة المسجد، أن بيت السيدة عائشة كان مجاورًا للمسجد من الجهة الشرقية،

١- السمهودي: وفاء، ج١/٣٥١.

٢- ابن النجار: أخبار مدينة رسول الله، ص ٧٤.

٣- عبد الرازق: أحكام المحراب، ص ٢٧؛ حديث صحيح البخاري، ٧٥٤٠.

وكان له باب يصل ما بينه وبين المسجد، أي أن بابه كان شارعًا في المسجد بلفظ الروايات.

بيت السيدة سودة رضي الله عنها:

لم ترد روايات مفصلة لموضع بيت السيدة سودة، ولكن هناك روايات ربطت بين موضعه وموضع بيت السيدة عائشة رضي الله عنها في إطار الحديث عن بيت السيدة عائشة، ومن هذه الروايات ما قال به ابن سعد الذي أشار إلى أن الرسول ﷺ بنى بجانب المسجد بيوتًا باللبن وسقفها بجذوع النخل والجريد، فلما فرغ من البناء بنى بعائشة في البيت الذي بابه شارع في المسجد، وجعل سودة بنت زمعة في البيت الآخر الذي يليه إلى الباب الذي يلي آل عثمان[1]. ويفهم من هذه الرواية أن الرسول ﷺ بنى بيتين أحدهما كان له باب شارع على المسجد جعل فيه السيدة عائشة، وجعل سودة في البيت الذي يلي بيت عائشة، أي في الجهة المقابلة من بيت السيدة عائشة، في إطار دلالة كلمة «يلي»، التي وردت بهذا المعنى في كثير من الروايات. ويؤكد ذلك ما ورد في الرواية أن البيت الذي خصص لعائشة كان له باب شارع في المسجد، ولم يرد ما يشير إلى ذلك بخصوص بيت سودة؛ لأن بيت سودة كان مجاورًا في الغالب لبيت السيدة عائشة من جهة الشرق، ويؤكد ذلك بقية الوصف الذي ورد فيه أن بيت السيدة عائشة يليه إلى الباب الذي يلي «آل عثمان».

وقد وردت رواية ثانية تشير إلى علاقة الجوار بين بيتي السيدة عائشة وسودة، فقد روي عن السيدة عائشة قولها: «وبنى رسول الله ﷺ في أحد البيوت التي جنبي»[2]. ولما كان بيت السيدة حفصة بجانب بيت عائشة من الجهة الجنوبية، وبيت السيدة فاطمة بجانبه من الجهة الشمالية،

١- ابن سعد (محمد بن منيع البصري): الطبقات الكبرى، بيروت، دار صادر، د.ت، ج١/ ٢٤٠.

٢- ابن سعد: الطبقات، ج٨/ ٦٣.

فإن الجانب الثالث هو الجانب الشرقي الذي كان به في الغالب بيت السيدة سودة[١].

بيت السيدة فاطمة رضي الله عنها:

بالإضافة إلى الواقع الحالي لعمارة المسجد، وتحديد الجهة الشمالية من قبر الرسول، تشير الروايات إلى تفاصيل مهمة من بيت السيدة فاطمة، الذي بناه الرسول ﷺ بجوار بيته ليبني على فاطمة فيه، وهو البيت الذي عاشت فيه فاطمة بجوار أبيها الرسول ﷺ، ويقال إنها دفنت فيه[٢].

أسند عن عمر بن علي بن عمر بن علي بن الحسين قال: كان بيت فاطمة في موضع الزور[٣]. فخرج النبي ﷺ، وكانت فيه كوة إلى بيت عائشة رضي الله عنها، فكان رسول الله ﷺ إذا قام إلى المخرج اطلع من الكوة إلى فاطمة فعلم خبرهم، وأن فاطمة رضي الله عنها قالت لعلي: إن ابنيَّ أمسيا عليلين، فلو نظرت لنا أدمًا نستصبح به فخرج إلى السوق، فاشترى لهم أدمًا، وجاء به إلى فاطمة فاستصبحت فدخلت عائشة المخرج في جوف الليل، فأبصرت المصباح عندهم، وذكرت كلامًا وقع بينهما، فلما أصبحوا سألت فاطمة النبي ﷺ أن يسد الكوة، فسدها ﷺ[٤].

وتعطي هذه الرواية مؤشرات معمارية مهمة تتمثل في أن بيت السيدة فاطمة كان بجوار بيت السيدة عائشة من الناحية الشمالية، كما تذكر أنه كان هناك مخرج بين البيتين، وأنه كان بجدار بيت السيدة فاطمة في الجدار الجنوبي للمخرج كوة يستطيع من يخرج إلى المخرج من بيت السيدة

١- سنعود لتحديد مواضع بيتي السيدة حفصة والسيدة فاطمة رضي الله عنهما. راجع ذلك. انظر: شكل رقم (١٢).

٢- السمهودي: وفاء، ج١/٤٦٩.

٣- الزور: هو الجدار المزور الذي بني في الجهة الشمالية من حجرة عائشة موضع قبر الرسول ﷺ في العصر الأموي أثناء توسعة الوليد، حتى لا يستقبل المصلون القبر. (السمهودي: وفاء، ج١/٤٦٦).

٤- السمهودي: وفاء، ج١/٤٦٦؛ البتانوني: الرحلة، ص ٢٥٠.

عائشة أن يرى منها، داخل البيت السيدة فاطمة، وأن هذه الكوة سدت بناءً على طلب السيدة فاطمة.

ويروي السمهودي رواية أخرى تتضمن مؤشرات معمارية عن بيت السيدة فاطمة، فيذكر أنه أسند يحيى بن عيسى بن عبد الله عن أبيه أن بيت فاطمة رضي الله عنها في الزور الذي في القبر بينه وبين بيت النبي (بيت السيدة عائشة) «خوخة»[1]. والخوخة باب صغير أو كوة في البيت تؤدي إليه الضوء[2]. وفي ضوء هذا السياق يمكن أن تكون الخوخة هي الكوة التي سبقت الإشارة إليها.

ويستطرد السمهودي فيذكر: أسند يحيى عقب ذلك حديث عائشة: «قلت: يا رسول الله، ندخل كنيفك، فلا نرى شيئًا من الأذى، فقال: الأرض تبلع ما يخرج من الأنبياء من الأذى، فلا يرى منه شيئًا». فأشعر صنيع يحيى أن المراد من المخرج موضع الكنيف، وأفهم من ذلك أن المخرج المذكور كان خلف حجرة عائشة رضي الله عنها بينها وبين بيت فاطمة رضي الله عنها، وذلك يقتضي أن يكون محله الزور، أي المزور شبه المثلث في بناء عمر بن عبد العزيز جهة الشام، ويشهد بذلك ما أسنده يحيى عن مسلم عن ابن أبي مريم أن عرض بيت فاطمة بنت رسول الله ﷺ إلى الأسطوانة التي خلف الأسطوانة المواجهة للزور، قال: وكان بابه في المربعة إلى القبر»[3].

ويؤكد ابن النجار على هذا التحديد لموضع بيت فاطمة وجواره لبيت النبي ﷺ في الجهة الشمالية منه، فقد ذكر أن «قبر فاطمة فرض الله عليها في بيتها الذي أدخله عمر بن عبد العزيز في المسجد، قلت: وبيتها

١- السمهودي: وفاء، ج١/٤٦٦. والخوخة فتحة بين صغيرة.

٢- المعجم الوسيط، ج١/٢٧٠.

٣- السمهودي: وفاء، ج١/٤٦٦؛ البتانوني، الرحلة، ص ٢٥٠.

اليوم مقصورة، وفيه محراب، وهو خلف حجرة النبي عليه السلام»[1].

ويعلق السمهودي على ما ذكره ابن النجار بقوله «والمقصورة» دائرة عليه اليوم وعلى حجرة عائشة كما سيأتي بيانه، والمحراب الذي ذكره خلف حجرة عائشة من جهة الزور بينه وبين موضع تخترق الناس، ولا يدوسونه بأرجلهم، يذكر أنه موضع قبر فاطمة رضي الله عنها. كان فيما بين مربعه القبر وأسطوانة التهجد، وأنه عرس بها إلى الأسطوان المواجه للزور، وهو الأسطوان الذي في صف المربعة اللاصق بالجدار إلى الداخل من الحجرة الشريفة، وكان بعضها في حائطها الشامي، وأدخل كله في العمارة التي أدركناها، وخلفه الأسطوان التي انقضى عندها زوايا الزور، وخلفها الأسطوان الذي إلى المحراب المذكور، فيصدق عليها ما تقدم في كلام ابن شبة نقلاً عن رواية أبي غسان أن عليًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عرس بفاطمة إلى الأسطوان الذي خلف الأسطوان المواجه للزور»[2].

وتعرض الروايات التي تتحدث عن سد أبواب الدور التي كانت شارعة في مسجد رسول الله ﷺ أن من بين هذه الأبواب باب علي، وعندما وجه الرسول ﷺ إلى سد هذه الأبواب فيما عدا باب أبي بكر، أشارت الروايات إلى أن باب علي لم يسد، وأشار السمهودي إلى الآراء التي عرضت لهذه القضية، وذكر أن دار أبي بكر كان لها بابان باب يفتح على المسجد، وآخر يفتح إلى خارج الدار وخارج المسجد، وبالرغم من ذلك كان توجيه الرسول بعدم سد باب دار أبي بكر لخصوصية أبي بكر لدى رسول الله، ولكنه رأى سد أي باب آخر لأي دار لأي صحابي آخر كانت تفتح على المسجد، وكان

١- ابن النجار: أخبار مدينة رسول الله، ص ٧٦؛ الحربي: المناسك، ص ٣٦٠، الذي ذكر رواية مسندة تشير إلى دفن فاطمة ببيتها، قال: أخبرني يحيى بن حسن قال: حدثني إسحاق بن موسى بن جعفر بن محمد قال: حدثني علي بن موسى عن أبيه عن جده أن عليًا دفن فاطمة ببيت رسول الله (يقصد البيت الذي بناه الرسول لها) عليهم السلام في المسجد عن زور القبر. الحربي: المناسك، ص ٣٦٠.

٢- السمهودي، وفاء، ج١/٤٦٩.

لها باب آخر غير الباب الشارع في المسجد. ورأى بعض الرواة أن باب علي لم يسد؛ لأنه لم يكن لبيته باب آخر غير الباب الشارع في المسجد، ومن ثم كان أحيانًا يمر بالمسجد وهو جنب[1]. فعن ابن عباس قال: أمر رسول الله ﷺ بأبواب المسجد فسدت إلا باب علي، وفي رواية: «أمر بسد أبواب المسجد غير باب علي، فكان يدخل المسجد وهو جنب، وليس له طريق غيره». أخرجهما أحمد والنسائي ورجالهما ثقات. وعن جابر بن سمرة قال: «أمر رسول الله ﷺ بسد الأبواب كلها غير باب علي، فربما مر فيه وهو جنب». أخرجه الطبراني[2].

وعن ابن عمر، كنا نقول في زمن رسول الله ﷺ: رسول الله ﷺ خير الناس، ثم أبو بكر، ثم عمر، ولقد أعطي علي بن أبي طالب ثلاث خصال، لأن يكون لي واحدة منهن أحب إليَّ من حمر النعم: زوجه رسول الله ﷺ ابنته، وولدت له، وسد الأبواب إلا بابه في المسجد، وأعطى له الراية يوم خيبر». أخرجه أحمد، وإسناده حسن[3].

وأخرج النسائي من طريق العلاء بن عرار قال: قلت لابن عمر: أخبرني عن علي وعثمان، فذكر الحديث، وفيه، أما علي فلا تسأل عنه أحدًا، وانظر إلى منزله من رسول الله ﷺ قد سد أبوابنا في المسجد وأقر بابه، ورجاله رجال الصحيح إلا العلاء، وقد وثقه يحيى بن معين وغيره. ويستطرد السمهودي في ذكر أحاديث أخرى عدة تؤكد هذا الدليل المعماري الذي يفيد أن باب بيت علي الذي هو بيت فاطمة لم يسد. وهو ما يعني أن بيت فاطمة الذي سكن فيه علي وبناه الرسول ﷺ لفاطمة وعلي عندما زوجهما، وأعرس فيه علي على فاطمة، كان ملاصقًا للمسجد من الجهة الشرقية

١- السمهودي، وفاء، ج١/ ٤٧١- ٤٨٠.

٢- السمهودي، وفاء، ج١/ ٤٧٥.

٣- السمهودي، وفاء، ج١/ ٤٧٥- ٤٧٦.

في الجهة الشمالية من بيت السيدة عائشة، ولم يكن له باب آخر غير هذا الباب الشارع في المسجد. وكان في جداره الجنوبي كوة تفتح على المخرج ببيت السيدة عائشة، وسدها الرسول ﷺ بعد أن طلبت فاطمة رضي الله عنها ذلك.

بيت السيدة حفصة رضي الله عنها:

وردت بعض الروايات المهمة التي تحدد موضع بيت السيدة حفصة، ومن هذه الروايات ما ذكر السمهودي في كتابه الوفا بما يجب لحضرة المصطفى: «أن بيت حفصة رضي الله عنها كان ملاصقًا لبيت عائشة رضي الله عنها من جهة القبلة، قال ابن زبالة: وكان بينه وبين منزل عائشة رضي الله عنها طريق، وكانا يتهاديان الكلام وهما في منزلهما من قرب ما بينهما، فأدخل بعض ما يحاذي المسجد في جهة القبلة في زيادة عمر رضي الله عنه، ثم بعضه أيضًا في زيادة عثمان رضي الله عنه لما زاد في المسجد، فقال: نعطيك أوسع من بيتك، ونجعل لك طريقًا من طريقك، فأعطوها دار عبد الله بن عمر، وكانت مربدًا، وجعلوا لها طريقًا إلى المسجد، فلما كتب الوليد لعمر بن عبد العزيز وهو عامله على المدينة فابتاع باقيها للمسجد»[1].

ويفصل الحربي ما حدث لهذه الدار في العصر الأموي في توسعة الوليد (٨٨- ٩١هـ)؛ حيث يذكر: «حدثني صالح بن محمد أبو توبة قال: حدثني سليمان بن عبد العزيز عن أبيه عن جعفر بن وردان عن أبيه، قال: «لما أمر الوليد عمر بن عبد العزيز ببناء المسجد، اشترى ما حوله من المشرق والمغرب والشام، فلما خلص إلى القبلة، قال له عبد الله بن عبد الله بن عمر: لا تبيع حفصة، وقد كان النبي ﷺ يسكن في منزلها. فقال

١- السمهودي (علي بن عبد الله الحسني السمهودي): الوفاء بما يجب لحضرة المصطفى، تحقيق: حمد الجابر، ضمن كتاب رسائل في تاريخ المدينة المنورة، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، ١٩٧٢م، ص ١٥٨- ١٥٩.

له عمر: ما أنا بتارككم حتى أدخلها في المسجد، فلما كثر الكلام قال عمر: أنا أجعل لكم خوخة في المسجد، وبابا تدخلون منه وأعطيكم دار الرقيق، وزاد في المسجد مما يلي المشرق وما بين المربعة إلى مواضع الجدار اليوم». وهذه عشر أساطين مرهفات الرؤوس في الرحبة إلى الشام، وفي الغرب أسطوانتان مما يلي دار مروان، وأدخل فيه حجر أزواج النبي ﷺ، فما قدم الوليد حاجًا جعل يطوف في المسجد حتى نظر إلى خوخة عمر، فسأل عنها عمر، فأخبره، فقال: ضاهيتم لمكان الخؤولة ...»[1].

وتشير روايتا السمهودي والحربي إشارات معمارية واضحة تعني أن بيت حفصة كان مجاورًا لبيت عائشة من الجهة الجنوبية، وكان بينهما طريق ضيق؛ حيث «كانا يتهاديان الكلام وهما في منزلهما من قرب ما بينهما».

كما تشير الروايتان إلى أن زيادة عمر بن الخطاب جهة القبلة، وكذلك زيادة عثمان بن عفان في توسعتهما في اتجاه الجنوب احتاجت إلى مساحة من هذا البيت، وتم ذلك وهو ما يعني أن هذا البيت كانت بعض مساحته في جنوب الطرف الشرقي من الجدار الجنوبي للمسجد في عهد رسول الله ﷺ. وفي توسعة الوليد أدخلت بعض المساجد بعد أن اشترى بقية البيت عمر بن عبد العزيز الذي اشترى بقية المساجد لإدخالها في عمارة المسجد، بشرط أن يعطى لهما بديل، وأن يجعل للموضع البديل خوخة في المسجد، وهو ما تم تنفيذه بدلالة تعليق الوليد على تلك الخوخة عندما زار المسجد. شكل (١٢).

وذكرت الروايات المتعلقة بالأذان أن مؤذن الرسول بلالاً كان يؤذن من أعلى سطح دار حفصة المجاورة للمسجد، فقد ذكر ابن النجار رواية نافع بن عمر قال: قال بلال كان يؤذن على منارة في دار حفصة بنت عمر، التي كانت تلي المسجد، قال: وكان يرقى على أقتاب فيها، وكانت خارجة

١- الحربي: المناسك، ص ٣٦٧.

من مسجد رسول الله ﷺ، ولم تكن فيه وليست فيه اليوم»[١]. وهذه الرواية تؤكد الإشارات المعمارية التي وردت فيما سبق من روايات وبخاصة ما جاء فيها عن الموضع، وصف بأنه «كان يلي المسجد، و«خارج عنه»، وهو بالفعل كذلك.

بيت السيدة أم سلمة رضي الله عنها:

بيت السيدة أم سلمة الذي كان يخص أم المؤمنين زينب بنت خزيمة (ت ٤هـ)، فلما توفيت وتزوج الرسول ﷺ أم سلمة نقلها إلى بيت زينب، وتشير الدراسات الحديثة إلى أن هذا البيت كان في الجانب الشرقي للمسجد، وكان قريبًا منه، ولا أدل على ذلك من حديث توبة بن أبي لبابة (ت ٣٥- ٤٠هـ تقريبًا) أن بيت أم سلمة كان قريبًا جدًا من المسجد، فقد نزلت توبة أبي لبابة على النبي ﷺ وهو في بيت أم سلمة: قالت: قلت: ألا أبشره يا رسول الله؟ قال: بلى، إن شئت» فقامت على باب حجرتها، وذلك قبل أن يضرب عليهن الحجاب، فقالت: يا أبا لبابة، أبشر»[٢]. وهناك من يحدد موضعه شرقي بيت السيدة فاطمة[٣]. كما وردت في إحدى الروايات التي تتحدث عن دار صفية ما يشير إلى قرب موضع دار أم سلمة من المسجد. فقد ورد أن السيدة صفية جاءت إلى المسجد لتزور النبي ﷺ وهو معتكف في المسجد في العشر الأواخر من رمضان، ثم كادت تنقلب، فقام معها رسول الله ﷺ حتى إذا بلغ قريبًا من باب المسجد عند باب أم سلمة زوج النبي ﷺ مر بهما رجلان ...»[٤]. وهو ما يعني أن باب أم سلمة

١- ابن النجار: أخبار مدينة رسول الله، ص ٨٦.

٢- جميل (محمد بن فارس): بيوت النبي ﷺ وحجراتها وصفة معيشته فيها بيت عائشة أنموذجًا، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات، الرياض، ٢٠١٠م، ص ١٧. عن ابن هشام، ج١/ ٢٦١، ٢٦٢؛ ابن سعد: الطبقات، ج٨/ ٩٤- ٩٨.

٣- عبد الحكيم: بيوت زوجات النبي، ص ٢٣. شكل (١١).

٤- السمهودي: وفاء، ج١/ ٤٦٠.

كان قريبًا من باب المسجد في الجدار الشرقي، وكان الذاهب إلى بيت صفية خارجًا من المسجد يمر ببيت أم سلمة.

بيت السيدة صفية بنت حيي رضي الله عنها:

ذكر السمهودي حديثًا مهمًا يشير إلى أن بيت السيدة صفية بنت حيي لم يكن مجاورًا للمسجد مباشرة، ولكنه كان بعيدًا إلى حد ما عن المسجد. فقد روى البخاري في صحيحه حديث «كان رسول الله ﷺ في المسجد وعنده أزواجه فرجعن، فقال لصفية بن حيي: لا تعجلي حتى أنصرف معك، وكان بيتها في دار أسامة، فخرج النبي ﷺ معها .. الحديث». وفي رواية له عن صفية قالت: كان رسول الله ﷺ معتكفًا، فأتيته أزوره ليلاً، فحدثته ثم قمت، فقام معي يقلبني، وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد، فمر رجلان من الأنصار ... الحديث».

وفي رواية أنها جاءت رسول الله ﷺ تزوره، وهو معتكف في المسجد في العشر الأواخر من رمضان، ثم قامت تنقلب، فقام معها رسول الله ﷺ، حتى إذا بلغ قريبًا من باب المسجد عند باب أم سلمة زوج النبي ﷺ، مر بهما رجلان من الأنصار، الحديث». ويعلق السمهودي على الرواية فيقول: «وهو يقتضي أن صفية لم يكن مسكنها في الحجر المحيطة بالمسجد»[1].

ولم يتعرض ابن شيبة لاتخاذ أسامة دارًا، وذكر أن أباه اتخذ دارين إحداهما دخلت المسجد لما زيد فيه، ولعلها المرادة والله أعلم.

وهذا الحديث الذي رواه البخاري يتضمن إشارة مهمة، أولها تتعلق ببيت السيدة صفية، والتي يتضح من السياق أنها لم تكن مجاورة للمسجد قريبة منه، ولذلك خرج النبي ﷺ معها ليصرفها. ولكنها لم تكن بعيدة؛ حيث يشير تعليق السمهودي أن هذه الدار أدخلت في

١- السمهودي، ج١/٤٦١.

زيادة المسجد، والمقصود بالزيادة هنا التوسعة الأموية.

وقد وردت رواية عن دار صفية تتضمن إشارة لدار عثمان بن عفان، بل مجاورة لها، وهذه الرواية تتلخص في أنه عندما حوصر عثمان، وقطع عنه الماء، وضعت صفية خشبة بين منزلها ومنزل عثمان تنقل عليه الماء والطعام[١]. ومعلوم أن دار عثمان تقع في الجهة الشرقية من المسجد النبوي، مقابل باب جبريل[٢]. وتحدد دراسة أخرى أن عثمان كان له داران متصلتان ببعضهما بجوار المسجد من الجهة الشرقية أمام باب جبريل، ومن داره وأنه كان بين داره ودار أبي بكر الصديق خمسة أذرع، وجنوبها دار أبي أيوب الأنصاري، وقد انقسمت دار عثمان عبر القرون إلى أقسام حتى تم إدخالها في التوسعة السعودية، وكلتا الدارين دخل في المسجد بعد التوسعة الأخيرة في الجهة الشرقية[٣]. شكل (١٢، ١٣).

بيت السيدة زينب بنت جحش رضي الله عنها:

لم ترد روايات في المصادر التي بين أيدينا تتضمن معلومات واضحة عن موقع بيت زينب بنت جحش (ت ٢٠هـ). لكن رواية المحدثين على وليمة زواجها تكاد تكون هي الرواية المهمة، التي تتعلق بهذا البيت، فقد روى أنس بن مالك، «لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش أطعمنا عليها الخبز واللحم، حتى امتد النهار، وخرج الناس، وبقي رهط يتحدثون في البيت، وخرج رسول الله ﷺ .... يتتبع حجر نسائه ليسلم عليهن ...»[٤].

واستنبط بعض الباحثين من هذه الرواية قرب بيت السيدة زينب بنت جحش من بقية بيوت زوجات النبي ﷺ. وإذا وضعنا في إطار هذا التصور

١- ابن سعد: الطبقات، ج٨/١٢٥.

٢- جميل: بيوت النبي، ص ١٧.

٣- عبد الحكيم: بيوت زوجات النبي، ص ٧٥.

٤- ابن سعد: الطبقات، ج٨/١٠٥.

ما ثبت من مواضع لبيت حفصة، والسيدة عائشة، وبيت السيدة فاطمة، وبيت السيدة سودة، ووضعنا أيضًا في التصور الترتيب الزمني لإنشاء البيوت وتجاورها في الجانب الشرقي للمسجد، يمكن تصور مواضع بقية البيوت في اتجاه الشمال؛ مما يعني أن بيوت زينب بنت جحش وأم حبيبة وصفية وميمونة بنت الحارث لم تكن لها أبواب شارعة في المسجد، ولا يتوفر بين أيدينا ما يؤكد ذلك من روايات سوى أن التوسعات التالية لمسجد الرسول ﷺ في عهد عمر وعثمان كانت في اتجاه الشمال والغرب والجنوب، ولم تكن في اتجاه الشرق؛ حيث كانت بيوت زوجات النبي، كما أن التوسعة الأموية ضمت مساحات هذه البيوت، وإدخالها في هذه التوسعة، وهو ما يعني أن هذه البيوت كانت بحذاء الضلع الشرقي لمسجد الرسول، وامتداد هذا الضلع شمالاً، وأن امتداد هذه البيوت شرقًا لم يكن ليزيد عن امتداد التوسعات الأموية تجاه الشرق، وهو ما يرجح ما جاء في هذه الدراسة. انظر شكل (١١، ١٢).



الفصل الخامس

تخطيط بيوت زوجات النبي ﷺ

تخطيط بيوت زوجات النبي ﷺ:

تتضمن بعض الروايات إشارات معمارية مهمة تتعلق بالوحدات المعمارية التي يتكون منها كل بيت من بيوت زوجات النبي. ومن هذه الروايات ما ذكره السهيلي الذي نقل عن الحسن البصري أنه قال: كنت أدخل بيوت رسول الله ﷺ وأنا غلام، وأنال السقف بيدي، وكان لكل بيت حجرة، وكانت حجرة من أكسية من خشب وعرر»[١]. ويتضح من هذه الرواية أن البيت يشتمل على وحدتين أساسيتين هما «البيت» و«الحجرة».

وقد وردت الإشارة إلى كلا اللفظين أو المصطلحين في القرآن الكريم، في قوله تعالى ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾[٢]. وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾[٣]. وهاتان الآيتان تختصان بنساء النبي، وهو ما يعني ضمناً أن البيوت المشار إليها بيوت أزواج النبي، وإن كان معنى الآية ينسحب على كل النساء، ومن هذه الآيات تلك التي تشير إلى ما حدث في بيت من بيوت النبي من استمرار بعض الصحابة فيه بعد أن أكلوا طعامهم في احتفاله ﷺ بالزواج من زينب بنت جحش، فقال تعالى موجهًا المؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ ۖ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ

١- السمهودي، وفاء، ج١/٤٦٣.

٢- سورة الأحزاب، الآية (٣٣).

٣- سورة الأحزاب، الآية (٣٤).

مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾[1]. وهذه الآيات تبين أن لفظ «البيت» يطلق بصفة عامة على مسكن النبي، كما يطلق تخصيصًا على الوحدة المعمارية الرئيسة فيه.

ووردت أيضًا في القرآن الكريم في سورة الحجرات الآية الكريمة التي نزلت في حادثة وفد بني تميم، ذلك الوفد الذي قدم المدينة في السنة التاسعة من الهجرة؛ حيث دخلوا المسجد، ونادوا رسول الله ﷺ من وراء حجراته، أن اخرج إلينا يا محمد، فآذى ذلك رسول الله ﷺ من صياحهم[2]. فأنزل الله تعالى في ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾[3].

ولفظ «الحجرات» في هذه الآية جمع للمفردة «حجرة»، وهي تلك الوحدة المعمارية التي تكرر وجودها في بيوت النبي كوحدة تتقدم الوحدة الرئيسة في هذه البيوت، حتى لا يكون الدخول مباشرة إليها. وهذه الآية حاولت بعض الدراسات إثارة كثير من الأسئلة حولها، وبالتحديد كلمة «الحجرات»، ومنها لماذا كان الجمع حجرات، ولم يكن المفرد «حجرة»؟ وهل كان النداء موجهًا من وراء حجرة بذاتها أم أنه كان من وراء كل الحجرات؟ وهل نادوا من وراء حجرة حجرة، أم أنهم تفرقوا على الحجرات؟ بل إن أحد الأسئلة افترض نوم الرسول في الحجرة وليس في البيت، وتساءل: لماذا ذلك وإن بناء الحجرة مكشوف إذا ما قورن ببناء «البيت» الوحدة الرئيسة المعدة للنوم؟ وهذه الأسئلة وغيرها يرد عليها معرفة تخطيط البيوت التي كانت مجاورة للمسجد في هذه الفترة، وتحديدًا التي كانت مجاورة مباشرة

١- سورة الأحزاب، الآية (٥٣).

٢- الزمخشري (محمود بن عمر): الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، مكتبة البابي الحلبي، مصر، ١٩٦٦م، ج٥٨٨/٣.

٣- سورة الحجرات، الآية (٤).

للجدار الشرقي للمسجد دون غيرها من البيوت التي كانت قريبة من المسجد مجاورة للبيوت الملاصقة للجدار الشرقي للمسجد، التي كانت بالفعل مجاورة للمسجد. ويزيد عدد هذه البيوت عن ثلاثة، وبالتالي جاء النص القرآني بصيغة الجمع «حجرات»، وهي الوحدات التي ينطبق عليها الوصف «من وراء الحجرات»، وليس وراء البيوت؛ لأن الوحدة المسماة «بيوت» كانت هي الوحدات الداخلية بعد الحجرات جهة الشرق، ويعتبر بيت السيدة عائشة أنموذجًا لذلك[1].

وهكذا تمثل النصوص القرآنية المتعلقة بلفظ «بيت» و«حجرة» الأساس الذي تنطلق منه التعريفات الدقيقة للفظي «حجرة» و«بيت». وبالرغم من ذلك فإن قراءة نصوص الروايات التي عرضت للبيوت التي بناها الرسول ﷺ لزوجاته تستخدم اللفظين أحيانًا كمرادفين، وأحيانًا دون تفريق بين الوحدة الرئيسة وهي البيت والوحدات الثانوية الأخرى كالحجرة. لكن مراجعة نصوص الروايات في إطار اعتبار الترتيب الزمني والإسناد والنقل أو الصياغة الحرة من المؤلف وفق ثقافة عصره، تكشف بسهولة عن الفروق بين لفظ البيت ولفظ الحجرة وعلاقة كل منهما بالآخر.

فقد ورد في الحديث أن عائشة قالت: «لما ثقل رسول الله ﷺ، واشتد وجعه، استأذن أزواجه أن يمرض في بيتي، وأذن له ...»[2]. وفي حديث آخر عن عائشة رضي الله عنها: «توفي النبي في بيتي وفي يومي، وبين سحري ونحري»[3]. وورد أن أبا بكر لما سمع نبأ الفاجعة، أي وفاة النبي ﷺ أقبل ودخل على رسول الله ﷺ في بيت عائشة، ورسول الله ﷺ عليه برد حبرة»[4]. كما ورد عن عائشة رضي الله عنها: «كان رسول الله ﷺ إذا

١- راجع، جميل: بيوت النبي، ص ص ٣٣- ٤٤.

٢- البخاري، الصحيح، حديث (٤٤٤٢)، جميل: بيوت النبي، ص ٤٣.

٣- البخاري: الصحيح، حديث (٤٤٥٠)، جميل: بيوت النبي، ص ٤٣.

٤- ابن هشام: سيرة ابن هشام، ج٤/٣١٣؛ جميل: بيوت النبي، ص ٤٣.

اعتكف يدني إلى رأسه فأرجله، وكان لا يدخل البيت إلا لحاجة الإنسان»[١].
وأسند يحيى عن عيسى بن عبد الله عن أبيه أن بيت فاطمة رضي الله عنها الذي في القبر بينه وبين النبي ﷺ خوخة[٢]، وفي رواية عن عائشة قالت: «صلى رسول الله ﷺ في بيته وهو جالس، فصلى وراءه قوم قيامًا، فأشار إليهم أن اجلسوا»[٣]. وفي رواية لأم الفضل بنت الحارث قالت: «صلى بنا رسول الله ﷺ في بيته المغرب، فقرأ المرسلات، ما صلى بعدها حتى قبض»[٤]. وقد وردت رواية عن أم سلمة «تذكر أن النبي ﷺ كان في بيتها، فأتته فاطمة ببرمة فيها خزيرة فدخل عليه بها، فقال ﷺ: ادعي زوجك وابنيك، قالت: فجاء علي والحسن والحسين- رضوان الله عليهم- فدخلوا عليه فجلسوا يأكلون من تلك الخزيرة، وهو على منامة له على دكان، تحته كساء خيبري، قالت: وأنا بالحجرة أصلي، فأنزل الله عليه السلام: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾. فأخذ النبي ﷺ فضل الكساء فغشاهم، ثم أخذ بيده فألوى بهما إلى السماء، ثم قال: هؤلاء أهل بيتي وخاصتي، فأذهب عنهم الرجس أهل البيت، وطهرهم تطهيرا، قالت: فأدخلت رأسي إلى البيت، وقلت: وأنا معكم يا رسول الله، فقال: إنك إلى خير، إنك إلى خير»[٥].

وهذه الروايات تشير إلى البيت بالمعنى الكلي الذي يشمل جميع الوحدات، وإلى البيت بالمعنى المحدد الذي يمثل الوحدة الرئيسة التي تستخدم للنوم، وبعض أغراض المعيشة التي تستوجب الخصوصية والسترة.

١- ابن النجار: أخبار مدينة رسول الله، ص ٧٤.

٢- السمهودي: وفاء، ج١/٤٦٦.

٣- البخاري: الصحيح، حديث (٦٨٨)، جميل: بيوت النبي، ص ٣٩.

٤- النسائي (أحمد بن شعيب): سنن النسائي بشرح السيوطي، وحاشية السندي، دار البشائر، ١٩٨٨م، ج١٦٨/٢؛ جميل: بيوت النبي، ص ٣٩.

٥- ابن منقذ (أسامة): المنازل والديار، ص ٣٦٧.

وقد وردت بعض الروايات التي تضمنت لفظ البيت ولفظ الحجرة، وتوضح هذه الروايات الفارق بينهما، وأن كل منهما وحدة معمارية قائمة بذاتها، وأن الحجرة بمثابة وحدة ثانوية، تتقدم «البيت» ممثلاً في الوحدة الرئيسة.

جاء عن البخاري عن داود بن قيس أنه قال: رأيت الحجرات من جريد النخل، مغشى من الخارج بمسوح الشعر، وأظن عرضي البيت من الحجرة إلى باب البيت نحو من ستة إلى سبعة أذرع، وأحزر البيت الداخل عشرة أذرع ...»[١]. وفي رواية لعمران بن أنس عن بيوت النبي جاء فيها: «كان منها أربعة أبيات بلبن لها حجر من جريد، وكانت خمسة أبيات من جريد مطينة لا حجر لها ...»[٢]. وذكر الواقدي بسنده عن عبد الله بن يزيد الهذلي أنه قال: «رأيت بيوت أزواج النبي حين هدمها عمر بن عبد العزيز أيام ولايته على المدينة من قبل الوليد بن عبد الملك، كانت بيوتًا باللبن، ولها حجر من جريد مطرور بالطين عددت تسعة أبيات بحجرها، وهي ما بين بيت عائشة رضي الله عنها إلى الباب الذي يلي باب النبي، ورأيت بيت أم سلمة وحجرتها من لبن»[٣].

وتتضمن بعض الروايات إشارات معمارية تختص بالحجرة فقط كوحدة من وحدات البيت بالمعنى الشامل، بما يؤكد أن لفظ بيت له دلالته المعمارية العامة والخاصة التي تختلف عن دلالة لفظ حجرة، الذي يعني وحدة ثانوية، فالبيت بالمعنى الشامل أي العلاقة بين البيت والحجرة علاقة شمول.

فقد جاء في رواية لأحد أهل المدينة قوله: «رأيت حجر النبي ﷺ قبل أن

١- ابن حجر: تهذيب التهذيب، تحقيق: خليل مأمون شيحا وجماعة، بيروت: دار المعرفة، ١٩٩٦م، ج٢/١٢٢؛ جميل: بيوت النبي، ص ٣٦.

٢- ابن سعد: الطبقات، ج١/٥٠؛ جميل: بيوت النبي، ص ٢١.

٣- ابن سعد: الطبقات، ج١/٤٩٩؛ جميل: بيوت النبي، ص ٢٠.

تهدم بجرائد النخل ملبسة الأنطاع»[1]. في رواية مشابهة قوله: «رأيت حجر أزواج النبي وعليها المسوح يعني متاع العرب»[2]. وفي رواية عن عمران بن أبي قال: أدركت حجر أزواج رسول الله ﷺ من جريد النخل على أبوابها المسوح من شعر أسود»[3].

وكانت عائشة رضي الله عنها تنظر الحبشة من خلال باب حجرتها وهم يلعبون في المسجد في إحدى المناسبات، ورسول الله ﷺ يسترها بردائه[4]. ورأى بعض الصحابة رسول الله ﷺ وهو يصلي طائفة من الليل في حجرته فأخذوا يصلون بصلاته[5]. وهذان الحديثان للبخاري يتعلقان بحجرة بيت النبي التي كانت تتصل بالمسجد بفتحة باب تمكن من بالحجرة أو من بالمسجد من رؤية كل منهما الآخر.

ويحدثنا ابن أم سلمة رضي الله عنها عن حجرة بيتها فيقول: لما غزا الرسول ﷺ دومة بنت أم سلمة بلبن حجرتها (كانت مثل الحجرات الأخرى من جريد مطرور بالطين)، فلما قدم نظر إلى اللبن، فقال: ما هذا البناء؟ فقالت: أردت أن أكف أنظار الناس، فقال ﷺ: يا أم سلمة، إن شر ما ذهبت فيه مال المسلمين البنيان». وهذا الحديث يشير ضمنًا إلى أن هيئة بناء الحجرة بالجريد كان في إطار اقتصادي، فبنيت بالمواد التي تكفل ذلك، ولما غيرت أم سلمة بيتها باللبن كان تعليق رسول الله ﷺ الذي يفيد ذلك.

ويذكر ابن النجار رواية مهمة تأتي في هذا الإطار، الذي يفرق ما بين الدلالة المعمارية للبيت والدلالة المعمارية للحجرة، فيقول: أخبرنا

١- ابن سعد: الطبقات، ج١/٥٠٠؛ جميل: بيوت النبي، ص ٢٢.

٢- ابن سعد: الطبقات، ج١/٤٩٩؛ جميل: بيوت النبي، ص ٢١.

٣- البخاري: الصحيح، حديث (٤٥٤)، جميل: بيوت النبي، ص ٣٦.

٤- البخاري،: الصحيح، حديث (٧٦٩)؛ ابن حجر: فتح الباري، ج٢/٢٧٢- ٢٧٣ حديث (٧٢٩).

٥- جميل: بيوت النبي، ص ٣٦.

صالح بن أبي الحسن الخزيمي، أنبأنا محمد بن عبد الباقي الأنصاري، أخبرنا أبو الحسن بن معروف، أخبرنا الحارث بن أبي أسامة، حدثنا محمد بن سعد، أخبرنا أبو عبد الله بن يزيد الهذلي، قال: رأيت بيوت أزواج النبي ﷺ، ولها حجر من جريد، ورأيت بيت أم سلمة وحجرتها من لبن، فسألت ابنها، فقال: لما غزا رسول الله ﷺ دومة، بنت أم سلمة بلبن حجرتها ..»[١].

وورد ببعض المصادر روايات مسندة مهمة تتعلق بالتصنيف المعماري لبيوت زوجات النبي، من المهم الإشارة إليها؛ لأنها توضح أيضًا الفروق المعمارية بين لفظ «البيت» و«الحجرة»، ومن هذه الروايات ما قاله عمران بن أنس: «كان معها أربعة أبيات بلبن، لها حجر من جريد، وكانت خمسة أبيات من جريد مطينة لها حجر لها»[٢].

ويذكر السمهودي في حديثه عن التوسعات المعمارية التي حدثت للمسجد في العصر الأموي أن «الظاهر أن ما ترك في المسجد من الحجرة كان من مرافقها كالدهليز للباب، وأن ما بني عليه من ذلك هو صفة بيت عائشة رضي الله عنها التي وقع الدفن فيه»[٣].

وإذا كانت الفروق المعمارية بين البيت والحجرة، والعلاقة بينهما كوحدات من البيت بالمعنى الشامل واضحة هذا الوضوح، فإن هناك من المؤرخين ما استخدم لفظ الحجرات أو الحجر بالدلالة الشاملة للفظ «بيت». وكان هذا السبب فيما حدث من غموض لدى بعض المؤرخين والباحثين في العصور المتأخرة[٤] عن القرون الإسلامية الأولى التي تداولت مصادرها

١- ابن النجار: أخبار المدينة، ص ٧٤؛ السمهودي: وفاء، ج١/٤٦١.

٢- ابن النجار: أخبار المدينة، ص ٧٣.

٣- السمهودي: وفاء، ج١/٩٢.

٤- ابن النجار: أخبار المدينة، ص ٧٣.

الروايات المسندة الواضحة، ومن هؤلاء ابن النجار، الذي رغم أنه استخدم اللفظين في بعض الروايات المسندة بالدلالة الدقيقة، إلا أنه عندما صاغ روايته تداخلت لديه الدلالات، فال: «لما تزوج رسول الله ﷺ بنى لهن حجرًا وهي تسعة أبيات، وهي ما بين بيت عائشة رضي الله عنها إلى الباب الذي يلي باب النبي ...». وما ذكره ابن كثير بصياغة أن الرسول ﷺ بنى حول مسجده حجرًا لتكون مساكن له ولأهله، وكانت مساكن قصيرة البناء، قريبة الفناء، قال الحسن بن أبي الحسن البصري، وكان غلامًا مع أم خيرة مولاة أم سلمة: لقد كنت أنال أطول سقف في حجر النبي ﷺ بيدي، قلت: إلا أنه كان الحسن البصري ضخامًا طوالاً رحمه الله[1].

ويبدو أن ابن كثير يدقق في رواية الحسن البصري التي تعني سقف الحجرات، الذي كان منخفضًا عن سقف البيت- كما ستوضح الدراسة المعمارية- وسحب لفظ الحجرات على البيت كله.

الملامح الرئيسة لتصميم بيوت زوجات النبي ﷺ:

أشارت الروايات إلى بعض الملامح المعمارية الرئيسة لبيوت زوجات النبي، فقد قال معاذ: فلما فرغ عطاء الخراساني من حديثه، قال عمر بن أنس: كان فيها أربعة أبيات بلبن لها حجر من جريد، وكان خمسة أبيات من جريد مطينة لا حجر لها، على أبوابها مسوح الشعر، ذرعت الساتر فوجدته ثلاثة أذرع في ذراع»[2].

وذكر ابن النجار الرواية ذاتها[3].

ومن هذه الرواية يتضح ما يلي:

١- ابن كثير: البداية، ج٢/٢٢٠.

٢- السمهودي: وفاء، ج١/٤٦١.

٣- ابن النجار: أخبار مدينة رسول الله، ص ٧٣- ٧٤.

١. أن أربعة بيوت كان يشتمل كل منها على وحدتين معماريتين مهمتين، هما «البيت» و«الحجرة».

٢. أن خمسة بيوت كان يشتمل كل منها على الوحدة الرئيسة فقط، وهي «البيت».

٣. أن البيوت الأربعة ذات البيت والحجرة بنيت من اللبن، أما الحجرة فقد أنشئت من الجريد المطرور بالطين.

٤. أن أبواب الحجر كان يسترها مسوح الشعر.

٥. أن قياس فتحة باب الحجرة كان ارتفاعه ثلاثة أذرع (١,٣٨٦ متر)، واتساع الفتح ذراع (٤٦,٢سم).

وقد سبقت الإشارة إلى إحدى الروايات التي تذكر أن البيوت التسعة كان لها جميعًا حجرات. ووردت روايات أخرى تضيف بعض التفاصيل عن عناصر معمارية أخرى، فقد ورد أن بيت السيدة عائشة كان له باب من خشب العرر أو الساج[١]. وهذا الباب غير ذلك الباب الذي يفتح على المسجد؛ حيث إنه كان في الجدار الشمالي من البيت بينما الباب الشارع في المسجد يوجد في الجدار الغربي منه[٢].

٦. أن بعض البيوت كانت بينها عناصر اتصال وحركة. أسند يحيى بن عيسى بن عبد الله عن أبيه أن بيت فاطمة رضي الله عنها في الزور الذي في القبر بينه وبين بيت النبي ﷺ «خوخة»[٣]. وقد وردت رواية ابن النجار تؤكد وجود هذا الاتصال، فقد ذكر أن «بيت فاطمة بنت رسول

١- ابن زُبالة (محمد بن الحسن): أخبار المدينة، جمع ودراسة عبد العزيز بن سلامة، مركز بحوث دراسات المدينة المنورة، المدينة، ١٤٢٤هـ، ص ٩٣- ٩٤؛ ابن النجار: أخبار مدينة رسول الله، ص ٧٣؛ جميل: بيوت النبي، ص ٣٥.

٢- ابن سعد: الطبقات، ج١٨٩/٢؛ جميل: بيوت النبي ﷺ، ص ٣٥.

٣- ابن النجار: أخبار مدينة رسول الله، ص ٩٤.

الله ﷺ وعلى آله، فقد كان خلف بيت النبي، وكان رسول الله ﷺ يأتي بابها كل صباح، فيأخذ بعضادتيه، ويقول: الصلاة الصلاة» ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[1]. وهناك رواية أكثر تفصيلاً تذكر أن بيت فاطمة خلف بيت النبي ﷺ على يسار المصلي إلى الكعبة، وكان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل إلى المخرج اطلع منه يعلم خبرهم، وكان يأتي بابها كل صباح فيأخذ بعضادتيه ويقول: الصلاة الصلاة، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا»[2].

وهناك رواية أخرى أوردها السمهودي توضح كيفية الاتصال بين بيت السيدة عائشة وبيت السيدة فاطمة بنت رسول الله ﷺ، فقد ذكر أنه «أسند عن عمر بن علي بن عمر بن علي بن الحسين قال: كان بيت فاطمة في موضع الزور، فخرج النبي ﷺ، وكان فيه كوة إلى بيت عائشة رضي الله عنها، فكان رسول الله ﷺ إذا قام إلى المخرج اطلع من الكوة إلى فاطمة فعلم خبرهم، وأن فاطمة رضي الله عنها قالت لعلي: إن ابني أمسيا عليلين، فلو نظرت لنا أدمًا نستصبح به، فخرج إلى السوق، فاشترى لهم أدمًا، وجاء به إلى فاطمة، فاستصبحت، فدخلت عائشة المخرج في جوف الليل، فأبصرت المصباح عندهم، وذكر كلامًا وقع بينهما، فلما أصبحوا سألت فاطمة النبي ﷺ أن يسد الكوة، فسدها ﷺ.

وبالربط بين هذه والرواية السابقة يتضح أنه كان يفصل بين بيت السيدة عائشة والسيدة فاطمة «مخرج»، وأنه كان في الجدار الجنوبي لبيت السيدة فاطمة كوة تطل على هذا المخرج. ويبدو أن هذا المخرج كان عبارة عن

١- ابن النجار: أخبار مدينة رسول الله، ص ٩٤. والباب المذكور هو الذي يفتح على المسجد.

٢- السمهودي: وفاء، ج٢/٤٦٧؛ ماهر: مساجد في السيرة، ص ٤٧.

ممر ضيق يفصل بين الدارين يفتح عليه بيت السيدة عائشة بباب، وكان يخرج إلى المخرج رسول الله ﷺ ليطلع على أخبار فاطمة من الكوة، فطلبت السيدة فاطمة من النبي أن يسدها.

وهكذا يتضح أن بناء بيت السيدة فاطمة الذي هو لاصق لبيت السيدة عائشة من ناحية تاريخ الإنشاء عندما وضع تصميمه كانت هناك رغبة في وجود اتصال مباشر بينه وبين بيت السيدة عائشة (بيت النبي)، ولذلك كانت الكوة التي بالجدار الجنوبي لبيت فاطمة مطلة على المخرج، ولكن هذه الكوة سدت في مرحلة لاحقة بناءً على طلب السيدة فاطمة من أبيها بسدها محبة في استقلال كل بيت عن الآخر[1].

وتكررت فكرة وجود مخرج أو ممر بين البيوت؛ حيث ثبت – كما سبقت الإشارة– وجود طريق يفصل بيت السيدة حفصة عن بيت السيدة عائشة[2]. وهذا يعني أن التخطيط المعماري لبيوت زوجات النبي ارتبط بالطرق التي تطل عليها في البيوت التي لها أبواب غير تلك الأبواب الشارعة في المسجد، وأيضًا البيوت التي لم يكن لها أبواب شارعة في المسجد.

وبالنسبة إلى بيت السيدة عائشة، فقد ورد في الروايات تفاصيل معمارية أخرى مهمة تتعلق بوظيفة الوحدتين الأساسيتين وهما «البيت» و«الحجرة»، وبعض المرافق الأخرى. وهذه التفاصيل تضيف معرفة بتصميم بيوت زوجات النبي. كما أن هذا البيت، وفي إطار ما ورد عنه من معلومات، يمكن اعتباره نموذجًا لعمارة بيوت زوجات النبي.

١– البتانوني: الرحلة الحجازية، ص ٢٥٠.

٢– السمهودي: الوفا بما يجب لحضرة المصطفى، ص ١٥٨.

أولاً- مساحة بيت السيدة عائشة:

وردت بعض الروايات المهمة التي تشير إلى قياسات بيت السيدة عائشة، الذي دفن فيه رسول الله ﷺ وصاحباه أبو بكر وعمر. فقد جاء عن البخاري عن داوود بن قيس أنه قال: رأيت الحجرات من جريد النخل، مغشى من خارج بمسوح الشعر، وأظن عرض البيت من الحجرة إلى باب البيت نحو من ست إلى سبعة أذرع (٢,٧٧٢- ٣,٢٥٤ متر)[١]. وأحرز البيت الداخل عشر أذرع (٤,٦٢ متر)، وأظن سمكه ما بين الثمان والسبع أذرع نحو (٣,٧٢٨، ٣,٢٦٢متر)، ووقفت عند باب عائشة، فإذا هو مستقبل الغرب»[٢].

وقد ذكر السمهودي بيانات مهمة عن قياسات قام بعملها بنفسه للحجرة الشريفة، فقال: «ذرعت الحجرة الشريفة من داخلها بجريدة طويلة، فكان ذرع مقدمها الذي يلي القبلة من المغرب والمشرق عشر أذرع وثلثي ذراع (٤,٧٧٤ متر)، وذرع مؤخرها مما يلي الشام أحد عشر ذراعًا وثلثي ذراع (٥,٣٩ متر)، وذرع عرضها من القبلة إلى الشام في كل من جانبيها الغربي والشرقي سبع أذرع ونصف وثمن (٣,٥٢١ متر)، وهي قريبة من الذرع الذي ذكره ابن شبة ...»[٣].

ومراجعة وصف القياس ومقدار قياس الأضلاع في إطار المقارنة يتضح منها أن القياس الذي ورد في البخاري لا يختص بالبيت كله، وحدة «البيت» ووحدة «الحجرة»، وأن وصفه اقتصر على ذكر عرض الحجرة، وأن القياس التالي يختص بالضلع الممتد من الشرق إلى الغرب لوحدة البيت، الوحدة الداخلية الرئيسة.

١- قدم الباحث محمد بن جميل الفارسي في دراسته لهذه القياسات بـ ٤٥ سم، لكن قياس الذراع الشرعي هو ما اعتبرته هذه الدراسة. جميل: بيوت النبي، ص ٤١.

٢- ابن حجر: تهذيب التهذيب، ج٢/١٢٢؛ جميل: بيوت النبي، ص ٣٦.

٣- السمهودي: خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى، تحقيق: علي عمر، القاهرة: مكتبة الثقافة العلمية، ٢٠٠٦م، ج١/٣٢٧؛ بيوت النبي، ص ٤١.

أما رواية السمهودي، فمن الواضح أنها تختص بأضلاع «البيت» الداخلي الوحدة الرئيسة التي دفن بها رسول الله ﷺ، وقياسه للضلع الممتد من الشمال إلى الجنوب مقارب للقياس الذي ذكره البخاري. وهذا التقارب يجعل من الممكن الوصول إلى القياس التقريبي لكل وحدة مع اعتبار ما ورد في رواية البخاري من ذكر قياسين للضلع الواحد حسب تعبيره فيما بين ست إلى سبع أذرع، وهو أمر يجعل من المنطق أن يمكن أخذ متوسط هذا القياس للوصول إلى قياس تقريبي من خلال الروايتين.

فالمساحة الكلية للأضلاع بالجمع بين الروايتين بعد أخذ المتوسط في القياسات التي بها اختلاف – كما سبقت الإشارة- يكون على النحو التالي: طول كل من الضلعين الشرقي والغربي في المتوسط ٤,٦٢ متر وطول كل من الضلعين الشمالي والجنوبي في المتوسط ٦,٥٣٤ متر. أما القياسات التفصيلية لكل وحدة فهي على النحو التالي: الضلع الشرقي والغربي للبيت يبلغ في المتوسط ٣,٥٢١ متر. أما طول الضلعين الشمالي ٤,٦٢ متر والجنوبي ٥,٣٩ متر. أما الحجرة فطول ضلعها الجنوبي من الشرق إلى الغرب ٥,٣٩ متر، ومتوسط ضلعيها الشمالي والجنوبي ٣,٠١٣ متر. وامتداد الضلعين الشرقي والغربي بهذا الطول المحدد للضلعين الشرقي والغربي يحدد نقطتي نهايتهما ،ووصلهما يحدد طول الضلع الشمالي للحجرة.

وإذا كانت كل من روايتي البخاري والسمهودي تذكر قياسات محددة، فإنه من المهم الإشارة إلى رواية دالة لابن زبالة جاء فيها وصف عام لبيت السيدة عائشة، فقد ذكر بسنده عن محمد بن هلال وعن غير واحد من أهل العلم: «أن بيت رسول الله ﷺ الذي فيه قبره، وأنه مربع مبني بحجارة سود، وقصة الذي يلي القبلة منه أطول، والشرقي والغربي سواء، والشامي أنقصها، وباب البيت مما يلي الشام، وهو مسدود بحجارة وقصة»[1].

١- ابن زبالة، أخبار المدينة، ص ٩٥؛ جميل: بيوت النبي ﷺ، ص ٣٨.

وهذا الوصف يشير تحديدًا إلى وحدة «البيت» بيت السيدة عائشة الذي دفن فيه رسول الله ﷺ. وهي الوحدة التي ذكر قياساتها السمهودي، وبمراجعة قياسات السمهودي مع وصف ابن زبالة لأطوال أضلاع البيت دون تحديد قياس، يتضح مدى التقارب بينهما، وهو أمر يصدق القياسات التي حددتها رواية السمهودي للبيت ذاته. ومن الأمور المهمة التي وردت في هذه الرواية تحديد موضع «الباب» في هذه الوحدة، وأنه كان في اتجاه الشمال، وأنه سد بحجارة سوداء وقصة. وبناء جدران البيت بالحجارة السوداء والقصة يشير إلى بناء لاحق، وفي الغالب فإن هذا البناء كان في العصر الأموي. وهو في الغالب بناء كان يحيط بالبيت المبني باللبن الذي سد الباب الذي في جداره الشمالي بالحجر في إطار ما حدث من بناء مضاف في العصر الأموي[1].

وبعد تحديد المساحة وتحديد أطوالها، من المهم أن نشير إلى وحدات البيت وعناصره المعمارية التي وردت في الروايات إشارات معمارية تتعلق بها لاستكمال التصور المعماري للبيت، وبخاصة عناصر الاتصال التي تربط بينه وبين ما جاوره من منشآت؛ كالمسجد في الجهة الغربية، أو بيت السيدة فاطمة في الجهة الشمالية، أو ما جاور البيت من الجهة الشمالية من ممر فاصل بينه وبين بيت السيدة حفصة.

ومن الثابت أن لبيت السيدة عائشة باباً في الجانب الغربي يربط بينه وبين المسجد. وقد ورد من الروايات ما يؤكد وجود هذا الباب. فقد كانت عائشة تنظر الحبشة في خلال باب حجرتها، وهم يلعبون في المسجد في إحدى المناسبات، ورسول الله ﷺ يستردها بردائه[2]. كما سبقت الإشارة إلى رواية إمامة أبي بكر للمصلين فجر يوم الاثنين الذي توفي فيه، ووقوف

١- العمري: مسالك، ص ٦٧.

٢- البخاري: الصحيح، حديث (٤٥٤)؛ جميل: بيوت النبي، ص ٣٦.

النبي في باب حجرة بيته حيث شاهد المصلين، فاعتقد أبو بكر والمصلين أنه أتى لإقامة الصلاة، لكنه ﷺ أمر أبا بكر باستكمال الصلاة إمامًا للمصلين[1]. كذلك ورد في رواية ترجيل السيدة عائشة لشعر رسول الله ﷺ أو غسل رأسه أثناء اعتكافه بالمسجد وهي حائض، فأدخل رأسه من باب الحجرة، وبقي جسمه في حيز المسجد[2]. كذلك وردت رواية رابعة تؤكد وجود هذا الباب وهي الرواية التي تتصل بسؤال المسلمين لما قبض رسول الله ﷺ عندما قالوا: «كيف نصلي عليه؟ قالوا: ادخلوا من هذا الباب أرسالاً فصلوا عليه واخرجوا من الباب الآخر»[3]. وهذه الرواية الأخيرة تشير إلى الباب الآخر الذي في البيت، والذي سهل حركة مرور المصلين للصلاة على النبي، فقد كانت الحركة في اتجاه واحد.

وفي ضوء هذه الروايات يتضح أن الضلع الغربي لبيت السيدة عائشة كان به باب يصل ما بين المسجد وبين الحجرة أول الوحدات المعمارية، والتي كانت مجاورة للمسجد من الجهة الشرقية. وفتحة الباب المذكورة لم تكن فيما يبدو ذات اتساع كبير فقد وردت في رواية عمران التي ورد فيها أنه أدرك «حجرات الرسول كان منها أربعة أبيات، لها حجر من جريد، وكانت خمسة أبيات من جريد مطينة لا حجر لها، على أبوابها مسوح الشعر، وذرعت الستر فوجدته ثلاثة أذرع في ذراع»[4] (١٣٨,٦ × ٤٦,٢ سم).

ويؤدي هذا الباب الذي في الجدار الغربي إلى الحجرة، وكانت الحجرة إنشائيًا مختلفة عن البيت، فقد أنشئت بالجريد المطرور بالطين،

١- النسائي (أحمد بن سعيد): سنن النسائي بشرح السيوطي، حاشية السندي، تحقيق: عبد الفتاح أبو عدة، بيروت: المكتبة العصرية، ٢٠٠٠م، ج١/١٩٣؛ جميل: بيوت النبي، ص ٣٥.

٢- البخاري، الصحيح، حديث (٦٨٠)؛ جميل: بيوت النبي، ص ٣٥.

٣- ابن سعد: الطبقات، ج٢/٢٨٩.

٤- ابن سعد: الطبقات، ج١/٤٩٩؛ السهيلي، ج٢/٣٣٩؛ ابن النجار، المسالك، ص ٧٤؛ ماهر: مساجد في السيرة، ص ٧٣؛ جميل: بيوت النبي، ص ٣٣؛ جميل: بيوت النبي، ص ٢٢.

كما يلاحظ أن جدرانها لم تكن بذات ارتفاع البيت، وكانت الحجرات كلها في البيوت التي تشتمل على حجرات بهذه الهيئة من البناء، ولم يحدث عليها تعديل سوى ما أحدثته أم سلمة التي غيرت البناء من الجريد إلى بناء باللبن حتى تكف أبصار الناس[١].

وهناك من استدل على ذلك برواية البخاري التي ذكر فيها أن بعض الصحابة زاروا رسول الله ﷺ وهو يصلي في طائفة من الليل في حجرته، فأخذوا يصلون بصلاته[٢]. ولكن هذا الاستدلال يحتاج إلى مراجعة، فمهما كانت جدران الحجرات قصيرة، فلن يكون ارتفاعها أقل من مستوى قامة الإنسان، وإلا صارت الحجرات المتصلة بالمسجد معرضة للكشف. ولكن يمكن قبول متابعة المصلين في المسجد للرسول وهو يصلي في حجرة بيته من خلال فتحة الباب التي تربط بين المسجد والحجرة، وهذه المتابعة تشترط أن يكون الستر الذي عليها مرفوعًا. كما يشترط أن يكون المصلون في مواضع بالمسجد ليست أمام أو بحذاء موضع صلاة النبي في حجرته، ولكن إلى الخلف قليلاً حتى يمكنهم المتابعة.

وتشير رواية ابن كثير إلى مستوى ارتفاع سقف الحجرات، فقد ذكر أنه بنى الرسول ﷺ حول مسجده حجرًا لتكون مساكن له ولأهله، وكانت مساكن قصيرة البناء. يروي ابن كثير عن الحسن بن أبي الحسن البصري، وكان غلامًا مع أمه خيرة مولاة أم سلمة «لقد كنت أنال أطول سقف في حجر النبي ﷺ بيدي»[٣]. وقد ذكر العمري ذات الرواية، ولكن بصيغة مختلفة، حيث قال: «قال الحسن بن أبي الحسن، كنت أدخل بيوت النبي ﷺ وأنا غلام مراهق، فأنال السقف بيدي، وكان لكل بيت حجرة،

١- ابن سعد: الطبقات، ج١/٢٩٩؛ جميل: بيوت النبي، ص ٣٦.

٢- جميل: بيوت النبي، ص ٣٦.

٣- ابن كثير: البداية، ج٢/٢٢٠.

وكانت حجرته عليه السلام أكسية من شعر مربوطة إلى خشب عرعر»[١]. وهي الرواية التي ذكرها السمهودي أيضًا بنصها[٢].

ويلاحظ أن الروايات السابقة، بالإضافة إلى أنها تؤشر إلى مستوى ارتفاع سقف الحجرات، فإنها تشير أيضًا إلى أن هذا السقف كان من شعر مربوط إلى خشب العرعر، أي أنه سقف خفيف، وليس ثابتًا إنشائيًا كالسقف المغطى بالخشب والجريد، وتعلوه طبقة من الطين، وهو الأسلوب الذي اتبع فيما يبدو في تغطية «البيت» الداخلي. فقد ذكر السهيلي أن بيوت النبي ﷺ تسعة، بعضها مبني بالجريد مطين بالطين، وسقفها من جريد، وبعضها حجارة مرضومة بعضها فوق بعض مسقفة بالجريد، وكانت حجراتها من شعر مربوطة في خشب عرعر[٣].

أما الوحدة الرئيسة وهي «البيت»، سبقت الإشارة إلى قياساتها، لكن المهم بعد معرفة هذه القياسات هو معرفة التخطيط، وتحديدًا عناصر الاتصال ممثلة في هذه الوحدة من أبواب تصل بينها وبين الحجرة أو بقية البيت بالمعنى الشامل. فقد ورد في وصف البخاري – الذي سبقت الإشارة إليه- «أن عرض البيت (بيت السيدة عائشة) عرضه من الحجرة إلى باب البيت نحو من ست إلى سبعة أذرع ...»[٤]. وهذا يعني أن البيت الذي هو الوحدة الداخلية الرئيسة لها باب يصل ما بين الحجرة الملاصقة للمسجد والبيت وحدة المبيت والنوم الرئيسة، أي إنه كان بالجدار الشرقي للحجرة أو الجدار الغربي للبيت، وهو الجدار المشترك بينهما، كان به فتحة

١- العمري: المسالك، ج١/٨٩.

٢- السمهودي: وفاء، ج١/٤٦٣.

٣- السهيلي: الروض، ج٢/٣٣٩؛ الصالحي (محمد بن يوسف): سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، تحقيق: عادل عبد الموجود وعلي محمد معوض، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٢م، ج٣/٣٤٩؛ السمهودي: وفاء، ج١/٤٦٣؛ جميل: بيوت النبي، ص ٤٦٣.

٤- ابن حجر: تهذيب التهذيب، ج٢/١٢٢؛ جميل: بيوت النبي، ص ٣٦.

باب. وهذا أمر منطقي في إطار التخطيط؛ حيث إن اتصال الحجرة بالبيت الداخلي يستوجب مثل هذا الباب الذي يصل بينهما للربط بينهما، وتحقيق سهولة الوصول من البيت إلى الحجرة إلى المسجد.

وقد ورد في الروايات التاريخية ما يشير إلى باب ثالث في الجدار الشمالي للبيت. ومن أهم هذه الروايات تلك التي توثق وجود باب بالجدار الذي يمثل الحد الشمالي الخارجي للبيت. فقد ذكر ابن سعد أنه لما قبض رسول الله ﷺ قالوا (الصحابة) كيف نصلي عليه؟ قالوا: ادخلوا من ذاب الباب أرسالاً أرسالاً، فصلوا عليه، وخرجوا من الباب الآخر»[1]. وقال الحربي: «وباب البيت الذي دفنوا فيه شامي»[2]. وهاتان الروايتان تشيران بوضوح إلى أن «البيت» الذي هو الوحدة الرئيسة في مسكن السيدة عائشة، والذي توفي فيه رسول الله ﷺ ودفن فيه، كان له بابان، باب يصل ما بين الحجرة المجاورة للمسجد و«البيت» الوحدة الداخلية الرئيسة في الضلع الغربي لهذه الوحدة، وباب آخر في الضلع الشمالي يؤدي إلى خارج حدود البيت، أي إلى المخرج الذي كان يفصل ما بين بيت السيدة عائشة وبيت فاطمة بنت رسول الله رضي الله عنه، ومنه إلى الطريق الرئيس النافذ[3].

ومن المهم الإشارة إلى أن هذا الباب كان له مصراع واحد من عرعر أو ساج، فقد ذكر السمهودي أن «باب عائشة مواجه للشام، وكان بمصراع واحد من عرعر أو ساج»[4]. وأسند ابن زبالة عن محمد بن هلال قال: أدركت بيوت أزواج النبي ﷺ كانت من جريد... وكان باب عائشة مواجه

١- ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج٢/٢٨٩؛ البتانوني: الرحلة، ص ٢٥٠.

٢- الحربي: المناسك، ص ٣٦٩.

٣- انظر شكل رقم (٤).

٤- السمهودي، وفاء، ج١/٤٥٩- ٤٦٠.

الشام، وكان بمصراع واحد من عرعر أو ساج». وقد وردت روايات أخرى تؤكد أن الباب الشامي في بيت السيدة عائشة كان من مصراع واحد، ومصنوع من خشب العرعر أو الساج[١]. لكنها لم تتضمن تحديد موضع الباب، غير سياق الروايات كلها يصدق أن الباب المذكور هو الباب الخارجي للبيت، وأنه هو الذي كان بالجدار الشمالي للبيت.

وتذكر الروايات باب بيت السيدة عائشة «كان يقرع بالأظافير، أي لا حلق له»، فقد ورد في تاريخ البخاري أن «بابه ﷺ كان يقرع بالأظافير، أي لا حلق له»[٢]. وذكر السهيلي ذات الرواية[٣].

ومن المهم الإشارة هنا إلى أن هذا الباب في الجدار الشمالي للبيت كان مصنوعاً من خشب العرعر أو الساج ليوفر خصوصية واضحة للبيت باعتباره بابًا خارجيًا، أما الباب الذي يربط بين البيت والمسجد فكان من أكسية الشعر؛ حتى يستر فقط الحجرة عن المسجد؛ حيث إن علاقة حجرات بيوت زوجات النبي التي كانت لها أبواب شارعة في المسجد علاقة خاصة، تشير إلها رواية مالك بن أنس، الذي قال: «حدثني الثقة عندي أن الناس كانوا يدخلون حجرات أزواج النبي بعد وفاته يصلون فيها يوم الجمعة. قال مالك: وكان المسجد يضيق عن أهله وحجر النبي ﷺ ليست من المسجد، ولكن أبوابها شارعة في المسجد»[٤]. وهذه الرواية تذكر برواية سبقت الإشارة إليها تأتي في ذات السياق، لكن في عهد رسول الله ﷺ عندما كان المصلون في المسجد يتابعون صلاة النبي في حجرة بيته[٥].

١- ابن النجار: أخبار مدينة رسول الله، ص ٧٣؛ ماهر: مساجد في السيرة، ص ٧٢، ٧٣.

٢- السمهودي: وفاء، ج١/ ٤٦٤.

٣- السهيلي: الروض، ج٢/ ٣٤٠.

٤- ابن النجار: أخبار مدينة رسول الله، ص ٧٤.

٥- ابن سعد: الطبقات، ج١/ ٢٩٩؛ جميل: بيوت النبي، ص ٣٦.

وفي ضوء ما ورد من روايات تتعلق ببعض الأحداث التي وقعت في بيت النبي ﷺ في حياته وبعد موته، ودفنه في هذا البيت، يمكن التعرف على بعض التفاصيل المعمارية المرتبطة بالشكل المعماري الداخلي لهذا البيت.

ذكر السمهودي في حديثه عن الروضة الشريفة أن الحائز الذي بناه عمر بن عبد العزيز في العمارة الأموية لمسجد الرسول في عهد الوليد يستبعد أن يبنى حول حجرة عائشة التي دفن فيها النبي على جزء من ساحة الروضة الشريفة، وفي إطار هذا السياق يقول: «والذي صح أن محل القبور الشريفة في صفة بيت عائشة ولا بد للصفة من مرافق، فيظهر أن الحائط الذي في جوف الحائز هو حائط الصفة، والحائز فيما يخرج عنها من بقية البيت»[1]. ويستشف من هذا التقرير والوصف للسمهودي أن ببيت السيدة عائشة «صفة» وأن القبور الشريفة، وهي قبر النبي ﷺ وقبرا أبي بكر وعمر في صفة ببيت عائشة، وهذه القبور في النصف الجنوبي من الحجرة الشريفة، وهو ما يعني أن الصفة تشغل نصف الحيز الفراغي للبيت، أي النصف الجنوبي.

وقد أورد ابن سعد مصطلحًا آخر غير «الصفة»، ويعني أيضًا الموضع الذي كان يضم قبر النبي ﷺ وصاحبيه أبي بكر وعمر وهو «السهوة» [2].

وتشير المصادر اللغوية إلى الدلالات المعمارية للفظ السهوة، وأن منها مساحة مفصولة بحائط يرتفع إلى مستوى السقف داخل حيز فراغي، هو بيت السيدة عائشة الذي ورد في سياق رواية ابن سعد[3]. وهكذا يتضح أن مصطلح الصفة الذي ورد في الروايات التي أشارت إلى بيت عائشة يوثق للحالة المعمارية التي حدثت بعد بنائها لحائط يفصل القبور عن بقية الحيز

١- السمهودي: وفاء، ج١/٣٤٩.

٢- ابن سعد: الطبقات، ج٣/٣٦٤؛ جميل: بيوت النبي، ص ٥٢.

٣- جميل: بيوت النبي، ص ٥٢.

الفراغي للبيت. ونتج عن بناء هذا الحائط أن أصبح القطاع الجنوبي من البيت الذي يضم القبور يطلق عليه «صفة» أو «سهوة».

ومن المهم أن نشير هنا إلى أن لفظ «سهوة» أطلق بدلالة معمارية أخرى على «دخلة بالحائط»، أو «كوة غير نافذة»، كانت تضع به السيدة عائشة لُعَبها، وكانت تسترها بستر. فقد جاء عن عائشة أنه كان لها ستر فيه تماثيل، فجعلته على سهوة لها. وفي رواية أخرى أنه كان في بيتها ثوب فيه تصاوير فجعلته على سهوة في البيت [1].

وفي مناسبة أخرى تتحدث عائشة قائلة: «قدم رسول الله ﷺ من سفر، وقد اشتريت سترًا فيه صورة، فسترته على سهوة بيتي». وتذكر في رواية أخرى أنه كان في سهوتها ستر، فهبت الريح فكشفت ناحية الستر عن بنات لعائشة- لعب- فقال لها رسول الله ﷺ: ما هذا يا عائشة؟ قالت: بناتي، ورأى بينهن فرسًا له جناحان» [2]. وهذه الروايات يستشف منها أن السهوة كما ذكر أحد الباحثين «تجويف صغير في جدار البيت» [3]. أي كوة غير نافذة في جدار البيت، وهو استنتاج صحيح سيما وأن الرسول ﷺ قال لعائشة مرة مستنكرًا الستر الذي فيه صورة «أتسترين الجدر يا عائشة؟» [4].

وقد ورد في الحديث عن بيت أم سلمة الذي استقبل ضيوف النبي احتفالاً بزواجه من أم سلمة إشارات معمارية، فقد قال البخاري: وقال إبراهيم بن طهمان عن الجعد أبي عثمان عن أنس، فذكر نحوه، وقد قال ابن أبي حاتم، حدثنا أبو المظفر حدثنا جعفر بن سليمان عن الجعد أبي عثمان اليشكري عن أنس بن مالك قال: أعرس رسول الله ﷺ ببعض نسائه، فصنعت أم سليم حيسًا ثم حطته في تور فقالت: اذهب إلى رسول الله ﷺ وأخبره أن

١- البخاري: الصحيح، ص ٤٩٢، حديث (٢٤٧٩)؛ جميل: بيوت النبي، ص ٥١.

٢- جميل: بيوت النبي، ص ٥١.

٣- جميل: بيوت النبي، ص ٥١.

٤- ابن حنبل (أحمد بن عبد الله): المسند، القاهرة، د.ت، ج٢٤٧/١؛ جميل: بيوت النبي، ص ٥٢.

هذا منا له قليل. قال أنس: والناس يومئذ في جهد فجئت به، فقلت: يا رسول اللّه، بعثت بهذا أم سليم إليك، وهي تقرئك السلام، وتقول: إن هذا منا قليل. فنظر إليه ثم قال: ضعه في ناحية البيت، ثم قال: اذهب فادع لنا فلانا وفلانًا، فسمى رجالاً كثيرًا، قال: ومن لقيت من المسلمين، فدعوت من قال لي، ومن لقيت من المسلمين، فجئت والبيت والصفة والحجرة ملاء من الناس، فقلت: يا أبا عثمان، كم كانوا؟ قال: كانوا زهاء ثلثمائة. قال أنس: فقال لي رسول اللّه ﷺ، جئ، فجئت به إليه، فوضع يده عليه ودعا. وقال: ما شاء اللّه، ثم قال: ليتحلق عشرة عشرة ويسموا وليأكل كل إنسان مما يليه، فجعلوا يسمون ويأكلون حتى أكلوا كلهم، فقال رسول اللّه ﷺ: ارفعه، قال: فجئت فأخذت التور فنظرت فيه فلا أدري حين وضعته أكثر أم حين رفعته، قال: وتخلف رجال يتحدثون في بيت رسول اللّه ﷺ، وزوج رسول اللّه ﷺ التي دخل بها معهم مولية وجهها إلى الحائط، فأطالوا الحديث، فشقوا على رسول اللّه ﷺ، وكان أشد الناس حياءً، ولو علموا كان ذلك عليهم عزيزًا، فقام رسول اللّه ﷺ فسلم على حجره على نسائه، فلما رأوه قد جاء ظنوا أنهم قد ثقلوا عليه، ابتدروا الباب فخرجوا، وجاء رسول اللّه ﷺ حتى أرخى الستر، فمكث رسول اللّه ﷺ في بيته يسيرًا، وأنزل اللّه القرآن، فخرج وهو يقرأ هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾. فقرأهن عليَّ قبل الناس، وأنا أحدث الناس بهن عهدًا. وقد رواه مسلم والترمذي والنسائي جميعًا عن قتيبة بن جعفر بن سليمان بن الجعد أبي عثمان به، وقال الترمذي: حسن صحيح، ورواه مسلم

أيضًا ...»[1]. ويتضمن هذا الحديث نصًا مهمًا يتصل بالمواضع التي امتلأت بالمدعوين للطعام؛ حيث يذكر مالك بن أنس: «فجئت والبيت والصفة والحجرة ملاء بالناس»، وهو نص يتضمن ذكر «الصفة» كوحدة معمارية في بيت أم سلمة بالمعنى الشامل.

وقد سبقت الإشارة إلى حديث بناء مسجد رسول الله ﷺ أنه بنى «صفة» في الجهة الجنوبية للمسجد، وهو عبارة عن «ظلة» يقيم فيها الفقراء داخل المسجد.

ويتضح من هذا العرض السابق للنصوص التي تشتمل على لفظ «صفة» أن هناك دلالات معمارية متنوعة للصفة، لكنه في جميع الحالات عبارة عن حيز فراغي مميز عن ما جاوره من أحياز، ففي المسجد موضع محدد بالمسجد عبارة عن سقيفة يقيم فيها الفقراء، وتتميز عن الرحبة التي تقع إلى الشمال غالبًا ليس بالسقف فقط، ولكن بارتفاع أرضيتها نسبيًا عن أرض المسجد، حتى إذا سقط المطر لا يدخل الماء إليها، وحتى تكون حدودها المكانية واضحة ومميزة عن بقية الرحبة[2].

وحديث البخاري عن الصفة ببيت أم سلمة لم يكن به تفصيل يوضح ما إذا كانت الصفة وحدة قائمة بذاتها، مستقلة غير البيت والحجرة وتطل عليها، باعتبار هيئتها المعمارية كسقيفة مميزة المعالم ومحددة. ويمكن أن تكون بالبيت مفتوحة على الحجرة، وإن كان هذا التصور مجرد افتراض، لكن لا يمكن أيضًا أن تكون الصفة المقصودة مثل تلك الصفة التي كانت في القسم الجنوبي من بيت السيدة عائشة، والتي فصلت عن بقية الحيز

١- ابن كثير: البداية، ج٤/١٤٧- ١٤٨.

٢- هناك من تصور أن الصفة التي وردت في حديث البخاري عن إطعام المدعوين من النبي بمناسبة زواج الرسول ﷺ من أم سلمة هي صفة المسجد، وهذا أمر مستبعد كما ذكر جميل في بحثه عن بيوت النبي ص ٣١. راجع: العمري (أكرم ضياء): السيرة النبوية الصحيحة، الرياض: العبيكان، ١٩٩٥م، ج١/٢٥٨. واستبعاد هذا التفسير أمر منطقي؛ حيث إن الأحداث كلها تدور كما ورد في الحديث في بيت أم سلمة.

الفراغي للبيت بجدار لا يرتفع إلى مستوى السقف، سيما وأن مصطلح الصفة في دلالة معمارية أخرى شائعة يعني جزءًا من حيز فراغي ترتفع أرضيته عن أرضية بقية الحيز[١].

ويذكر ابن منقذ رواية تشير إلى عنصر معماري آخر ببيت أم سلمة: «حدثني من سمع أم سلمة رضي الله عنها تذكر أن النبي ﷺ كان في بيتها، فأتته فاطمة عليها السلام ببُرَمة[٢]. فيها خزيرة[٣]. (الدقيق يشبه العصيدة)، فدخلت عليه بها، فقال ﷺ: ادعي لي زوجك وابنيك، قالت: فجاء علي والحسن والحسين رضوان الله عليهم، فدخلوا عليهم فجلسوا يأكلون من تلك الخزيرة، وهو على منامة له على دكانة[٤]. تحت كساء خيبري، قالت: وأنا في الحجرة أصلي، فأنزل الله عليه السلام: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾. فأخذ النبي ﷺ فضل الكساء فغشاهم، ثم أخذه بيده فألوى بهما إلى السماء، ثم قال: هؤلاء أهل بيتي وخاصتي، فأذهب الرجس عنهم أهل البيت وطهرهم تطهيرا. قالت: فأدخلت رأسي في البيت، وقلت: وأنا معكم يا رسول الله؟ فقال: «إنك إلى خير، إنك إلى خير»[٥]. وتتضمن هذه الرواية لفظًا معماريًا مهمًا، وهي «دكان»، والدكان ما يبنى برسم الجلوس، وهو ما يعني أن بيت السيدة سلمة كان قطاع منه أرضية مرتفعة في هيئة الدكان، وأن يكون البيت قطاعًا مرتفع الأرضية، سمي «صفة» أو «دكان»، يستخدم في الجلوس أو النوم لموضع مميز في البيت، يستخدم لهذه الأغراض.

وهناك من الروايات ما يتعلق ببعض النشاطات التي كانت تجري في بيت السيدة عائشة ومنها الصلاة، فقد روت السيدة عائشة فقالت: «صلى

١- وثيقة وقف برسباي، ٨٨١، أرشيف وزارة الأوقاف.

٢- البرمة: قدر من حجر.

٣- الخزيرة: نوع من الطعام مطبوخ من قطع اللحم والدقيق يشبه العصيدة.

٤- الدكانة: تشبه المصطبة، تبنى برسم الجلوس. عثمان: الإعلان بأحكام البنيان، ص ١٦٧.

٥- ابن منقذ (أسامة): المنازل والديار، تحقيق: مصطفى حجازي، القاهرة: دار سعاد الصباح، ص ٣٦٧.

رسول الله ﷺ في بيته وهو جالس، فصلى وراءه قوم قيامًا، فأشار إليهم أن اجلسوا»[١]. وفي رواية لأم الفضل بنت الحارث قالت: صلى بنا رسول الله ﷺ في بيته المغرب، فقرأ المرسلات، ما قرأ بعدها حتى قبض»[٢]. وتقول السيدة عائشة: «لقد رأيت النبي ﷺ وإني لبينه وبين القبلة، وأنا مضجعة على السرير»[٣]. وهذه الأحاديث الثلاثة تشير إلى إقامة النبي ﷺ الصلاة في بيته في جماعة أو منفردًا. وفي الحديث الأول إشارة مهمة إلى أن النبي صلى وهو جالس، وأمر من يصلي خلفه بأن يصلوا جالسين أيضًا. وفي الحديث الثاني إشارة إلى أن الصلاة كانت في فترة مرض الوفاة وقبلها بساعات، وهو ما يشير إلى عدم قدرته على الصلاة واقفًا، كما أنه لا يوجد ما يشير إلى عدد من صلوا خلفه، وهل كان العدد كبيرًا بحيث يشغل البيت كله أم مساحة محددة منه. وعلى افتراض زيادة العدد، فإن الحيز الفراغ المتاح يعني ضرورة استخدام القطاع الجنوبي من البيت، فتكون الصلاة جلوسًا متوافقة مع الموعد والظروف الصحية التي كان يمر بها رسول الله ﷺ. سيما وأن القطاع الجنوبي من البيت في الأحوال العادية كان مخصصًا في الغالب للنوم، ولا أدل على ذلك من الحديث الثالث الذي أشارت فيه السيدة عائشة إلى أن سريرها كان في موضع بين جهة القبلة وموضع صلاته في البيت وقت صلاته.

الكنيف:

قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: «كان رسول الله ﷺ إذا اعتكف يدني إلي رأسه فأرجله، وكان لا يدخل البيت إلا لحاجة الإنسان»[٤]. وهذا الحديث يشير ضمنًا إلى وجود موضع لقضاء الحاجة ببيتها. وروى

١- البخاري، الصحيح، حديث رقم (٦٨٨)، السجستاني (سليمان بن الأشعث): سنن أبي داود، تحقيق: كمال يوسف الحدث، بيروت: دار الجنان، ١٩٨٨، ج١/٢٢١، حديث رقم (٦٠٥)؛ جميل: بيوت النبي، ص ٣٩.

٢- النسائي (أحمد بن شعيب): سنن النسائي، حديث رقم (٢٦٤).

٣- البخاري: الصحيح، حديث رقم (٥١٧)، جميل: بيوت النبي، ص ٣٩.

٤- ابن النجار: أخبار المدينة، ص ٧٤.

السمهودي رواية أسندها إلى يحيى عقب حديث عائشة: «قلت يا رسول الله إنك تدخل كنيفك، فلا نرى شيئًا من الأذى، فقال: الأرض تبلع ما يخرج من الأنبياء من الأذى، فلا يرى منه شيئًا». ويعلق السمهودي على هذا الحديث قائلاً: «أشعر صنيع يحيى أن المراد من المخرج[١] موضع الكنيف[٢]. وأفهم ذلك أن المخرج الذي خلف حجرة السيدة عائشة رضي الله عنها بينها وبين بيت فاطمة رضي الله عنها، وذلك يقتضي أن يكون محلة الزور أعني الموضع المزور شبه المثلث في بناء عمر بن عبد العزيز جهة الشام»[٣]. وهذه الرواية تعني بوضوح وجود كنيف في بيت السيدة عائشة، وتشير الرواية إلى أنه كان في الموضع الذي به المخرج الذي بين بيت السيدة عائشة والسيدة فاطمة بنت رسول الله ﷺ. والمنطق المعماري يوجه إلى تحديد موضعه في القطاع الغربي من هذا المخرج؛ حيث بقية المخرج كانت تؤدي إلى الجهة الشرقية وصولاً إلى الطريق العام.

ومن المهم الإشارة إلى أن بيوت زوجات النبي الأخرى لم تكن تتضمن كنيفًا، فقد وردت الإشارة إلى أن زوجاته ﷺ كن يخرجن بالليل إذا تبرزن إلى المناصع[٤]، وهو صعيد أفيح[٥].

١- قال الرازي: الحسن بفتح الحاء وضمها: البستان، وهو أيضًا المخرج؛ لأنهم كانوا يقضون حاجتهم في البساتين». السمهودي: خلاصة الوفا، ص ٤٦٥؛ عبد الغني: بيوت الصحابة، ص ١١٤. ويبدو أن فحوى الكلمة وارتباطها بقضاء الحاجة جاء في هذا الإطار.

٢- يقال: كنف الدار، أي اتخذ لها كنيفًا. والكنيف: مفرد كنف، وهو المرحاض، ويسمى الخلاء بالفتح والمد، وهو موضع قضاء الحاجة. وقيل للمرحاض كنيفًا؛ لأنه يستر قاضي الحاجة من الكنف، وهو الستر. عثمان: الإعلان بأحكام البنيان، ص ٢١٨، ٢١٩.

٣- السمهودي: وفاء، ج١/٤٦٦.

٤- المناصع: المواضع التي تتخلى بها النساء لبول ولحاجة، والواحد منصع. وكان متبرز النساء بالمدينة. والمناصع موضع بعينه خارج المدينة كان النساء يتبرزن إليه بالليل على مذاهب العرب في الجاهلية. الحموي (ياقوت): معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ج٥/٢٠٣.

٥- صحيح مسلم، كتاب السلام، باب إباحة الخروج للنساء لقضاء الحاجة؛ عبد الغني: بيوت الصحابة، ص ١٠٥.

المشربة:

يذكر السمهودي أنه لم يرَ في كلام المؤرخين من تعرض للمشربة التي اعتزل فيها رسول الله ﷺ، لما آلى من نسائه شهرًا، ويقتضي ذلك أنه لم يكن بابها من بيت واحدة منهن، ليتأتى عدم الدخول عليهن، والذي في الصحيح قول حفصة: «هو ذا في المشربة»، وفي رواية تسميها «علية»، وفي رواية «غرفة». وقد بوب البخاري باب هجر النبي ﷺ نساءه في غير بيوتهن، وفي رواية «هو في خزانته في مشربة ترقى إليها بعجلة»، وفي رواية «فإذا رسول الله ﷺ في مشربة يرقى إليها بعجلة»، وفي رواية «فدخلت فإذا أنا برباح غلام رسول الله ﷺ قاعدًا على أسكفة[1] المشربة مدلٍ رجليه على نقير من الخشب، وهو جذع يرقى عليه رسول الله ﷺ، وينحدرٌ»[2].

هذه الأحاديث التي ذكرها السمهودي مروية عن حفصة، والتي تشير إلى وجود «مشربة» أو «علية» أو «غرفة» كانت الموضع الذي أقام فيه فترة هجره لنسائه لمدة شهر. من الأهمية بمكان؛ حيث إنها تشير إلى وجود وحدة معمارية أخرى غير «البيت» و«الحجرة»، والتي تكرر وجودهما في بيوت زوجات النبي كوحدات تقليدية يتكون منها البيت. وهذه الوحدة كانت تسمى «المشربة» أو «العلية» أو «الغرفة»، وهي ثلاثة مصطلحات معمارية تشير إلى أنها كانت في المستوى الثاني من البيت.

وواضح من سياق الأحاديث أن البيت الذي كانت فيه هذه «المشربة»، أو «العلية»، أو «الغرفة»، هو بيت السيدة حفصة التي روت هذه الأحاديث في إطار مشاهدتها ومعرفتها بموضع اعتزاله، وكذلك بمتابعتها لرباح الذي كان «يجلس على أسكفة المشربة»، وشاهدته وهو يدلي رجليه على المرقاة التي يصعد من عليها رسول الله ﷺ إليها.

١- الأسكفة: العتبة السفلى للباب.

٢- السمهودي: وفاء، ج١/٤٦٣.

وقد ذكر السمهودي في بداية حديثه عن المشربة تعليقًا مؤداه أن هجر رسول اللّه ﷺ لنسائه شهرًا يقتضي أنه لم يكن للمشربة باب من بيت واحدة منهن «ليتأتى عدم الدخول عليهن». وإذا كان تعليق السمهودي صحيحًا، فكيف يمكن التوفيق بين وجود المشربة في بيتها وبين ما ذكره السمهودي؟ والإجابة عن هذا السؤال تستدعي روايات أخرى ذكرت عن الأذان في عهد النبي ﷺ؛ حيث كان بلال يؤذن للفجر من على منار بسطح بيت السيدة حفصة، فقد ذكر ابن النجار في رواية عن نافع عن ابن عمر قال: «قال بلال كان يؤذن على منارة في دار حفصة بنت عمر التي تلي المسجد. قال: فكان يرقى على أقتاب فيها، وكانت خارجة من مسجد رسول اللّه ﷺ، ولم تكن فيه، وليست فيه اليوم»[1]. وهو أمر يعني استخدام بلال لموضع عالٍ في سطح دار حفصة للأذان سمي «منارة»، وكان يصعد إليه أو يرقى إليه «على أقتاب فيها»، والضمير في «فيها» عائد على دار حفصة. وتكاد تكون دار حفصة البيت الوحيد الذي أشارت الروايات إلى استغلال ما بسطحها من عناصر ووحدات معمارية لم تشر الروايات إلى وجود مثلها في البيوت الأخرى.

وفي ضوء ما سبق، يمكن القول إن بيت السيدة حفصة هو البيت الذي وجدت به المشربة التي اعتزل فيها رسول اللّه ﷺ مدة هجره لنسائه، التي امتدت لشهر، وأن هذه المشربة كان يرقى إليها على أقتاب أو «نقير من الخشب»، يصعد من عليها بسرعة إلى «المشربة» التي اعتزل فيها. وهذه المشربة كان لها باب بدلالة كلمة «أسكفة»، يفتح مباشرة على المرقاة يدل على أن رباح الذي كان جالسًا على أسكفة بابها كان يدلي رجليه على المرقاة.

١- ابن النجار: أخبار المدينة، ص ٨٦.

مواد بناء بيوت زوجات النبي ﷺ:

بعد أن اتضح تخطيط بيوت زوجات النبي ﷺ، من المهم الإشارة إلى مواد البناء التي استخدمت في تشييدها، خاصة وأن هذه المواد ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالتصميم العام للبيوت الذي اقتصر على إنشاء البيت من دور أرضي في معظم البيوت فيما عدا بيت حفصة، الذي كان بسطحه بعض العناصر المعمارية كالمشربة أو الموضع المرتفع الذي به، ويؤذن من عليه بلال. وهذا التصميم يتوافق تمامًا ومواد البناء التي استخدمت في الإنشاء.

ذكر السهيلي أن بيوت النبي كانت تسعة، بعضها من جريد مطين بالطين، وسقفه الجريد، وبعضها من حجارة مرضومة بعضها فوق بعض مسقفة بالجريد»[١]. وذكر العمري رواية السهيلي هذه بنصها[٢]. وأشار ابن سعد إلى المواد المستخدمة في البناء من خلال رواية لأحد أهل المدينة قال فيها: «رأيت حجر النبي ﷺ قبل أن تهدم بجرائد النخل ملبسة الأنطاع»، وجاء في رواية مشابهة قوله: «رأيت حجر أزواج النبي وعليها مسوح يعني متاع العرب»[٣]. وذكر ابن سور رواية ثالثة عن عمران قال فيها: «أدركت حجر أزواج النبي ﷺ من جريد النخل على أبوابها المسوح من شعر أسود»[٤].

ويذكر ابن النجار رواية عن عطاء الخراساني قال فيها: «أدركت حجر أزواج النبي ﷺ من جريد النخل، على أبوابها المسوح من شعر أسود، فحضرت كتاب الوليد بن عبد الملك يقرأ بأمر إدخال حجر النبي ﷺ في مسجده، فما رأيت باكيًا أكثر من ذلك اليوم، وسمعت سعيد بن المسيب يقول يومئذ: والله لوددت أنهم لو تركوها على حالها فينشأ ناس من أهل

١- السهيلي: الروض، ج٢/٣٣٩- ٣٤٠.

٢- العمري: مسالك، ج١/٨٩.

٣- ابن سعد: الطبقات، ج١/٥٠٠؛ جميل: بيوت النبي، ص ٢٢.

٤- ابن سعد: الطبقات، ج١/٤٩٩؛ جميل: بيوت النبي، ص ٢١.

المدينة، ويقوم القادم من الأفق فيرى ما التقى به رسول الله ﷺ في حياته، فيكون ذلك مما يزهد الناس في التكاثر والفخر»[1].

وذكر الواقدي عن عبد الله بن يزيد الهذلي أنه قال: «رأيت بيوت أزواج النبي ﷺ حين هدمها عمر بن عبد العزيز أيام ولايته على المدينة من قبل الوليد بن عبد الملك، كانت بيوتًا من لبن، لها حجر من جريد مطرور بالطين، عددت أبيات النبي ﷺ تسعة أبيات بحجرها، وهي ما بين بيت عائشة رضي الله عنها إلى الباب الذي يلي باب النبي، ورأيت بيت أم سلمة وحجرتها من لبن»[2].

ويذكر ابن النجار أن الرسول ﷺ لما بنى مسجده بنى بيتين لزوجتيه عائشة وسودة على نعت بناء المسجد من لبن وجريد النخل»[3].

وفي ضوء هذه الروايات يمكن أن نخلص إلى ما يلي:

١. إن كانت مادة البناء الرئيسة لحوائط الحجرات من الجريد المطرور بالطين، وكان سقفها من الشعر المثبت في عوارض خشبية من خشب العرعر. كما أن أبوابها كانت من مسوح الشعر أو الأنطاع، وكلها مواد بنائية خفيفة تناسب تخطيط الحجرة التي هي عبارة عن حيز فراغي بعضه أو كله بسقف خفيف من مسوح الشعر يمكن تثبيته على عوارض وقوائم خشبية تخلل الحوائط المبنية من الجريد المكسو بالطين من الجانبين، أو بتركز العوارض الخشبية على هذه الحوائط الجريدية المطرورة بالطين. والتي يمكن أن تحمل هذا السقف الخفيف من مسوح الشعر، والذي لا يمثل ثقلاً يحتاج إلى حوائط مثبتة باللبن، وهذا مناسب للحجرة باعتبارها وحدة تتقدم البيت، وتوفر خصوصية له لعدم الدخول مباشرة إليه، فهي تمثل

١- ابن النجار: أخبار مدينة رسول الله، ص ٧٤.

٢- ابن سعد: الطبقات، ج١/٤٩٩؛ السهيلي، الروض، ج٢/٣٩٧؛ جميل: بيوت النبي، ص ٢٠.

٣- ابن النجار: أخبار مدينة رسول الله، ص ٧٣.

في هذه الحالة «مقدم الدار» الذي لا تمارس فيه أغراض حياتية تستوجب السترة والوقاية من عيون البشر أو الطبيعة.

٢. إن البيوت التي تمثل الوحدات الرئيسة والتي تستخدم في الأغراض الحياتية التي تستوجب الخصوصية والوقاية من عيون البشر والطبيعة بنيت باللبن وسقف الجريد، وعمل لأبوابها الخارجية أبواب من الخشب. وبناء هذه البيوت باللبن يوفر جدرانًا سميكة نسبيًا، فقد وردت الإشارة إلى أن بناءها كان على «نعت بناء المسجد»، بالمقارنة بحوائط الحجر التي من الجريد المطرور، كما أن هذه الحدران تتحمل سقفًا من الجريد الذي يعلو طبقة من الطين لتوفير الحماية من الشمس والمطر لمن يقيم بداخلها.

٣. إن الهيئة المعمارية لهذه المواد خلت حتى هدم البيوت عند إدخالها في عمارة الوليد لمسجد الرسول ﷺ. ومن المهم أن نشير هنا إلى أن بيت السيدة أم سلمة هو البيت الوحيد كما أشارت الروايات الذي أعيد بناء حجرته باللبن، مثلها مثل الوحدة الداخلية الرئيسة، وهي «البيت» بدلالة الوحدة المعمارية، وليست بالمعنى الشامل. وتشير الروايات إلى أن هذا التعديل المعماري كان من خلال السيدة أم سلمة نفسها، التي رأت أن بناء الحجرة من الجريد لا يكف البصر. ويروي ابن النجار رواية مسندة توثق لذلك، فيقول: أخبرنا صالح بن أبي الحسن الخزيمي، أنبأنا محمد بن عبد الباقي الأنصاري، أخبرنا أبو الحسن بن معروف، أخبرنا الحارث بن أسامة، حدثنا محمد بن سعد، أخبرنا أبو عبد الله بن يزيد الهذلي، قال: رأيت بيوت أزواج النبي ﷺ حين هدمها عمر بن عبد العزيز كانت بيوتًا من لبن، ولها حجر من جريد، ورأيت بيت أم سلمة وحجرتها من لبن، فسألت ابنها، فقال: لما غزا رسول الله ﷺ دومة (دومة الجندل) بنت أم سلمة بلبن حجرتها، فلما قدم نظر إلى اللبن، فقال: ما هذا البناء، فقالت: أردت أن أكف أبصار الناس. فقال: يا أم سلمة إن شر ما ذهب فيه مال المسلم

البنيان»[١]. وقد أورد رواية مشابهة عن يحيى عن عبد الله بن زيد[٢].

ومن المهم الإشارة إلى رواية السهيلي[٣] عن مواد البناء، فهو يذكر أن بعض البيوت كانت من «حجارة مرضومة بعضها فوق بعض مسقفة بالجريد»، وهذا الأسلوب في البناء يتم برص الحجر دون استخدم مؤنة في البناء[٤]. ولكن يلاحظ أن السهيلي يتفرد بهذه الرواية التي تشير إلى استخدام الحجر في بناء بيوت زوجات النبي وبطريقة الرضم، لكن الروايات الأخرى تجمع على أن البناء كان باللبن.

١- ابن النجار: أخبار مدينة رسول الله، ص ٧٤.

٢- السمهودي: وفاء، ج١/٤٦١- ٤٦٣؛ ماهر: مساجد في السيرة، ص ٧٣

٣- السهيلي: الروض، ج٢/٣٣٩- ٣٤٠.

٤- ابن سيده: المخصص، المجلد ١، القسم ٥، ص ١٢٥.

الخاتمة

وثقت الدراسة عمارة الرسول ﷺ لمسجده وبيوت زوجاته في المدة من سنة ١ إلى سنة ٩ هـ توثيقًا جديدًا في ضوء ما توفر من مصادر، وأوضح الشكل المعماري للمسجد في مراحله الثلاث، المرحلة الأولى عند إنشائه لأول مرة، والمرحلة الثانية بعد تحويل القبلة من القدس إلى مكة، والمرحلة الثالثة وهي المرحلة التي وسع فيها الرسول ﷺ المسجد بعد غزوة خيبر.

كما أوضحت الدراسة ما يتعلق بالملامح المعمارية لبيوت زوجات النبي ﷺ، موضعًا، وتخطيطًا، وإنشاءً. وركزت تركيزًا واضحًا على بيت السيدة عائشة في إطار أهميته، وفي إطار كثرة ما ورد في المصادر من معلومات عنه مقارنةً بالبيوت الأخرى. وأوضحت الدراسة العناصر والوحدات المعمارية التي يشتمل عليها البيت، وما يتعلق بمسميات هذه الوحدات، وميزت بين لفظي الحجرة والبيت تمييزًا يزيل أي لبس، وشملت هذه الدراسة، بالإضافة إلى بيوت زوجات النبي ﷺ، بيت السيدة فاطمة، الذي بناه الرسول لعلي عندما بنى بفاطمة، وبينت الدراسة كثيرًا من عناصره المعمارية في ضوء ما توفر من معلومات مصدرية.

وشملت الدراسة كثيرًا من التفاصيل المعمارية في عمارة المسجد، ومن أهمها «القبلة»، التي أنكر كثير من الباحثين وجودها، وحاول آخرون إثبات وجودها، واستطاعت الدراسة، من خلال منهجية دقيقة في تفسير النصوص والروايات، وكذلك في دراسة المصطلحات المعمارية التي جرت العادة بإطلاقها على القبلة، كالطاق والمحراب والقبلة، أن تبين أن هذا المصطلح الأخير هو الذي شاع استخدامه في القرن الأول الهجري، وهو الذي ورد في الأحاديث والروايات التاريخية في إطار دلالات ثلاث كان من بينها – كما أوضحت الدراسة – «حنية المحراب».

وحددت الدراسة المساحة التي أنشئ عليها المسجد تحديدًا دقيقًا في إطار

ما ورد في الروايات من بيانات تتعلق بالقياسات، ووحدة القياس المستخدمة وهي الذراع الشرعي. وبينت الدراسة شكل مسطح هذه المساحة وعدم تعامد زوايا أركانه، وأن هذه الأركان كانت في هيئة زوايا وليست بهيئة مقوسة.

وأوضحت الدراسة مراحل التخطيط والإنشاء التي بدأت بإعداد الأرض، وتحديد حدودها الخارجية، وشكل الجدران وما بها من أبواب، وهيئة إنشائها على أساسات حجرية، ثم استكمال بنائها بالطوب اللبن، وأوضحت الدراسة هيئة اللبن وقياساته، وطرق بنائه، مع مراحل البناء المختلفة، ثم عرضت لهيئة بناء السقف ومواده، وقياسات ارتفاعه، وعلاقة ذلك بقياسات الجدران، المنبر الذي صنع في الفترة من ٧- ٩ هـ.

وبنيت الدراسة ما اشتمل عليه تخطيط المسجد من عناصر ووحدات أخرى؛ كالصفة، والرحبة، وعلاقة عناصر الاتصال الأخرى كالأبواب، وبخاصة أبواب بيوت زوجاته الشارعة في المسجد، وبابي أبي بكر وعلي اللذين بقيا شارعين في المسجد بعد أن أمر الرسول ﷺ بسد غيرها من أبواب الصحابة التي كانت تفتح على المسجد.

وتابعت الدراسة ما حدث في عمارة المسجد في كل مرحلة من المراحل الثلاث، وما ارتبط بذلك من أحداث تتصل بالتفسير المعماري للمسجد تحديدًا كـ«القبلة» (المحراب)، والصفة، وبيوت زوجات النبي المجاورة للمسجد من الناحية الشرقية، وفسرت كل غامض لم تستطع الدراسات السابقة تفسيره.

وفصلت الدراسة في كل ما يتعلق بالملامح المعمارية لبيوت زوجات النبي من ناحية مواضعها في الجهة الشرقية من المسجد، وما يتصل بها مباشرة بالمسجد وما ينفصل، والمواضع المؤكدة لبعض هذه الحجرات، والمواضع المرجحة لبعضها الآخر في إطار منهجي يستفيد من دراسات سابقة لهذا الموضوع، وبرؤية تصحح ما وقع في بعضها من أخطاء. واتسع هذا المنهج

ليشمل الروايات التاريخية التي تعالج مواضع بيوت زوجات النبي ﷺ، وبسطت الدراسة مخططًا جديدًا يوضح موضع هذه البيوت، وما يتصل به من طرقات، وما بينها من علاقة جوار، في إطار تتابع مراحل إنشائها، وارتباطها المباشر بالمسجد، أو غير المباشر بالجوار في الجهة الشرقية.

وفصلت الدراسة في ما يتصل بمساحاتها وطرق إنشائها وسمات تخطيطها، وما حدث لبعضها من تعديلات معمارية في عهد الرسول ﷺ أو بعد وفاته؛ كبيت السيدة عائشة.

وأضافت الدراسة لما سبق معطيات تتعلق بالقياسات والتخطيط وبعض الوحدات والعناصر المعمارية، كالمشربة، والصفة، والسهوة، والحجرة، والبيت، والمخرج، والكنيف، والأبواب الداخلية، والخارجية. وهو ما يساعد على إمكانية وضع تصور معماري أوضح مما ورد في الدراسات السابقة، سيما وأنها صححت بعض الأخطاء والهيئات التي تضمنتها هذه الدراسات في إطار فهم واضح للروايات، وفحص دقيق لها بمنهجية أكدت عليها الدراسة، وتضمنت أبعادها.

وتوصلت الدراسة إلى تحديد مسقط أفقي دقيق لعمارة المسجد في مراحله الثلاث. وتضمنت هذه المخططات مسقطًا أفقيًا واضحًا لبيت السيدة عائشة في ضوء ما ورد من روايات، وهذا التحديد للمساقط يتميز بدقة القياسات، وباشتماله على تفاصيل لم ترد في دراسات سابقة.

كما أنتجت الدراسة رسومات أخرى توضح أنواع اللبن المستخدم في البناء وقياساته، وتوضح طرق البناء به توضيحًا يصحح أخطاء دراسات سابقة، ويبين الشكل المطابق للروايات التاريخية والمصطلحات المعمارية الواصفة للبن وطرق البناء به.

وتضمنت الرسومات شكلاً توضيحيًا للمنبر في ضوء الدراسة الدقيقة

لقياساته وعناصره التي وثقتها الروايات، والتي لم ترد في أية دراسة سابقة بمثل هذه المطابقة بين نصوص الروايات وبين الرسم المنفذ، الذي يضع بين يدي القارئ تصورًا يمكن تنفيذه في أنموذج دقيق.

ومن المهم، في نهاية هذه الدراسة، أن نوضح أن نتائجها تمكن من وضع نموذج مادي معماري دقيق إلى حد بعيد في ضوء ما ورد من أحاديث وروايات موثقة، وفي إطار منهجية دقيقة لفهم ما ورد في النصوص. ويعتبر هذا هدفًا جديدًا من أهداف البحث الآثاري يسعى إلى عمل نماذج مشابهة توظف توظيفًا ثقافيًا مهمًا.

وقد تفتح نتائج هذه الدراسة الباب لدراسات أخرى في الاتجاه الصحيح، تُستكمل معه التصورات المعمارية حال توفر معلومات أخرى في مصادر لم نستطع الاطلاع عليها، أو من خلال فهم أعمق للروايات التي وظفت في هذه الدراسة.

كما أن هذه الدراسة يمكن أن يتبناها المتخصصون في علم «الجرافيك» لوضع رؤية تصويرية مرئية تجسد نتائج هذه الدراسة في مادة علمية تصويرية وثائقية، توظف ثقافيًا لنشر الوعي والمعرفة بعمارة الرسول ﷺ لمسجده ولبيوت زوجاته.

والله الموفق

لائحة المصادر والمراجع

١. أحمد بن حنبل: مسند أحمد حنبل، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعارف.

٢. أحمد فكري (أحمد): مسجد القيروان، دار العالم العربي.

٣. أحمد فكري: مساجد القاهرة ومدارسها (المدخل)، دار المعارف بمصر.

٤. الأصفهاني، أبو الفرج (٢٨٤- ٣٥٦هـ): مقاتل الطالبيين، بيروت: مؤسسة الأعلمي، ١٩٨٧م.

٥. البتانوني: الرحلة الحجازية، مكتبة المعارف، الطائف.

٦. البخاري (محمد بن إسماعيل): صحيح البخاري، الرياض، ١٩٩٧م.

٧. ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأشعار، تحقيق: علي المنتصر الكتاني، مؤسسة الرسالة.

٨. ابن جبير: رحلة ابن جبير في مصر وبلاد العرب والعراق والشام وصقلية عصر الحروب الصليبية، تحقيق: حسين نصار، دار مصر للطباعة والنشر، مكتبة مصر، د.ت.

٩. جميل (محمد بن فارس): بيوت النبي ﷺ وحجراتها وصفة معيشته فيها بيت عائشة أنموذجًا، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات، الرياض، ٢٠١٠م.

١٠. الجنابي (كاظم): تخطيط مدينة الكوفة، عن المصادر التاريخية والأثرية، تقديم: أحمد فكري، بغداد، ١٩٦٧م.

١١. ابن حجر: تهذيب التهذيب، تحقيق: خليل مأمون شيحا وجماعة، الطبعة الأولى، بيروت: دار المعرفة، ١٩٩٦م.

١٢. ابن حجر: فتح الباري، شرح صحيح البخاري، تحقيق: عبد العزيز بن باز، محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، ١٩٩٧م.

١٣. الحربي (إبراهيم بن إسحاق) ت: ٢٨٥ هـ): المناسك، تحقيق: حمد الجاسر، دار اليمامة، الرياض، ١٣٨٩ هـ.

١٤. الحموي (ياقوت): معجم البلدان، دار صادر، بيروت.

١٥. ابن حنبل (أحمد بن عبد الله): المسند، القاهرة، د.ت.

١٦. الخزاعي (محمد بن سعود): تخريج الدلالات السمعية، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٥م.

١٧. الدارمي (عبد الله بن عبد الرحمن): سنن الدارمي، تحقيق: أحمد رقولي وخالد السبع العلمي، القاهرة: دار الريان للتراث، ١٤٠٧ هـ.

١٨. الدينوري (أبو حنيفة أحمد بن داود): الأخبار الطوال، سنة ١٣٣٠هـ،

١٩. راشد (رامي عبد الجواد): عمارة المساجد في عهد المولى إسماعيل بمدينة مكناس، ماجستير، كلية الآثار، جامعة القاهرة، ٢٠١١م.

٢٠. الرافعي (أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي (ت: ٧٧٠هـ): المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، القاهرة، ١٩٢٦م.

٢١. ابن زُبالة (محمد بن الحسن): أخبار المدينة، جمع ودراسة عبد العزيز بن سلامة، مركز بحوث دراسات المدينة المنورة، المدينة، ١٤٢٤هـ.

٢٢. الزركشي (محمد بن عبد الله): إعلام الساجد بأحكام المساجد، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.

٢٣. الزمخشري (محمود بن عمر): الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، مكتبة البابي الحلبي، مصر، ١٩٦٦م.

٢٤. السجستاني (سليمان بن الأشعث): سنن أبي داود، تحقيق: كمال يوسف الحدث، بيروت: دار الجنان، ١٩٨٨م.

٢٥. السخاوي (علي بن أحمد): تحفة الأحباب وبغية الطلاب في الخطط والمزارات، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٩٨٦م.

٢٦. ابن سعد (محمد بن منيع البصري): الطبقات الكبرى، بيروت، دار صادر، د.ت.

٢٧. السمهودي (علي بن عبد الله الحسني السمهودي): الوفاء بما يجب لحضرة المصطفى، تحقيق: حمد الجابر، ضمن كتاب رسائل في تاريخ المدينة المنورة، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، ١٩٧٢م.

٢٨. السمهودي: خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى، تحقيق: علي عمر، القاهرة: مكتبة الثقافة العلمية، ٢٠٠٦م.

٢٩. السمهودي: وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، دار إحياء التراث، بيروت.

٣٠. السهيلي (عبد الرحمن بن أحمد بن أبي الحسن، ت: ٥٨١هـ): الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية، لابن هشام، دار الكتب العلمية.

٣١. ابن سيده (علي بن الحسن): المخصص، دار صادر، بيروت.

٣٢. السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن): حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٩٨٩م.

٣٣. شافعي (فريد): العمارة العربية في مصر الإسلامية في عصر الولاة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧٠م.

٣٤. ابن صالح (محمد بن عبد الله): الحرم النبوي الشريف نشوءه وتوسعاته، بحث في ندوة عمارة المساجد، المجلد الأول، عمارة الحرمين الشريفين، الرياض، ١٩٩٩م.

٣٥. صالح لمعي: المدينة المنورة تطورها العمراني وتراثها المعماري، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١م.

٣٦. الصالحي (محمد بن يوسف): سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، تحقيق: عادل عبد الموجود وعلي محمد معوض، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٢م.

٣٧. الطبري (محمد بن جرير): تاريخ الرسل والملوك، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٩٨٧م.

٣٨. عبد الحكيم (منصور): بيوت الرسول ﷺ حول المسجد النبوي، المكتبة التوفيقية، القاهرة.

٣٩. عبد الرازق (محمد بن عبد القادر)، أحكام المحاريب، دار أصحاب الحديث، المنصورة.

٤٠. عبد الغني (محمد إلياس): بيوت الصحابة حول المسجد النبوي الشريف دراسة عن الحجرات الشريفة والصفة وبيوت الصحابة رضي الله عنهم، وسقيفة بني ساعدة والبقيع والمدينة، دار طيبة، الطبعة الثالثة، ١٩٩٨م.

٤١. عبد القادر (محمد): أحكام المحراب، منشورات دار أصحاب الحديث في المنصورة، ٢٠٠٩.

٤٢. عبد الملك الحميري: السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا وجماعة، دار إحياء التراث، بيروت، ١٩٩٧م.

٤٣. عثمان (محمد عبد الستار): أضواء على أهمية الإنشاء في تاريخ العمارة الإسلامية، مجلة العصور، لندن، ١٩٩٦م، المجلد الخامس، الجزء الثاني.

٤٤. عثمان (محمد عبد الستار): الإعلان بأحكام البنيان لابن الرامي، دراسة آثارية معمارية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، ٢٠٠٢م.

٤٥. عثمان (محمد عبد الستار): درهم العنزة والمحراب، رؤية جديدة. تحت النشر.

٤٦. العسكري (أبو هلال): الأوائل، تحقيق: وليد قصاب، محمد المصري، دار العلوم للطباعة والنشر.

٤٧. العمري (أكرم ضياء): السيرة النبوية الصحيحة، الرياض: العبيكان، ١٩٩٥م.

٤٨. العمري (ابن فضل الله): مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، إصدار فؤاد سزكين،معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، فرانكفورت، ألمانيا.

٤٩. ابن كثير (الحافظ): البداية والنهاية، دار الفكر العربي.

٥٠. مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، القاهرة، الطبعة الثالثة.

٥١. مصطفى (صالح لمعي) المدينة المنورة، تطورها العمراني وتراثها المعماري، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١م.

٥٢. ابن منظور (محمد بن مكرم): لسان العرب، بيروت، دار صادر، د.ت.

٥٣. ابن منقذ (أسامة): المنازل والديار، تحقيق: مصطفى حجازي، القاهرة: دار سعاد الصباح.

٥٤. ابن النجار (محمد بن محمد): أخبار مدينة الرسول، تحقيق: صالح محمد جمال، مكتبة الثقافة، مكة، ١٩٨١م.

٥٥. النسائي (أحمد بن سعيد): سنن النسائي بشرح السيوطي، حاشية السندي، تحقيق: عبد الفتاح أبو عدة، بيروت: المكتبة العصرية، ٢٠٠٠م.

٥٦. النسائي (أحمد بن شعيب): سنن النسائي بشرح السيوطي، وحاشية السندي، دار البشائر، ١٩٨٨م.

٥٧. الوكيل (محمد السيد): المسجد النبوي عبر التاريخ، جدة: دار المجتمع للنشر والتوزيع، ١٤٠٩هـ.

٥٨. الولي (طه): المساجد في الإسلام، دار العلم للملايين.

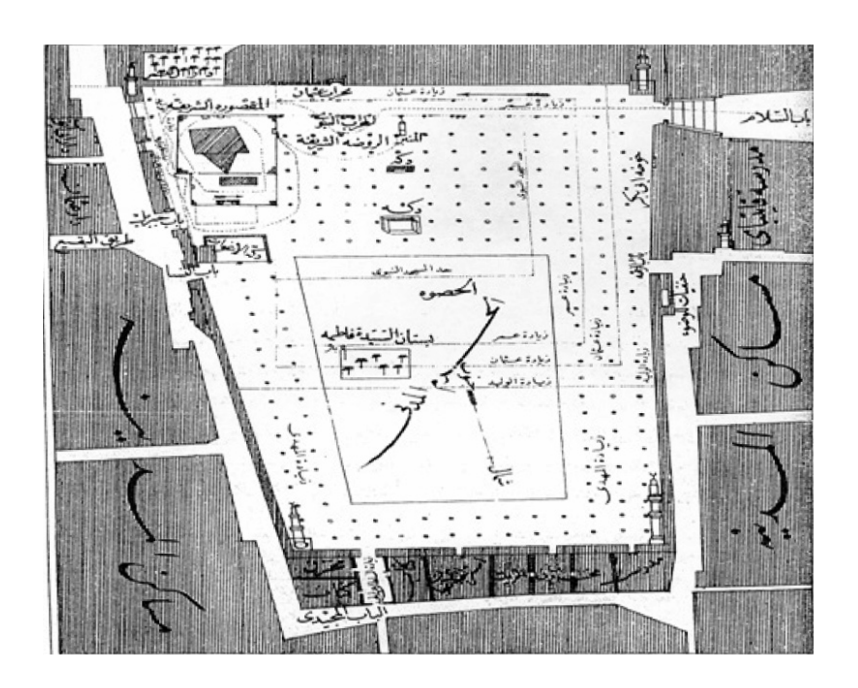
59. Sauvaget (Jean): La mosque Omayade de Medine, Paris.

60. Tradwell (LUKE): «Mihrab and Anaza» or «Sacrum and Pear», A reconsideration of an Early Marwanid Silver Drachm. Muqarnas, Vol. 22, 2005.

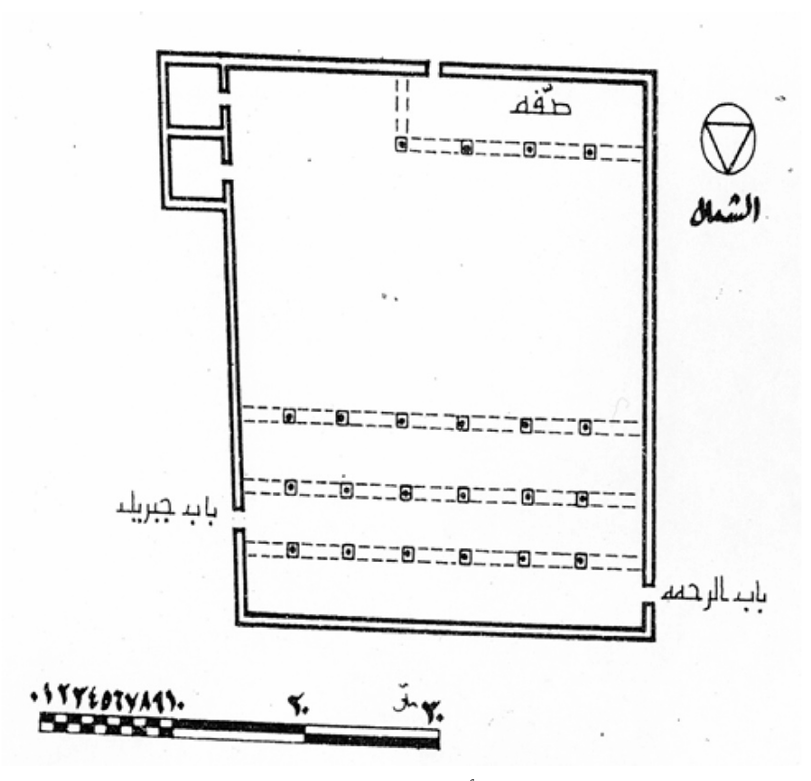
بيان الأشكال واللوحات

- شكل(١) مسقط أفقي لمسجد الرسول ﷺ سنة ١٣٥٧هـ عن كتاب «مدينة رسول الله» لابن النجار.
- شكل (٢) مسقط أفقي لمسجد الرسول ﷺ سنة ١هـ تصور (صالح لمعي مصطفي) وعمله.
- شكل (٣) مسقط أفقي لمسجد الرسول ﷺ سنة١هـ تصور الباحث وعمله.
- شكل (٤) تفريغ لدرهم العنزة والمحراب . عمل الباحث.
- شكل (٥) مسقط أفقي لقبة الصخرة (عن فريد شافعي)
- شكل (٦) شكل توضيحي لنوعي الطوب اللبن وطرق البناء في مسجد الرسول ﷺ(١-٧هـ) عمل الباحث .
- شكل (٧أ) مسقط أفقي لمسجد الرسول ﷺ سنة ٢هـ تصور وعمل صالح لمعي مصطفي.
- شكل (٧ب) مسقط أفقي لمسجد الرسول ﷺ سنة ٢هـ تصور وعمل الباحث.
- شكل (٨أ) مسقط أفقي لمسجد الرسول ﷺ سنة٧هـ تصور وعمل صالح لمعي مصطفي .
- شكل (٨ب) مسقط أفقي لمسجد الرسول ﷺ سنة٧هـ تصور وعمل الباحث.
- شكل(٩) شكل يبين موضع الصفة في مسجد الرسول ﷺ عن عبد الغني نقلاً عن النفيسي.

- شكل (١٠) رسم تخطيطي تصوري لمنبر مسجد الرسول ﷺ تصور وعمل الباحث.
- شكل(١١أ) رسم تخطيطي تصوري لمواضع بيوت زوجات النبي ﷺ تصور وعمل عبد الحكيم.
- شكل (١١ب) رسم تخطيطي تصوري لمواضع بيوت زوجات النبي ﷺتصور وعمل عبد الغني.
- شكل (١٢) رسم تخطيطي تصوري لمواضع بيوت زوجات النبي ﷺ تصور وعمل الباحث.
- شكل (١٣) رسم تخطيطي يبين موضع دار عثمان شرقي مسجد الرسول ﷺ تصور وعمل عبد الغني.

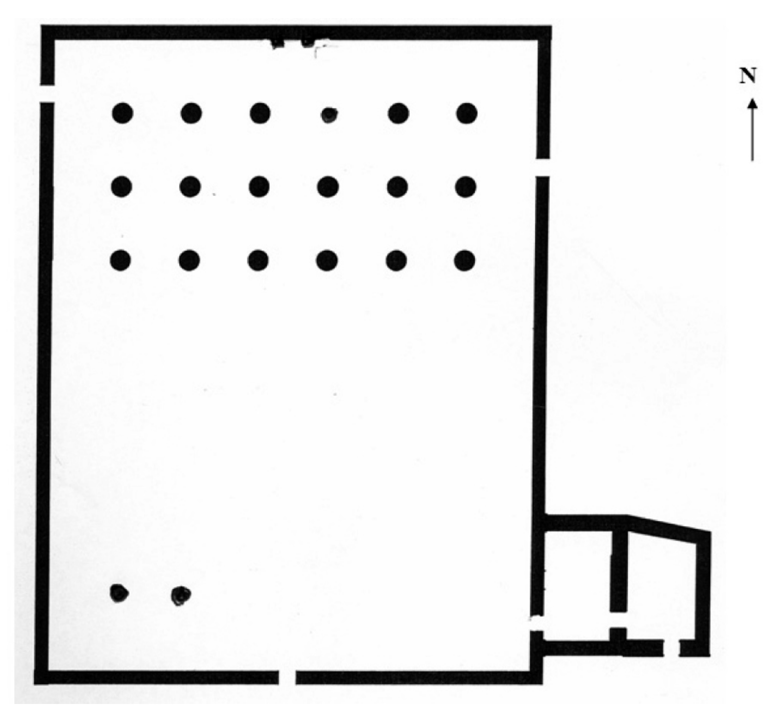


شكل(١) مسقط أفقي لمسجد الرسول ﷺ سنة ١٣٥٧هـ عن كتاب «مدينة رسول الله» لابن النجار.



شكل (٢) مسقط أفقي لمسجد الرسول ﷺ سنة ١هـ

تصور (صالح لمعي مصطفي) وعمله.



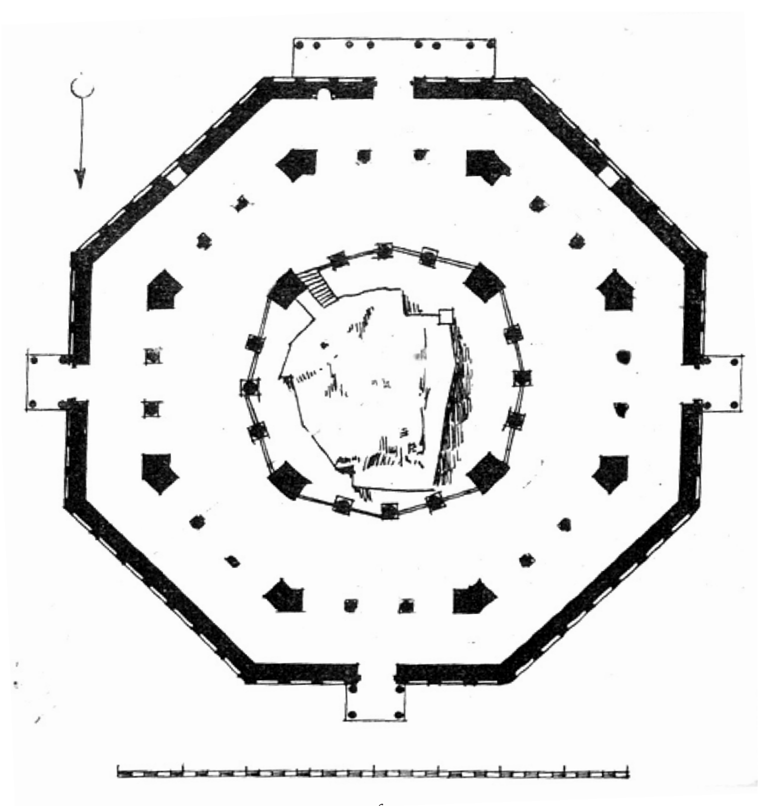
شكل (٣) مسقط أفقي لمسجد الرسول ﷺ سنة١هـ

(تصور الباحث وعمله).



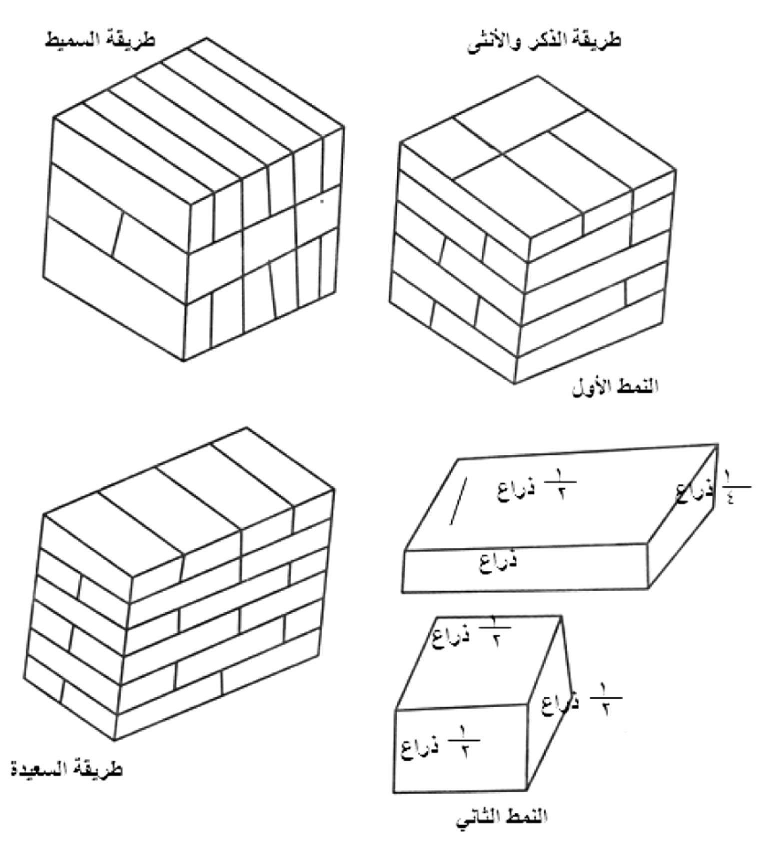
شكل (٤) تفريغ لدرهم العنزة والمحراب .

(عمل الباحث).

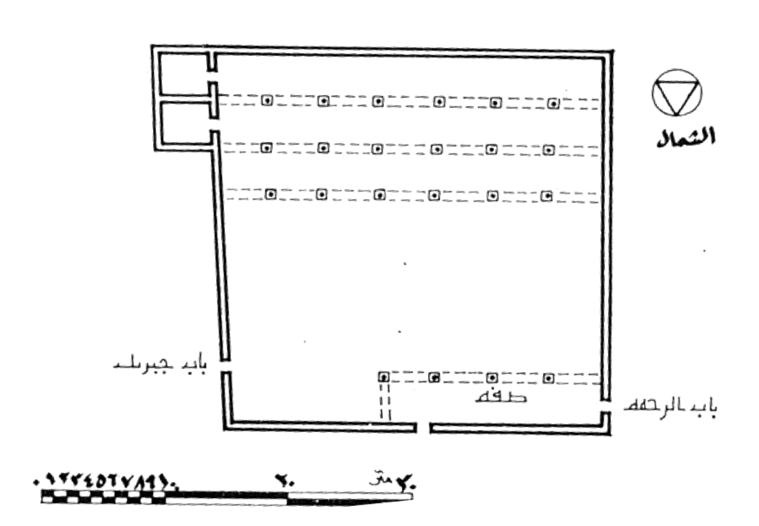


شكل (٥) مسقط أفقي لقبة الصخرة

(عن فريد شافعي)

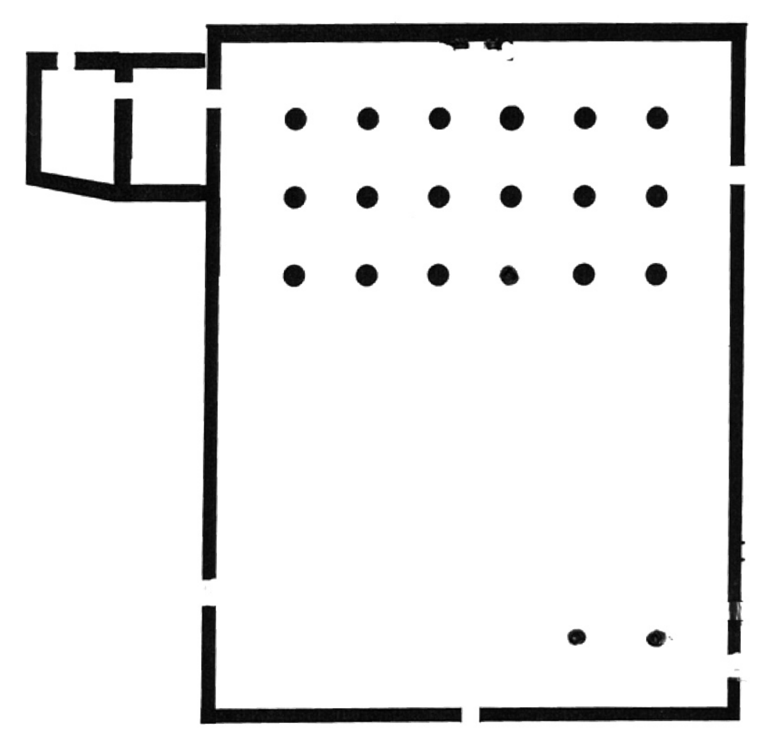


شكل (٦) شكل توضيحي لنوعي الطوب اللبن وطرق البناء (عمل الباحث) في مسجد الرسول ﷺ (١-٧هـ).

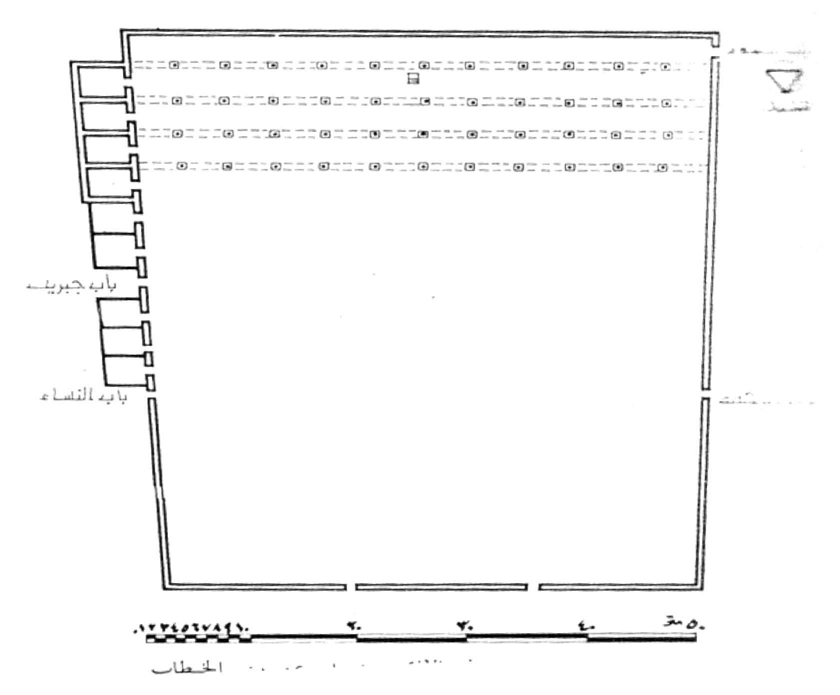


شكل (١٧أ) مسقط أفقي لمسجد الرسول ﷺ سنة ٢هـ

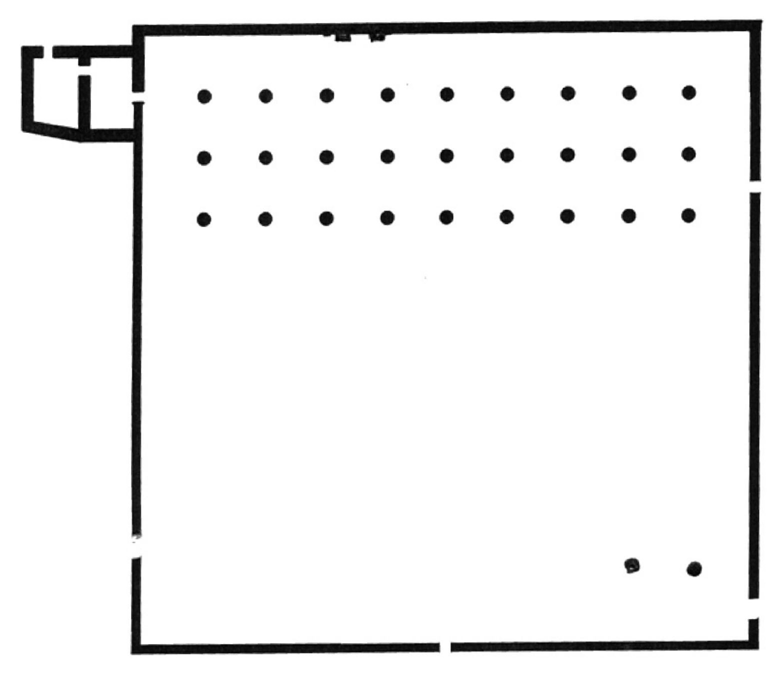
(تصور وعمل صالح لمعي مصطفي).



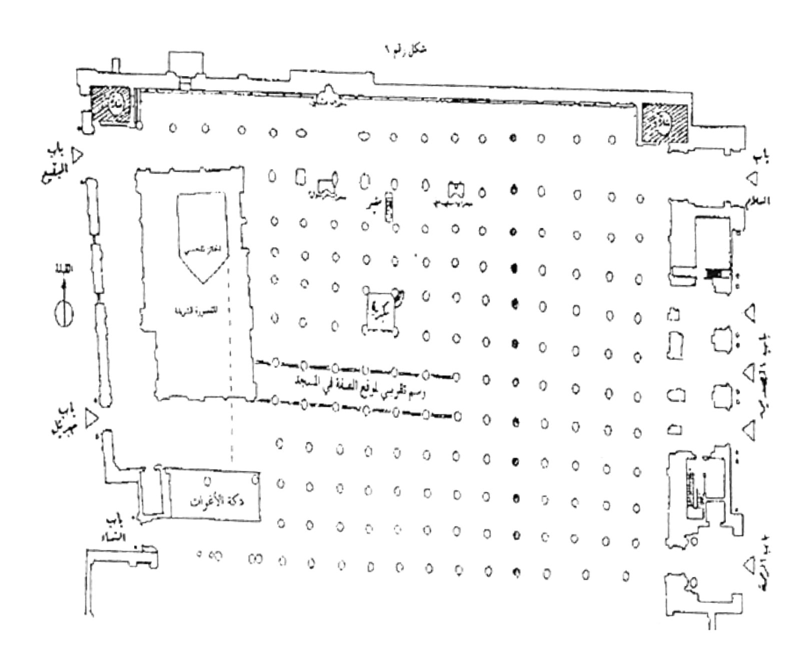
شكل (٧ب) مسقط أفقي لمسجد الرسول ﷺ سنة ٢هـ
(تصور وعمل الباحث).



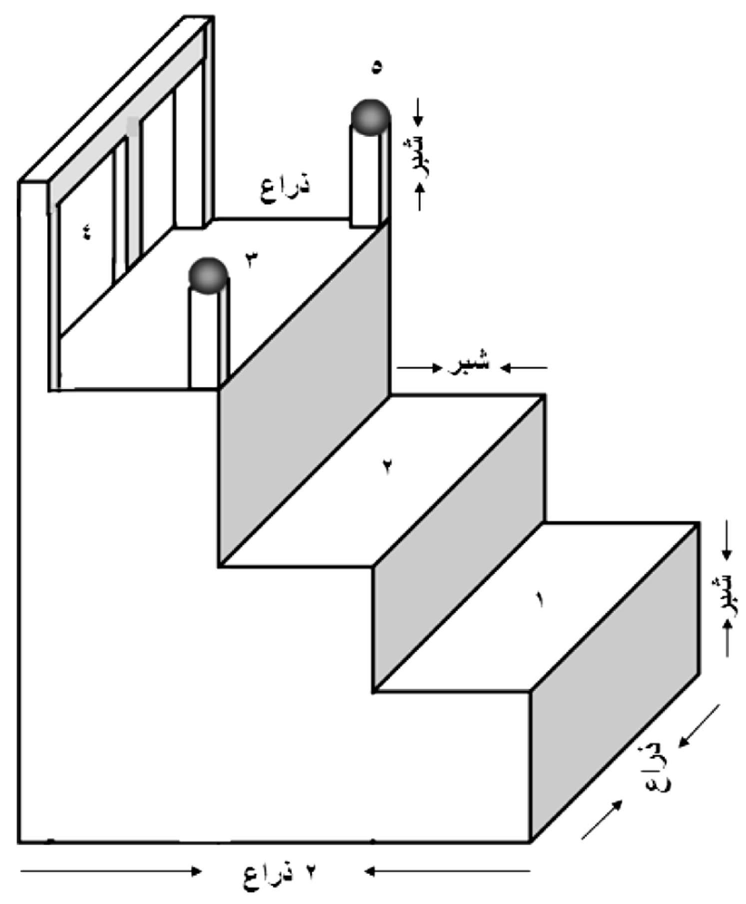
شكل (٨أ) مسقط أفقي لمسجد الرسول ﷺ سنة٧هـ
(تصور وعمل صالح لمعي مصطفي).



شكل (٨ب) مسقط أفقي لمسجد الرسول ﷺ سنة٧هـ
(تصور وعمل الباحث).



شكل(٩) شكل يبين موضع الصفة في مسجد الرسول ﷺ
(عن عبد الغني نقلاً عن النفيسي).



شكل (١٠) رسم تخطيطي تصوري لمنبر مسجد الرسول ﷺ

(تصور وعمل الباحث).

جنـــوب

حجرة حفصة

حجرة سودة

حجرة عائشة

القبـلة

المسجد النبوى

حجرة زينب بنت خزيمة وأم سلمة

حجرة فاطمة وعلى

شـرق

غـرب

حجرة زينب بنت جحش

حجرة جويريـة

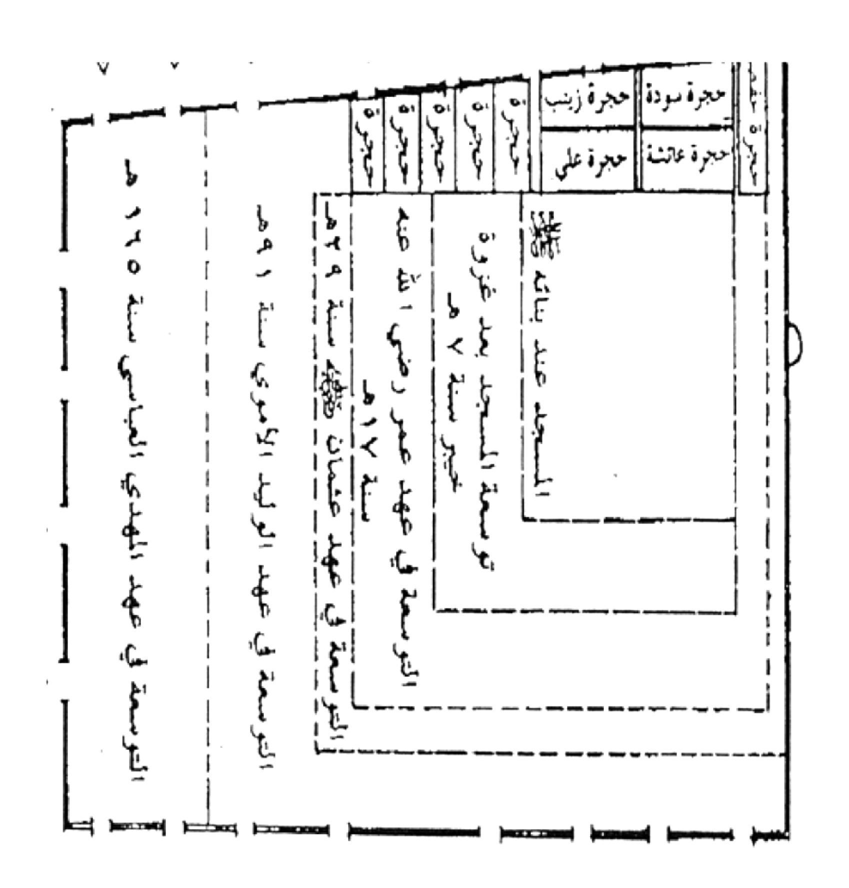
حجرة أم حبيبـة

حجرة صفية

حجرة ميمونة بنت الحارث

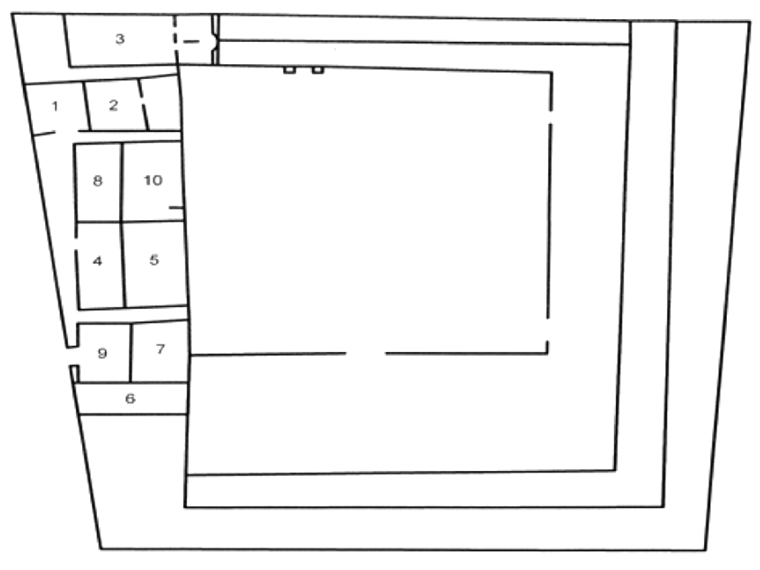
شمـــال

شكل(١١أ) رسم تخطيطي تصوري لمواضع بيوت زوجات النبي ﷺ (تصور وعمل عبد الحكيم).



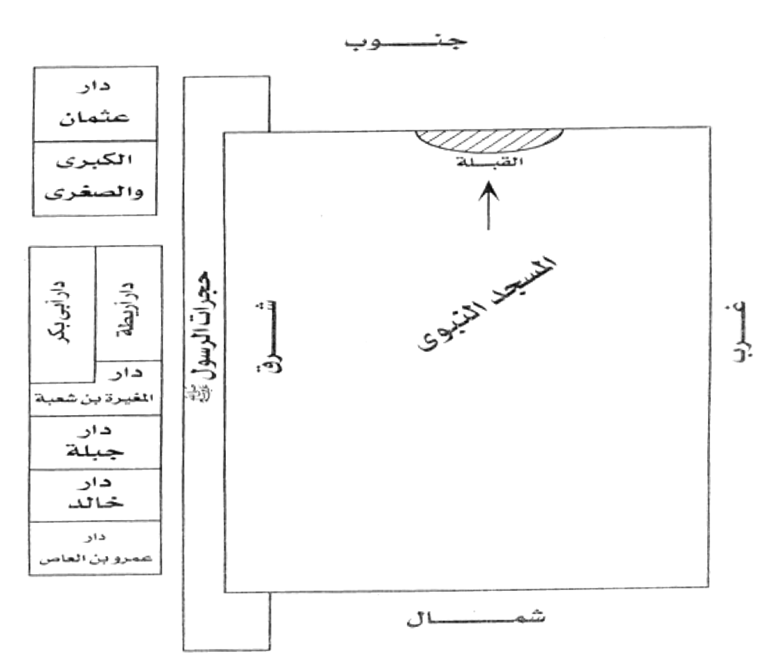
شكل (١١ب) رسم تخطيطي تصوري لمواضع بيوت زوجات النبي ﷺ

(تصور وعمل عبد الغني).



1- بيت السيدة سودة
2- بيت السيدة عائشة
3- بيت السيدة حفصة
4- بيت السيدة زينب بنت خزيمة "وام سلمة بعد وفاتها"
5- بيت السيدة زينب بنت جحش
6- بيت السيدة جويرية
7- بيت السيدة ام حبيبة بنت ابي سفيان
8- بيت السيدة صفية بنت حيي
9- بيت السيدة ميمونة
10- بيت السيدة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم

شكل (١٢) رسم تخطيطي تصوري لمواضع بيوت زوجات النبي ﷺ (تصور وعمل الباحث).



شكل (١٣) رسم تخطيطي يبين موضع دار عثمان شرقي

مسجد الرسول ﷺ

(تصور وعمل عبد الغني).



سلسلة إصدارات روافد

١- الشهود الحضاري للأمة الوسط في عصر العولمة.

د. عبد العزيز برغوث.

٢- عينان مطفأتان وقلب بصير (رواية).

د. عبد الله الطنطاوي.

٣- دور السياق في الترجيح بين الأقاويل التفسيرية.

د. محمد إقبال عروي.

٤- إشكالية المنهج في استثمار السنة النبوية.

د. الطيب برغوث.

٥- ظلال وارفة (مجموعة قصصية) .

د. سعاد الناصر (أم سلمى).

٦- قراءات معرفية في الفكر الأصولي.

د. مصطفى قطب سانو.

٧- من قضايا الإسلام والإعلام بالغرب.

د. عبد الكريم بوفرة.

٨- الخط العربي وحدود المصطلح الفني.

د. إدهام محمد حنش.

٩- الاختيار الفقهي وإشكالية تجديد الفقه الإسلامي.

د. محمود النجيري.

١٠- ملامح تطبيقية في منهج الإسلام الحضاري.

د. محمد كمال حسن.

١١- العمران والبنيان في منظور الإسلام.

د. يحيى وزيري.

١٢- تأمل واعتبار: قراءة في حكايات أندلسية.

د. عبد الرحمن الحجي.

١٣- ومنها تتفجر الأنهار (ديوان شعر).

الشاعرة أمينة المريني.

١٤- الطريق... من هنا.

الشيخ محمد الغزالي

١٥- خطاب الحداثة: قراءة نقدية.

د. حميد سمير

١٦- العودة إلى الصفصاف (مجموعة قصصية لليافعين).

أ. فريد محمد معوض

١٧- ارتسامات في بناء الذات.

د. محمد بن إبراهيم الحمد

١٨- هو وهي: قصة الرجل والمرأة في القرآن الكريم.

د. عودة خليل أبو عودة

١٩- التصرفات المالية للمرأة في الفقه الإسلامي.

د. ثـريـة أقصـري ______________

٢٠- إشكالية تأصيل الرؤية الإسلامة في النقد والإبداع.

د. عمر أحمد بو قرورة ______________

٢١- ملامح الرؤية الوسطية في المنهج الفقهي.

د. أبو أمامة نوار بن الشلي ______________

٢٢- أضواء على الرواية الإسلامية المعاصرة.

د. حلمي محمد القاعود ______________

٢٣- جسور التواصل الحضاري بين العالم الإسلامي واليابان.

أ. د. سمير عبد الحميد نوح ______________

٢٤- الكليات الأساسية للشريعة الإسلامية.

د. أحمد الريسوني ______________

٢٥- المرتكزات البيانية في فهم النصوص الشرعية.

د. نجم الدين قادر كريم الزنكي ______________

٢٦- معالم منهجية في تأصيل مفهوم الأدب الإسلامي.

د. حسن الأمراني ______________

د. محمد إقبال عروي ______________

٢٧- إمام الحكمة (رواية).

الروائي/ عبد الباقي يوسف ______________

٢٨- بناء اقتصاديات الأسرة على قيم الاقتصاد الإسلامي.

________________ أ. د. عبد الحميد محمود البعلي

٢٩- إنما أنت... بلسم (ديوان شعر).

________________ الشاعر محمود مفلح

٣٠- نظرية العقد في الشريعة الإسلامية.

________________ د. محمد الحبيب التجكاني

٣١- محمد ﷺ ملهم الشعراء.

________________ أ. طلال العامر

٣٢- نحو تربية مالية أسرية راشدة.

________________ د. أشرف محمد دوابه

٣٣- جماليات تصوير الحركة في القرآن الكريم .

________________ د. حكمت صالح

٣٤- الفكر المقاصدي وتطبيقاته في السياسة الشرعية.

________________ د. عبد الرحمن العضراوي

٣٥- السنابل... (ديوان شعر).

________________ أ. محيي الدين عطية

٣٦- نظرات في أصول الفقه.

________________ د. أحمد محمد كنعان

٣٧- القراءات المفسرة ودورها في توجيه معاني الآيات القرآنية.

———————— د. عبد الهادي دحاني

٣٨- شعر أبي طالب في نصرة النبي ﷺ.

———————— د. محمد عبد الحميد سالم

٣٩- أثر اللغة في الاستنباطات الشرعية.

———————— د. حمدي بخيت عمران

٤٠- رؤية نقدية في أزمة الأموال غير الحقيقية.

———————— أ.د. موسى العرباني

———————— د.ناصر يوسف

٤١- مرافىء اليقين (ديوان شعر).

———————— الشاعر يس الفيل

٤٢- مسائل في علوم القرآن.

———————— د. عبد الغفور مصطفى جعفر

٤٣- التأصيل الشرعي للتعامل مع غير المسلمين.

———————— د. مصطفى بن حمزة

٤٤- في مدارج الحكة (ديوان شعر).

———————— الشاعر وحيد الدهشان

٤٥- أحاديث فضائل سور القرآن: دراسة نقدية حديثية.

د. فاطمة خديد ________________

٤٦- في ميــزان الإسـلام.

د. عبد الحليم عويس ________________

٤٧- النظر المصلحي عند الأصوليين.

د. مصطفى قرطاح ________________

٤٨- دراسات في الأدب الإسلامي.

د. جابر قميحة ________________

٤٩- القيمُ الروحيّة في الإسلام.

د. محمّد حلمي عبد الوهّاب ________________

٥٠- تـلاميـذ النبـوة (ديوان شعر).

الشاعر عبد الرحمن العشماوي ________________

٥١- أسماء السور ودورها في صناعة النهضة الجامعة.

د/ فـؤاد البنـا ________________

٥٢- الأسرة بين العدل والفضل.

د. فريد شكري ________________

٥٣- هي القدس... (ديوان شعر).

الشاعرة: نبيلة الخطيب ________________

٥٤- مسار العمارة وآفاق التجديد.

———————— م. فالح بن حسن المطيري

٥٥- رسالة في الوعظ والإرشاد وطرقهما.

———————— الشيخ محمد عبد العظيم الزُّرْقاني

٥٦- مقاصد الأحكام الفقهية.

———————— د. وصفي عاشور أبو زيد

٥٧- الوسطية في منهج الأدب الإسلامي.

———————— د. وليد إبراهيم القصاب

٥٨- المدخل المعرفي واللغوي للقرآن الكريم.

———————— د. خديجة إيكر

٥٩- أحاديث الشعر والشعراء.

———————— د. الحسين زروق

٦٠- من أدب الوصايا.

———————— أ. زهير محمود حموي

٦١- سنن التداول ومآلات الحضارة.

———————— د. محمد هيشور

٦٢- نظام العدالة الإسلامية في نموذج الخلافة الراشدة.

———————— د. خليل عبد المنعم خليل مرعي

٦٣- التراث العمراني للمدينة الإسلامية.

________________ د. خالد عزب

٦٤- فراشات مكة... دعوها تحلق.. (رواية).

________________ الروائية/ زبيدة هرماس

٦٥- مباحث في فقه لغة القرآن الكريم.

________________ د. خالد فهمي

________________ د. أشرف أحمد حافظ

٦٦- محمود محمد شاكر: دراسة في حياته وشعره.

________________ د. أماني حاتم مجدي بسيسو

٦٧- بوح السالكين (ديوان شعر).

________________ الشاعر طلعت المغربي

٦٨- وظيفية مقاصد الشريعة.

________________ د. محمد المنتار

٦٩- علم الأدب الاسلامي.

________________ د.إسماعيل إبراهيم المشهداني

٧٠- الكِتَاب وصنعة التأليف عند الجاحظ.

________________ د. عباس أرحيلة

٧١- وسائلية الفقه وأصوله لتحقيق مقاصد الشريعة.

________________ د. محمد أحمد القياتي محمد

٧٢- التكامل المعرفي بين العلوم.

د. الحسان شهيد

٧٣- الطفولة المبكرة الخصائص والمشكلات.

د. وفقي حامد أبو علي

٧٤- أنا الإنسان (ديوان شعر).

الشاعر يوسف أبو القاسم الشريف

٧٥- مسار التعريف بالإسلام في اللغات الأجنبية.

د. حسن عزوزي

٧٦- أدب الطفل المسلم.. خصوصية التخطيط والإبداع.

د. أحمد مبارك سالم

٧٧- التغيير بالقراءة.

د. أحمد عيساوي

٧٨- ثقافة السلام بين التأصيل والتحصيل.

د. محمد الناصري

٧٩- ويزهر السعد (ديوان شعر).

الشاعر محمد توكلنا

٨٠- فقه البيان النبوي.

أ. محمد بن داود سماروه

٨١- المقاصد الشرعية للوقف الإسلامي.

د. الحسن تركوي

٨٢- الحوار في الإسلام منهج وثقافة.

أ.د. ياسر أحمد الشمالي

٨٣- أسس النظام الاجتماعي في الإسلام.

د. عبد الحميد عيد عوض

٨٤- حروف الإبحار (ديوان شعر).

الشاعر عصام الغزالي

٨٥- معالم منهجية في تجديد خطاب الفقه وأصوله.

د. مسعود صبري

٨٦- قبسات من حضارة التوحيد والرحمة.

أ. ممدوح الشيخ

٨٧- لقاء قريب (رواية).

الروائية مياسة علي عبدة النخلاني

٨٨- مقاصد الشريعة بين البسط والقبض.

د. محمد بولوز

٨٩- مدائن الصحوِ (ديوان شعر).

الشاعر محيي الدين صالح

نهـر متعــدد.. متـجــدد

هــذا الكتــاب

دراسة توضح مراحل تخطيط وإنشاء المسجد النبوي التي بدأت بإعداد الأرض، وتحديد حدودها الخارجية، وشكل الجدران وما بها من أبواب، وهيئة إنشائها على أساسات حجرية، ثم استكمال بنائها بالطوب اللبن، ثم عرضت لهيئة بناء السقف ومواده، وقياسات ارتفاعه، وعلاقة ذلك بقياسات الجدران، وكذلك بقياسات المنبر..

وَفَصّلَت الدراسة كل ما يتعلق بالملامح المعمارية لبيوت زوجات النبي من ناحية مواضعها في الجهة الشرقية من المسجد، وما يتصل بها مباشرة بالمسجد، وما ينفصل، والمواضع المؤكدة لبعض هذه الحجرات، والمواضع المرجحة لبعضها الآخر في إطار منهجي وبرؤية تصحح ما وقع في بعضها من أخطاء...



وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
قطاع الشؤون الثقافية
إدارة الثقافة الإسلامية
www.islam.gov.kw/thaqafa